traite_amour_coran_arabe_C5.indd 1 06/12/2016 22:29:10

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 2 06/12/2016 22:29:10

مَوسُوعَةُ
الحُبِّ
في القُرآنِ الكرِيمِ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 3 06/12/2016 22:29:10

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 4 06/12/2016 22:29:10

الدكتور إحسان بعدراني
الأستاذة نابغة ببيلي

موسوعة الحب في القرآن الكريم

الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ وَالْغَايَةُ

نَعَمْ لِلْحُبِّ ... لا لِلْكَرَاهِيَةِ وَالْحَرْبِ

Éditions ALIHSAAN

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 5 06/12/2016 22:29:11

Éditions ALIHSAAN
ÉDITION, DISTRIBUTION, LIBRAIRIE

www.alihsaan.net
ibaadarani@yahoo.com / alihsaan@alihsaan.net
0033 6 37 24 59 99
Directeur de l'édition
Oways Baadarani

Titre original : « Mawssou'at al-hubb fi-l-Qur'ân al-karîm »
Traduit de l'arabe par
Docteur Nabil AL-KHAYAT
Titre en français : « Traité de l'Amour dans le Coran »

Code français de la propriété intellectuelle (CPI)
Tous droits sont réservés pour tous pays

Le code de la propriété intellectuelle [CPI] (Loi du 1er juillet 1992) n'autorise, aux termes de l'article L. 122-5 alinéas 2° et 3° a), d'une part, que les « copies ou reproductions strictement réservées à l'usage privé du copiste et non destinées à une utilisation collective » et, d'autre part, que « les analyses et courtes citations justifiées par le caractère critique, polémique, pédagogique, scientifique ou d'information de l'œuvre à laquelle elles sont incorporées ».
« Toute représentation ou reproduction intégrale ou partielle faite sans le consentement de l'auteur ou de ses ayants droit ou ayants cause est illicite. Il en est de même pour la traduction, l'adaptation ou la transformation, l'arrangement ou la reproduction par un art ou un procédé quelconque ». (article L. 122-4 du CPI).
Cette représentation ou reproduction, par quelque procédé que ce soit, est une contrefaçon; et toute contrefaçon est un délit. La contrefaçon en France d'ouvrages publiés en France ou à l'étranger est punie de deux ans d'emprisonnement et de 1 50 000 Euros d'amende ». (article L. 335-2 du CPI).

© Maquette et réalisation
Lettres d'Or : www.lettresdor.fr / mail@lettresdor.fr / 06 73 560 461

© Ihsan BAADARANI – 2016
ISBN : 979-10-97075-01-9 / EAN : 9791097075019
Dépôt légal : Décembre 2016

الإِهْدَاءُ

إِلى المؤمنينَ بالحُبِّ الإِلهيِّ

إِلى المؤمنينَ بالحُبِّ للرُسلِ وَالنَبيِّينَ

إِلى المؤمنينَ بالحُبِّ للمُؤمنينَ

إِلى المؤمنينَ بالحُبِّ للناسِ أجمعينَ

إِلى مَنْ ﴿يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ﴾

إ . ن . ب .

Au nom de Dieu,
le Tout-Miséricordieux, le Très-Miséricordieux

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 8 06/12/2016 22:29:11

المُقدِّمَةُ :
مَا هُوَ الحُبُّ ؟

كان لا بدَّ ونحن نكتبُ الجزءَ الأولَّ (يُحبهم ويُحبونه) تعريفاً لِـ (الحبِّ)، عبر مختلف تجلياته، نحو الخالق والمخلوق في القرآن، وكذلك ونحن نكتب الجزء الثاني ترغيباً عن (الذين يحبهم الله) من مقسطين ومحسنين ومتوكلين و...، ثم ونحن نكتب الجزء الثالث تنبيهاً عن (الذين لا يحبهم الله) من معتدين وظالمين ومستكبرين و...، ثم ونحن نكتب الجزء الرابع عن (ما يُحِبُّهُ الإنسانُ)، ثُمَّ ونحن نكتب الجزء الخامس عن (ما يُحِبُّهُ المؤمنُ)، ثُمَّ ونحن نكتب الجزء السادس (إشارات إلى الحبِّ في آيات) كما ورد في القرآن الكريم، لا بدَّ من وقفة نقف فيها لنعيد للحبِّ مكانته، التي يجب أن يشغلها في حياة الناس، ولاسيما ما بين المؤمنين، قد يبدو الأمر بسيطاً للوهلة الأولى، لولا أن التنظير شيء، والتطبيق شيء آخر.

تعاريفُ الحبِّ عندَ أهلِ البيانِ والعرفانِ

فواضع التعريفات، وهو يضع للأشياء تعريفات تُعرف بها، إنما يرسم لها حدوداً تبدأ عند بدايتها، وتنتهي عند نهايتها، حدوداً تعرض حيناً لتكون جامعة، وتضيق حيناً لتكون مانعة، مستعيناً بمفردات تقرب المعنى من ذهن القارئ أو السامع، وهذا إن صح في كل الأمور، فهو لا يصح في (الحبِّ)، الذي ما سمعنا أحداً يعرف من أين يبدأ، وكيف ينتهي، ولا نعلم نقطة تحدد

بدايته، وأخرى تحدد نهايته.

ولقد قرأنا عشرات التعريفات لـ (الحبِّ) عند المفسرين، وعند اللغويين، ومثلها عند علماء السلوك الإنساني، وأكثر منها عند المتصوفة، وأهل العرفان، فوجدناها جميعاً تشرح أسبابه وموجباته، وعلاماته، وشواهده، ودلائله، وما يأتلف أو يختلف معه من أحوال، بحسب إدراك صاحب التعريف، ومقامه وقدرته على الإبانة والتعبير.

ولا نقصد – يعلم الله – بما قلناه آنفاً انتقاصاً لهؤلاء وأولئك، بقدر ما نريد أن نوضح أن (الحبَّ) سِرٌّ عَصِيٌّ على التعريف، إنْ حاولتَ تعريفَه، وبحرٌ من الغموض كلما حاولتَ الغوصَ في أعماقه زادَ غموضاً، وَأُفُقٌ عَرْضُه – في عين المحب – بِعَرْضِ السمواتِ والأرض، إنْ حاولتَ وضعَ حدودٍ له تَحوَّل إلى سجنٍ بلا منافذَ، ولا نوافذَ.

أُنْظُرْ معي إلى تعريف اللغويين لـ (الحبِّ)، قالوا : (الحبُّ) هو الصفاءُ، وهو السموُّ، وهو الثباتُ، وهو اللبُّ، في وصف مركز القلب وجوهره.

ثم انظر معي إلى تعريف أهل التصوف والعرفان لـ (الحبِّ)، فإنك ستجد المحور الأساس الذي تدور عليه هذه التعريفات، هو فناء الإنسان عن نفسه، وإنكاره لذاته، وبقاؤه في ربه، وإثباته لربه.

وهو أن يأخذ الإنسان نفسه بالتصفية، وقلبه بالتنقية، وأن يتخلى عن الصفات المذمومة، ويتحلى بالصفات المحمودة، بحيث ينكشف عن عين قلبه حجاب الحس، وينفتح من دون قلبه باب القدس، فإذا هو يرى ما لا عين رأت، ويسمع ما لا أذن سمعت، ويذوق من الحقائق، والدقائق، والرقائق ما لا يخطر على قلب بشر، وإنما يصبح الإنسان كذلك، لأنه يحب الله، ولا يصدر إلا عنه، ولا يرد أيَّ شيء إلا إليه، ولا يستمد أي عون إلا منه.

الذات الإلهية عنده، هي المنبع الأسمى لكل ما في الوجود من آيات الحق والجمال، وهي المورد الأسنى لكل ما في الكون من دلالات الخير والكمال.

ثم اسأل أيَّ قارئ يجهل (الحبَّ) : هل أسعفته هذه التعاريف في معرفة ما يجهل ؟ واسأل أيَّ قارئ اكتوى بنار (الحبِّ) : هل وجد في هذه التعاريف – منفردةً أو مجتمعةً – أثراً لما هو فيه ؟ أو صورةً تمثل للناظر فيها ما يتملكه ويتحكم في جوارحه ؟

الحُبُّ هو الحُبُّ

(الحُبُّ) هو (الحُبُّ) ولا شيء غير ذلك، و(الحبُّ) حرفان : حاء وباء، الأول رمز الروح، والثاني رمز البدن، التقيا فشع من لقائهما نور لا يراه إلا المُحِبُّونَ، وانبثق عن اجتماعهما عَالَمٌ من المشاعر، والأحاسيس، عالمٌ مطلق لامتناهٍ، لا حدودَ لبدايته، ولا حدود لنهايته، عالم لا تستطيع الألفاظ احتواءه، لأن من المحال حَشْرَ المطلق داخل أسوار المحدود، عالم يحكمه الذوق، حيث لا عقل ولا منطق ولا حواس، ومن هنا جاء قوله ﷺ : « حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي ويُصِمُّ »[1].

ونقول : (الحبُّ) هو الأصل في كل حركة، وعمل، فقد خلق تعالى الأشياء ساكنة أساساً، ثم جعل فيها محركاً دافعاً ومغناطيساً جاذباً، هو (الحبُّ)، لولاه لَمَا رأينا جاذبية أرضية تمنع الأجسام من أن تتناثر في الفضاء، ولما رأينا جاذبية كونية تحكم مدارات الكواكب في مجراتها، ومدارات الإلكترونات، والبروتونات في نواتها، ولما تمسكت البراعم بأغصانها في الأيام العاصفة، كما يتمسك الأطفال بأذيال أمهاتهم في الأسواق المزدحمة،

1. رواه أحمد في مسنده وأبو داود في سننه عن أبي الدرداء.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 11 06/12/2016 22:29:11

من هنا، ما قرأنا مرّةً قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [فاطر : 41]، وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج : 65]، إلا وفهمنا أن (الحبَّ) هو أداة الإمساك الإلهية، لهذه المجرات، في إطارٍ محكم دقيق، يصدقه قوله تعالى : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس : 40]، وفهمنا أيضاً، ما الذي أوحى إلى أئمة التصوف أن يعتبروا (الحبَّ) اسم الله الأعظم، الذي يمسك القلوب الخافقة به، مع كل نبضةٍ في كل وقت.

لكننا لا يسعنا، إلا الوقوف أمام (حُبٍّ) من نوع خاص هو (حب الشهوات)، أشار إليه تعالى بقوله : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران : 14]، لا علاقة له بـ (الحبِّ)، الذي قصده تعالى بقوله : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة : 54].

ولقد رأينا كثيرين ممن قالوا في (الحبِّ)، يخلطون (الحبَّ) بالهوى، انطلاقاً من الترادف، وهذا إن جاز عند الشعراء والأدباء والعبَّاد إلا أنه لا يجوز عند حملة القرآن، من فقهاء وعلماء، نقول هذا وأمامنا كتاب بعنوان (محبة الله)[1] : ورد في مقدمته ما يلي : (فسبحانَ مَنْ صَرَّفَ عليها القلوب كما يشاء، ولما يشاء بقدرته، واستخرج بها ما خلق له، كل حي بحكمته،

1. تأليف الإمام ابن قيم الجوزية، 691-751 هـ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 12 06/12/2016 22:29:11

وصَرَّفَها أنواعاً وأقساماً بين بَرِيَّته، وَفَصَّلها تفصيلاً، فجعل كل محبوب لمحبه نصيباً، مخطئاً كان في محبته أو مصيباً، وجعله يحبه منعماً أو قتيلاً، فقسمها بين محب الرحمن، ومحب الأوثان، ومحب النيران، ومحب الصُّلبان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب النسوان، ومحب الصبيان، ومحب الأثمان، ومحب الإيمان، ومحب الألحان، ومحب القرآن)[1] أهـ.

إن أول ما يستوقفنا، ويثير عجبنا في السطور السالفة، هو أن الإمام يجعل (الحبَّ) أقساماً، لا بل ينسب إلى الله سبحانه، أنه جعله أقساماً مقسومةً ومُقسَّمةً، و(الحبُّ) جوهر، لا ينقسم، قد تتعدَّدُ صورُ تجلياته، وتتعدد مقاماته، وأحواله، لكن تلك التجليات، وهذه المقامات، والأحوال، تبقى – على تعدُّدِها – كحبّاتِ القلائد منتظمة في سلك واحد هو (الحبُّ).

وإن ثاني ما يثير دهشتنا، هو أن الإمام جعل (حب النسوان وحب الأثمان) قسمين من أقسام (الحبِّ)، ووضعهما في مرتبة واحدة، مع باقي الأقسام كما يراها، رغم أنهما يندرجان تحت بند الشهوات، بدلالة آية آل عمران 14 التي سلف ذكرها، والفروقات بين (الحبِّ) و(الشهوات) عديدة ومعروفة، أبرزها أن شهوة النساء، وشهوة المال غرائز تكوينية نحن مأمورون بمغالبتها وتنظيمها، وكبح جماحها، بينما الحبُّ معيار أخلاقي سامٍ، نحن مكلفون به.

ثم يمضي الإمام في تعداد (مراتب المحبة) العشر : العلاقة، والميل، والصبابة، والغرام، والوداد، والشغف، والعشق، والتتيم، والتعبد، والخلة[2].

ونقول : نحن من جهة أولى، نستحسن مفردات أهل التصوف في هذا المجال، حين يسمونها مقامات وأحوال، ولا يسمونها مراتب، لأن في

1. انظر كتاب محبة الله لابن قيم الجوزية، ص55.
2. انظر كتاب محبة الله لابن قيم الجوزية، ص181-186.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 13 06/12/2016 22:29:11

المراتب فضلاً للأعلى على الأدنى، أما في الأحوال فلا تفاضل بينها.

ونحن من جهة ثانية، نرى أن هذه المراتب العشر، هي مراتب محبَّة العبد للعبد، والمخلوق للمخلوق، ما عدا (التَّعَبُد)، لا يختلف في ذلك عاقلان، قال تعالى : ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف : 30]، تعالى الله عما يصفون.

ونحن من جهة ثالثة، نفتقد في هذه المراتب العشر – إن اعتبرناها أحوالاً – جملة مقامات أغفلها الإمام من بينها : الشوق، والوجد، والوله، والهيام و...، لعله لم يعتبرها مراتب!

وإليك مقتطفات مما نُقِلَ في كتاب الإحياء وغيره عن بعض العلماء من القدماء، مما يرون أنه أوحى به تعالى إلى بعض المتصوفة : إن لي عباداً من عبادي أحبهم ويحبونني، ويشتاقون إليَّ، وأشتاق إليهم، ويذكرونني، وأذكرهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، قال يا رب وما علامتهم ؟ قال : إذا جنهم الليل، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا إليَّ أقدامهم، وناجوني بكلامي، فبين باكٍ وشاكٍ، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي[1].

تلك كانت باقة من أجمل تعريفات الحبِّ عند أهل العرفان، ولكن أين هو جمالها من جلال تصاريف الحبِّ في القرآن، ولاسيما إسنادات فعله إلى الله تعالى، المبينة لما يحبه تعالى، وما لا يحبه، والتي خصصنا لها أكثر من نصف موسوعتنا هذه.

---

1. إحياء علوم الدين، ج2 ص203.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 14 06/12/2016 22:29:11

تصاريفُ الحُبِّ في القرآنِ

الحبُّ من ثوابت القرآن الكريم، بدلالة ورود ذكره صراحة في 83 موضعاً من التنزيل الحكيم، ومع ذلك لا يفوت المتأمل في المعاني، والمقاصد التي ترسمها الآيات في هذه المواضع، أن في الحبِّ جانباً متغيراً يصعب - إن لم نقل من المحال - تجاهله، فالحبُّ يتغير أولا معناه وتعريفه بتغيُّر فاعله، فإن كان المحب إنساناً تجلَّى حبه في صور بعضها إيجابي، وبعضها الآخر سلبي، أما إن كان المحب هو الله، وهو الغالب من تواردات فعل الحبِّ إثباتاً ونفياً 44 مرة من أصل 83، فإن معنى الحبِّ يتغير، ويبلغ مقامات، ومقاصد قرآنية خصصنا لها جزءين كاملين من أجزاء موسوعة الحبِّ الخمسة.

والحبُّ يتغير معناه وتعريفه كذلك بتغيُّر مفعوله، فيكتسب شحنة إيجابية، حين يكون حباً لما يرضاه الله من الأشياء، أو سلبية، إذا كان حباً لشهوات الدنيا - وسنعرض لهذه الأنواع من الحبِّ في الجزء الرابع من هذه الموسوعة -، وقد يتحول الحبُّ ظلماً، إذا كان موضوعه الأنداد من دون الله، وأما إن كان المحبوب إلهاً واحداً أحداً، ليس كمثله شيء، فهو حبٌّ محطُّ ثناءِ الله، سنتعرض له خلال دراستنا لآيات مفتاحية، ستكون مركز اهتمام الجزء الأول من موسوعة الحبِّ في القرآن.

وكما أسلفنا في نهاية عرضنا لمختلف تعاريف أهل البيان والعرفان للحب، فإن ما سيجده القارئ في تصاريف الحبِّ في القرآن، لمختلف جداً في فضاءاته، وفي إضاءاته، ويكفينا الإعلان من الآن، أن معيار الحبِّ في القرآن هو الأفعال، والأحوال لا الأقوال.

انظر معي - ابتداءً - إلى بعض تعاريف المفسرين لـ (الحبِّ) في بعض الآيات القرآنية :

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 15 06/12/2016 22:29:11

أولاً : الحبُّ بمعنى الإيْثَار، قال تعالى : ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر : 9].

ثانياً : الحبُّ بمعنى القِلَّة، قال تعالى : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ [الإنسان : 8].

ثالثاً : الحبُّ بمعنى الانتفاع، قال تعالى : ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف : 13].

رابعاً : الحبُّ بمعنى التَّعَلُّق، قال تعالى : ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾ [الفجر : 20].

خامساً : الحبُّ بمعنى الودّ من الله الودود للإنسان، والطاعة والعبادة من الإنسان لله الودود، قال تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة : 54].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 16 06/12/2016 22:29:11

الجزء الأول

يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 18 06/12/2016 22:29:11

مُقَدِّمَة

نَهَلْنَا عنوان هذا الجزء الأول من موسوعة الحبِّ من آية سورة المائدة :
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة : 54].

وكان سبب اختيار هذه الآية تكرار فعل الحبِّ فيها مرتين، تكرار تشارك، وتلازم بين حب الله للمؤمنين : ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ وبين حب المؤمنين لله : ﴿وَيُحِبُّونَه﴾، وهو تشارك، وتلازم يلخص أطروحة هذه الموسوعة المتمثلة في كشف ثابتةٍ من كليات الثوابت في القرآنِ منسيةً، ألا، وهي الحبُّ الذي ينبغي أن يكون في أساس العلاقة بين الإنسان وربه، وفي أساس العلاقة بين المؤمنين، وفي أساس العلاقة بين الناس أجمعين.

يدور هذا البحث أساساً حول دلالات أنواع الحبِّ المذكورة في الإهداء، نجدها في عدد محدود من آيات الحبِّ المفتاحية، وإن كان حب الله تعالى للمؤمنين، هو أرومته، وجذعه فيها، كما هو حال صفات الخير جميعاً في القرآن، فهي مستمدة من صفاته الحسنى تعالى، والحبُّ المذكور 83 مرة في القرآن، هو من هذه الصفات، مرتبط مباشرة بالرحمة، أكثر صفاته تعالى ذكراً في القرآن 326 مرة، بعد العلم 768 مرة.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 19 06/12/2016 22:29:12

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

قال تعالى في سورة المائدة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة : 54].

تأتي هذه الآية الكريمة في سياق نهي منه تعالى مطول، ومفصل للمؤمنين (امتد على مساحة ثماني آيات، ابتداء من الآية 51 وإلى غاية الآية 58) عن موالاة من اتخذ دين الله هزواً، ولعباً من أهل الكتاب[1]، إلى درجة اعتبار هذه الموالاة نوعاً من الارتداد عن الدين، يستدعي منه تعالى استبدال القوم الموالين للغير بقوم آخرين، يتميزون في أول ما يتميزون به بذكر محبة الله لهم، ومحبتهم لله بسبب جهادهم في سبيل الله، وعدم خشيتهم لومة لائم.

كيف يمكننا فهم، وبالتالي رسم هذا التميز، فهماً ورسماً، يبتعدان عن طغيان الأهواء في التفسير ؟ نفهمه ونرسمه بثلاث قرائن من نص الآية توصِّف لنا واقع هؤلاء المحبوبين المحبين : أولاً بأنهم يقفون موقف التذلل

1. يبتدئ هذا النهي في الآية رقم 51 معتبراً موالاة الغير ظلماً لأن هذا الغير يوالي نفسه ولا يوالي غيره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة51]، ويتكرر هذا النهي في الآية رقم 57 مع إضافة سببه المباشر، وهو اتخاذ هذا الغير دين الله هزواً ولعباً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : 57].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 20 06/12/2016 22:29:12

(تحبباً وتواضعاً)[1] من إخوانهم المؤمنين، في الوقت نفسه الذين يقفون فيه موقف العزة تجاه المستهزئين بدينهم لاعبين، وثانياً بجهادهم في سبيل الله الهادف أساساً إلى إعلاء كلمة الحق، وليس إلى الاستيلاء على بلاد الآخرين، ودليل ذلك، هو القرينة الثالثة المتمثلة في ثباتهم على مواقف العزة والصدق، بحيث لا يثنيهم عنها لوم اللائمين لهم من الناس الذين تعودوا على قلب مواقفهم، بحسب تقلب موازين القوى.

لقد اعتبر القرآن هذه الصفات في هؤلاء المحبوبين من الله، والمحبين له، فضلاً منه تعالى، آتاهم إياه، بتمييزهم عن قوم من المنافقين المذبذبين الذين لا يستطيعون الثبات على موقف واضح، بسبب غلبة ذل المصالح على قناعاتهم وسلوكاتهم.

أليس هذا ميزة يتميز بها الحبُّ في القرآن، من حيث قيامه على أساس الأفعال، وليس على الأقوال، ولعل من الطبيعي سبق حبه تعالى لحب المؤمنين، لأن حبه فعل، وأمر لا يسبقه به أحد، ولذلك تكرر رضاه عن المؤمنين، قبل رضاهم عنه، أكثر من مرة في القرآن :

﴿قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة : 119].

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة : 100].

---

1. من أصل تسعة تواردات للذل ومشتقاته (ذلة وأذلة) لا يذكر بمعناه الإيجابي إلا في هذا السياق من التحبب والتواضع للمؤمنين، وكذلك في سياق الإحسان إلى الوالدين والبر بهما : ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء : 24].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 21 06/12/2016 22:29:12

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: 7-8].

ويتجلى حبه تعالى لعباده في خلقه الإنسان في أحسن تقويم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4].

وفي تكريمه لبني آدم وتفضيلهم على غيرهم من خلقه وإنعامه عليهم برزقه إياهم من الطيبات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: 70].

ويتجلى حبه تعالى خاصة في تفضله تعالى على عباده، بما آتاهم من نعمه الظاهرة في الأرض، والجَليَّة في الأنفس، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: 20]، ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21]، وهي عديدة في الكون الذي أراده الله أن يكون بقوله: (كُنْ) فكان، قال تعالى: ﴿اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 32-34].

لقد ختم الله سبحانه هذه الآيات الكريمة مؤكداً – بالأداة (إنَّ)، وباللام الابتدائية المزحلقة، وبصيغة لفظ المبالغة (ظلوم، كفَّار) –، على أن الإنسان ظلوم كفَّار، ظلوم لنفسه، ظلوم لربّه، كفّار بنعم الله التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 22 06/12/2016 22:29:12

ونقفُ عندَ قولِ رسولِ اللهِ ﷺ : « أحبُّوا اللهَ لما يَغْذُوكُمْ به من نِعَمِه »[1]، والذي يَدُلُّ على مدى حُبِّ الرَّبِّ سبحانه لِخَلْقِهِ بِتَعَدُّدِ نِعَمِه.

1. رواه الترمذي والحاكم.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 23 06/12/2016 22:29:12

من ثوابت القرآن الكريم (2)

﴿أَنداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾

قال تعالى في سورة البقرة : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَنداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة : 165].

تأتي هذه الآية التي تعلن حب الذين آمنوا لله في سياق تشنيعٍ بنوعٍ من الشركِ، يؤدي بالمشركين إلى اتخاذ أندادٍ مزعومين لله، ويتجلى هذا الشرك في حب هؤلاء الأنداد حباً، يساوي حب الله : ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾، ليس هذا حال المؤمنين الذين يؤمنون بإله واحد، ويحبونه حباً لا يضارعه في شدته أي حب آخر : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾، ويفهم من سياق الآيتين التاليتين لآية الأنداد من سورة البقرة نفسها، أن حب الأنداد المزعومين، جاء اتباعاً من الضعفاء لسادتهم من الكبراء الذين ضللوهم، حيث يعتبر القرآن حب الأنداد ظلماً سيحاسب عليه كلٌّ من المتبِعين الضعفاء، والمتبَعين الكبراء، بأشد العذاب على حد سواء، لقبول كل منهم لهذا الحبِّ الظالم الخاطئ، وتصور الآيتان الأخيرتان من هذا المشهد القرآني، مدى حسرة المُتبِعين الضعفاء على اتباعهم المتبَعين الكبراء، حسرة لا طائل من ورائها : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَنداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 24 06/12/2016 22:29:12

﴿يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة : 165-167].

ولآيةِ البقرة أعلاه خصوصيةُ ورودِ الحبِّ مرتين، حباً خاطئاً خاسراً في الأولى (لأن المحبوب لا يوجد في الواقع)، (بل ممتنع الوجود) وحباً صواباً رابحاً في الثانية (لأن الله موجود حقاً)، (بل واجب الوجود)، ونلاحظ فيها كذلك تكراراً آخر يتمثل في ورود فعل الاتباع ثلاث مرات، في سياق تشنيعٍ، لأنه اتباع بمعنى الطاعة، لمن لا ينبغي اتباعه، ولا طاعته من الضالين المضلين.

ولذلك نرى الآية من سورة التوبة تحذر المؤمنين من حب أحد، أو شيء، حباً أكثر من حبهم لله، وحبهم لرسوله، لأنهم إن فعلوا ذلك كانوا فاسقين، أي خارجين عن إيمانهم بالله الذي يتطلب جعل حب الله فوق كل حب : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة : 24].

نفهم من وعيد الآية أعلاه، أن تفضيل حب الله ورسوله على كل حب شرط من شروط اكتمال إيمان المؤمن، وهذا ما أكده صراحة حديث صحيح لرسول الله ﷺ تعددت رواياته : فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ولا يؤمن أحدكم حتى أكون أحَبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »[1].

ونختم بحديث يخلد تراثاً نبوياً إنسانياً حيث ينقل لنا رسول الله ﷺ عن داود عليه السلام دعاءً جامعاً في الحبِّ، منطلقاً من حب الله تعالى قولاً وعملاً،

1. مسند الإمام أحمد.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 25 06/12/2016 22:29:12

عن أبي الدرداء ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « كان من دعاء داود ﵇ : اللهم إني أسألك حُبَّك، وحُبَّ من يُحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حُبك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلي »[1].

1. رواه الترمذي

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 26 06/12/2016 22:29:12

من ثوابت القرآن الكريم (3)

﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾

قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران : 31].

وهذه ثالث آية يتكرر فيها فعل الحبِّ مرتين في سياق نهيه تعالى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، مع وعيد ببراءته تعالى ممن يفعل ذلك منهم : ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران : 28].

ويُدعَّم هذا النهي والوعيد بتأكيد علمه تعالى بما في الصدور، تماماً كما يعلم ما في السموات والأرض، ومن نتائج هذا العلم إحضار صحائف أعمال كل نفس يوم القيامة : ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ﴾ [آل عمران : 29-30].

في هذا السياق تأتي آية الحبِّ رقم 31 من سورة آل عمران مسبوقة (كما هو حال الآية رقم 29 قبلها وحال الآية رقم 32 بعدها) بفعل القول في صيغة أمر صادر منه تعالى مباشرة إلى الرسول، بمخاطبة المؤمنين، بما يأمره به ربه : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إذا تأملنا في نسق الآية وجدناها جملة شرطية بحرف الشرط (إنَّ) وجملة شرطها حب المؤمنين لله، وجواب شرطها اتباع رسوله في صيغة أمر،

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 27 06/12/2016 22:29:12

بمعنى أن صحة حب المؤمنين لله مرتبطة باتباع رسول الله، ولكن جواب الشرط متبوع بجملة حب الله، التي جاءت لتحوِّل جواب شرط الاتباع إلى جملة طلب تستدعي جواباً له، هو حب الله تعالى للمؤمنين، الذي يفرض نَسَقُ الآية أنه نتيجة لاتباع الرسول، بمعنى الثواب على هذا الاتباع : ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾.

ولكن الاستتباع في نسق الآية هنا، لا يقف عند نتيجة الحبِّ أو ثوابه، بل يمتد، بفضل واو العطف، إلى المغفرة التي جاء فعلها مجزوماً، كتابع لفعل الحبِّ، ليقدم لنا تعريفاً عملياً لحبه تعالى للمؤمنين، يتمثل في مغفرته تعالى لهم، مغفرةً تتأكد بخاتمة، تقرر كثرة مغفرته تعالى ورحمته : ﴿يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ﴿وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، إنها آية مركزية تميزت، بالإضافة على ما ذكرناه آنفاً، بما يلي :

أولاً : مجيء فعل الحبِّ مسنداً إلى المؤمنين قبل مجيء فعل الحبِّ مسنداً إلى الله تعالى، وهذا السبق لحب المؤمنين يفسره سياق الآية، حيث يقتضي حب المؤمنين لله، في مضمونه العملي اتباع رسوله، بمعنى طاعته.

ثانياً : واستتباعاً لأمر الآية رقم 31 باتباع رسول الله ﷺ، تُصدَّر الآية رقم 32 بفعل القول نفسه، في صيغة الأمر لرسول الله ﷺ، بتحديد معنى اتباعه، وهو طاعة لله ورسوله، لِتُختَتَمَ الآية باعتبار انعدام هذه الطاعة تولياً، بمعنى الكفر (الجحود والنكران)، الذي يستدعي التذكير، من باب الوعيد، بعدم حبه تعالى للكافرين : ﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران : 32].

ثالثاً : ومما ينبغي ذكره هنا، على أنه ميزة للحب في آيات سورة آل

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 28 06/12/2016 22:29:12

عمران أعلاه، هو أن مركز الاهتمام فيها، هو حب المؤمنين لرسول الله ﷺ الذي لم يذكر بلفظه، استبقاء لسبق الحبِّ لله تعالى، ولكن ذكر، وأُكِّدَ بمضمونه العملي، وهو الاتباع والطاعة.

هذا بحثٌ كبيرٌ، مكانه كتابٌ مستقلٌ، ولكن نكتفي هنا بالتعرض سريعاً، لثلاثة وجوه يتجلى فيها الحبُّ لرسول الله ﷺ، أولها : الطاعة، ثانيها : الاتباع، ثالثها : الأسوة.

1- الطَّاعةُ

إن كان المحبوب هو الله ﷻ، اقترن حبه بالعبادة، وإن كان المحبوب هو الرسول ﷺ، اقترن حبه بطاعته، وقد وردت طاعة الرسول في مواضعها من الآيات منفردة، ومثالها في قوله تعالى : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: 56]، ووردت متلازمة مع طاعة الله، كما في قوله تعالى : ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ﴾ [المائدة: 92]، ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: 132]، ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ﴾ [الأنفال: 46]، وهذا تلازم منطقي بين طاعة الله، وطاعة الرسول ﷺ.

ولما كانت الطاعة سلوكاً اختاره الإنسان، كان من الطبيعي أن يُثاب الطائع على طاعته، وكان من الطبيعي أيضاً، أن نجد صور ثواب الطاعة وثمراتها في الكتاب العزيز، يقول تعالى :

- ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: 54]، والهدى أول ثمرات الطاعة.
- ﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ [النساء: 13]، والفوز بالجنة ثاني ثمار الطاعة.
- ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: 132]، والرحمة من الله ثالث ثمار الطاعة.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 29 06/12/2016 22:29:12

2- الاتِّباعُ

ذلك هو الوجه الأول من وجوه محبة الرسول ﷺ، أما الوجه الثاني، فهو الاتباع، كما قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾ [آل عمران : 31]، والاتباع بمعناه العام عدم التولي عن الله ورسوله في كل أمر أو نهي، وعدم الولاء لغيرهما.

3- الأُسوَةُ

وأما الوجه الثالث من وجوه محبة الرسول ﷺ، فهو الأسوة، التي نجدها في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب : 21].

والأسوة مفردةٌ قرآنيةٌ، وردت في ثلاثة مواضع من التنزيل الحكيم، والأسوة لغةً هي : الإصلاح، والمداواة، والاقتداء، وبهذا المعنى الأخير، وردت الأسوة في مواضعها من التنزيل الحكيم، أولاها : في الآية أعلاه، وهي تخص رسول الله ﷺ، والثانية والثالثة : في سورة الممتحنة، حيث القدوة الحسنة تتمثل في براءة نبي الله إبراهيم عليه السلام، والذين آمنوا معه من الشرك، والمشركين : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الممتحنة : 4]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة : 6].

كانت تلك آيات من كتاب الله العزيز، تحثنا على حبٍّ لرسول الله ﷺ، بِلُغَتَي الاتباع والطاعة، أما في السنة، فنجد حديثاً لرسول الله ﷺ، يحثنا بصريح العبارة على جعل حبه أكبر، وأكثر من حب المؤمن لوالده، ولولده، وأكثر، والحديث صحيح رواه معظم أئمة الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه خاصة،

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 30 06/12/2016 22:29:12

وقد اقتبسنا أهم رواياته من موسوعة الحديث : « والذي نَفسي بيدهِ، لا يُؤمنُ أَحدكمْ حتى أَكونَ أَحبَّ إليهِ منْ وَالدهِ ووَلدهِ »[1].

لنختم هذا البحث بحديث آخر لرسول الله ﷺ، يتضمن ثلاث حالات من الحبِّ، يحثنا فيه على حب الله سبحانه وتعالى، وعلى حب رسوله ﷺ، وحب أهل بيته ﷺ، قال ﷺ : « أحبُّوا اللهَ لما يَغذُوكم به من نِعَمِهِ، وأحبوني لِحُبِّ الله، وأحبُّوا أهل بيتي لِحُبِّي »[2]، وأهل بيت رسول الله ﷺ هم كل من يطيعه ويتبعه ويتأسى به، ودليل ذلك كلام الله سبحانه لنوح عليه السلام في شأن ابنه الذي لم يؤمن به، قال تعالى : ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود : 46].

1. البخاري ومسلم.
2. أخرجه الترمذي والطبراني والحاكم.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 31 06/12/2016 22:29:12

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾

جاءت الآية رقم 9 من سورة الحشر التي تثني على من تبؤوا الدار، والإيمان، لحبهم من هاجر إليهم، في سياق دعوة القرآن المسلمين، إلى تخصيص فيء أهل القرى لله ولرسوله ولأربعة أنواع من الفقراء، منعاً من صيرورة هذا الفيء دولةً بين الأغنياء فقط : ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر : 7].

وأُيِّدت هذه الدعوة بثناءٍ آخر مطول، على هؤلاء الفقراء، بذكر صفات يتميزون بها : إخراجهم من ديارهم، وأموالهم، وابتغائهم، فضلاً من الله، ورضواناً، ونصرهم الله ورسوله، وهي فضائل عملية (وليست نظرية) تجعلهم أهلاً لحكم الله عليهم بأنهم الصادقون، قال تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر : 8].

هنا تأتي الآية التالية لتخص الأنصار بثناء أطول، واصفةً إياهم بـ (تبوؤا الدار، والإيمان معاً، ثم بحب من هاجر إليهم، وبعدم وجود حاجة في صدورهم، مما أُعطي من المال لهؤلاء المهاجرين، ولعل أهم تجليات هذا الحبِّ إيثار الأنصار المهاجرين على أنفسهم، رغم عوزهم وفقرهم، فكانوا بذلك أهلاً لهذا الحكم الرباني، تصريحاً وتلويحاً، بوقاية الأنصار (وكل من يتبعونهم في إيثارهم هذا) من شح النفس، وبالتالي لأن يكونوا هم المفلحين،

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 32 06/12/2016 22:29:12

قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : 9].

وهكذا تجلى حب المؤمنين للمؤمنين في أبهى صوره، حين فتح الأنصار للمهاجرين أبواب قلوبهم، وأبواب بيوتهم، وقاسموهم عن طيب خاطر أموالهم، وأسواقهم وأنعامهم، فاستحقوا بهذه المَكْرُمَةِ أن يصفهم سبحانه بأحسن الصفات، التي يصف بها عباده، وكانوا بهذه المحبة لإخوانهم المهاجرين أهلاً لِأَنْ يُعْلِنَ الرسول ﷺ قائلاً : « والذي نفسي بيده إنكم لأحبُّ الناس إليَّ »[1].

وهذا الحبُّ المتوج بالإيثار ناشئٌ عن أخوة بين المؤمنين، أكدتها بقوةٍ آية الحجرات، في سياق أمر المؤمنين بالإصلاح بالعدل، والقسط بين الإخوة المتخاصمين : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات : 10].

أما أحاديث رسول الله ﷺ المؤكدة على رفعة الحبِّ بين المؤمنين، فكثيرة، نبدؤها بهذا الحديث القدسي، الذي يظهر مكانة المتحابين عند الله يوم القيامة، فعَن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي »[2].

ولعل ما يفسر هذا المقام الموعود للمتحابين، حديث عام، وهام، يبرز خيرية الحبِّ بين المؤمنين، ومؤداها محبة المؤمن الخير لأخيه المؤمن، تماماً كما يحبه لنفسه : عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « لا يؤمن

1. البخاري ومسلم.
2. رواه مسلم وغيره.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 33 06/12/2016 22:29:13

أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1].

وهذه رواية أخرى لحديث أنس، يضيف فيها أبو يعلى حبَّ الجار إلى حب الأخ المؤمن، كشرط من شروط صحة الإيمان : عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن الرسول ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ولجارِه ما يحبُّ لنفسه »[2].

وهذا أخيراً حديثٌ عامٌ وهامٌ، يبرز غَيْرِيَّةَ حُبِّ المؤمن لغيره بأنها لله فقط، وليس لمصلحة من المصالح : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ الَمْرءَ لاَ يُحِبُّهُ إلاَّ للّهِ »[3].

وهكذا، نجد أن حُبَّ المؤمن للمؤمن، بل، ولغير المؤمن، إيثارٌ وغيريَّة وخيريَّة.

1. حديث صحيح رواه البخاري وغيره.
2. قال حسين سليم أسد : إسناده صحيح، مسند أبي يعلى (ج5 ص458)، موسوعة السنة النبوية (ج1 ص5319).
3. الإتحاف 291/6 وحم 272/3.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 34 06/12/2016 22:29:13

من ثوابت القرآن الكريم (5)

﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ﴾

وإذا كانت الأحاديث النبوية الشريفة، ترسم لنا ما يعده المنظرون مثالياتٍ، فإن الآية 119 من سورة آل عمران، (وهي رابع آية في القرآن يتكرر فيها فعل الحبِّ مرتين)، تنقل لنا ولو في سياق توبيخ، واقعاً حقيقياً، يتمثل في امتداد حب المؤمنين إلى أناس لا يبادلونهم هذا الحبَّ : ﴿هَا أَنتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. [آل عمران: 119]

حيث تُبرز الآية حب المؤمنين، مراعاةً لأواصر القربى والجوار، لمنافقين يناصبونهم العداء، لنلاحظ هنا، كيف تم ذكر إيمان هؤلاء المؤمنين كصفة مواكبة لهذا الحبِّ، على عكس المنافقين، الذين لا يتعدى الإيمان ألسنتهم، بينما تمتلئ صدورهم غيظاً لا يمكن له أن يجتمع مع الإيمان :

هَا أَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ ... وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ

وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ...... وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا

وهذه العلاقة الوثيقة بين الإيمان والحبِّ، أكدها حديثٌ شريفٌ معروفٌ، جعل شرط دخول الجنة الإيمان، وشرط الإيمان التحابُّ، ودالة التحابِّ كثرة السلام: « والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أَوَلا أدُلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم »[1].

1. صحيح مسلم.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 35 06/12/2016 22:29:13

من ثوابت القرآن الكريم (6)

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمَانَ﴾

ولعلَّ خير ما نختم به بحث الحبِّ هذا، آيةٌ من سورة الحجرات، تفردت بورود فعل التحبيب فيها، ومفعوله واحد، هو الإيمان في تجاورِ تعارضٍ وتناقضٍ مع فعل التكريه، ومفعوله متعدد هو الكفر، يليه الفسق والعصيان عطفاً، وقد جاء هذا التحبيب والتكريه، في سياق التأكيد، على وجود رسول الله ﷺ بين ظهراني المسلمين، وميله إلى طاعة المسلمين في طلباتهم، لكن يمنعه من الإمعان فيه خشيَةُ عَنَتِهِم (مشقتهم)، في هذا الجو، ولهذا الغرض، جاء تذكيره تعالى للمؤمنين، بتجنيبه إياهم العَنَتَ (المشقة)، عن طريق تحبيب الإيمان، وتكريه الكفر، والفسوق، والعصيان لهم: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ[1] وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: 7].

ولعل ما يؤيد ميل رسول الله ﷺ إلى طاعة المؤمنين في طلباتهم، هو قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ في أواخر سورة التوبة، ويمثل هذا العزُّ إحدى علامات شدة حبه عليه الصلاة والسلام للمؤمنين: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

1. نختار في تأويل العنت والطاعة هنا ما نقله القرطبي من أقوال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقة، والعنت: الإثم، يقال: عنت الرجل، والعنت أيضاً الوقوع في أمر شاق، تفسير القرطبي، ج16 ص314.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 36 06/12/2016 22:29:13

وإذا لم يظهر حب رسول الله ﷺ للمؤمنين بلفظه، في آية التوبة، فإنه يتجلى عبر ثلاث صفات يتصف بها ﷺ، تضاف على صفة العَزّ، وهي الحرص، والرأفة، والرحمة.

وهذه الأخيرة هي الأصل، في رسالته للعالمين جميعاً : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

وإذا كان في الآية اشتراك بين الله سبحانه وتعالى، وبين رسوله ﷺ، في إسناد الرحمة، وهي أصلاً من صفاته جل جلاله، فإن في هذا الاشتراك توسيعاً آخر، لدلالات حب الله لعباده، بلغة الرحمة، وذلك قبل حب رسوله لهم وبعده، ألم يكتب تعالى على نفسه الرحمة ؟ قال تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: 54].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 37 06/12/2016 22:29:13

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 38 06/12/2016 22:29:13

الجزء الثاني

الَّذينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 39 06/12/2016 22:29:13

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 40 06/12/2016 22:29:13

مُقَدِّمَة

يَقِفُ القارئ المتأمل في تصاريف آيات القرآن الكريم، عند محطات للفضيلة، هي أشبه بواحات قِيَمٍ غنَّاءَ، تَظهر له خُضرتها ونضرتها في صحارى عجز الناس، يعدد فيها سبحانه، في ثناء واضح، أصنافاً من الناس، يعلن أنه يحبهم، ويحدد فيها صفات، يعلن أنه يحب أصحابها، والمتصفين بها، من هذه الأصناف :

المتقون، والمحسنون، والصابرون، والتوابون، والمتطهرون أو (المطَّهرون)، والمتوكلون، والمقسطون، والذين يقاتلون في سبيله.

وإذا كنا نُعرِّفَ الإحسانَ عند المحسنين، والتقوى عند المتقين، والصبر عند الصابرين، والتوكل عند المتوكلين، و...، كلاً على حدة، ونستعرض تصاريفها، كما وردت في آيات الذكر الحكيم، فنحن نفعل ذلك، لبيان تطابق مقاصد القرآن، وتوافقها بعضها مع بعض، لأن باستطاعتك فهم هذه المقاصد، من خلال دراستك لتصاريف أية مفردة مفتاحية، مرتبطة بهذه الفضائل، فما يؤكده تعالى تجاه عباده أصحاب الفضائل، المصطَفَين الأخيار، بلغة الحبِّ، يؤكده، بلغة معيَّته معهم، وقرب رحمته منهم، وجعل العاقبة والنصر لهم في الدنيا، كما يؤكده بلغات ثوابه العديدة في الآخرة.

وهكذا، تتفق عشرات الآيات، وخاصة خواتيمها، في تأكيدها على تفضيل أهل الفضائل، بكل لغات التفضيل، ويمثل هذا عَيِّنَةً من إعجاز الإنجاز القيمي في القرآن، ونعني بذلك تحديداً، بروزُ (مجرَّةٍ) من الكلمات المفتاحية، والصيغ النوعية (جمل ذات جرس نحت نحوي، ودلالي متقارب) في أي موضع من المواضع، ينبغي فيه تأكيد هذا التفضيل، بل هذا الاصطفاء للمتصفين بهذه الفضائل، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة من سورة النساء،

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 41 06/12/2016 22:29:13

بلغة نفي الاختلاف في القرآن، وبالتالي بإثبات ائتلافه، في كل أحكامه على الأشياء : ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [النساء : 82].

ويهمنا هنا، حُكْمُهُ على الفضائل، فهو لا يكتفي جل جلاله، بالحكم على فضيلة ما وحدها، بل يتم تدعيم الحكم من خلال ربطه بنظائره من الأحكام، المتعلقة بِجُلِّ – إن لم نقل – كلِّ، ما تنتمي إليه، وتتم به من الفضائل، وتمثل الفضائل في القرآن، وإن تعددت، أسرةً واحدةً، قد تتعدد مفرداتها، ولكن المقصد واحد، ألا وهو الدعوة إليها والحث عليها، بكل لغات الدعوة والحث، وما التقوى، والإحسان، والصبر، والتطهر، والتوبة، والتوكل، وغيرها إلا أعضاء محمودةً في أسرة الخير، والبر، والرحمة التي نزل بها القرآن، وأرسل بها سيدنا محمداً ﷺ، وقبله الأنبياء جميعاً، عليهم السلام.

وسنلاحظ في هذه الدراسة الموجزة جداً، مدى وثوق علاقات التعاضد والائتلاف، بين هذه الفضائل من خلال تجاورها بعضها مع بعض، في علاقات تجاور، بل تلازم، تقوم بينها في عدد من السياقات القرآنية، وكذلك من خلال تبادلها الأدوار، أي وجودها في الأماكن نفسها، في السياقات نفسها، وفي الأنساق، تأكيداً لوحدانية الفضائل، المنطلقة من وحدانية جاعلها في الأرض بين الناس، وسنلاحظ أخيراً، أن كثيراً من هذه الفضائل، هي من صفاته الحسنى تعالى.

ثم إن الناظر في نسيج هذه الفضائل، لا يفوته خيطٌ ظاهرٌ واضح الظهور، يربط به هذه الكلمات المفتاحية القرآنية جميعاً، ألا وهو (العمل)، فالتقوى (عمل)، والتوكل (عمل)، والقسط (عمل)، ورأس هذه الأعمال هو

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 42 06/12/2016 22:29:13

الإيمان بالله، الذي ترتبط به هذه الفضائل، ارتباط غصون الشجرة بجذعها العام، وهذا أصل طيبة ثمارها في الدنيا، وخير ثوابها في الآخرة، فبـِ (العمل) يحب تعالى المؤمنين، وبدونه يكبر مقته، كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف : 2-3].

نبدأ بدراسة تصاريف حبه ﷻ للمتقين، والله المستعان...

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 43 06/12/2016 22:29:13

من ثوابت القرآن الكريم (1)

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

وردت خاتمة حب الله تعالى للمتقين في ثلاثة مواضع، من القرآن الكريم، أحدها : في سورة آل عمران : ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : 76]، واثنان منها في سورة التوبة : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : 4]، ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : 7].

والمتأمل في هذه الآيات الثلاث، يجد أنها جميعاً تتعرض لأهمية الصدق في العهد، وقد تكرر لفظ العهد في هذه الآيات خمس مرات، اثنتان منها لفعله : عاهد، وثلاثة لمصدره : عهد، حيث استُخدمت أربع لغات لهذا الصدق، (لغة الوفاء) في آية سورة آل عمران، و(لغة الإتمام)، و(عدم الإنقاص) في الآية رقم 4 من سورة التوبة، و(لغة الاستقامة) في الآية رقم 7 من سورة التوبة.

وكان سياق الوفاء بالعهد، عاماً في (السِّلم)، في آية سورة آل عمران، بخصوص رد الأمانات إلى أهلها، سواءً كانوا مؤمنين، أم غير مؤمنين، وذلك تشنيعاً بعدم وفاء بعض أهل الكتاب بعهدهم، برد الأمانات إلى أهلها، زاعمين أنهم ليس عليهم سبيل، في حال تعاملهم مع من ليسوا على دينهم من الأميين، لنلاحظ كيف اعتبر القرآن زعمهم، هذا كذباً على الله، عن وعي وعمد :

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 44 06/12/2016 22:29:13

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : 75].

والمهم في آية حب الله للمتقين من سورة آل عمران، هو عطف فعل التقوى على فعل الوفاء، تأكيداً على كون الوفاء من التقوى، بمعنى أن الله يحب المتقين، لأنهم يفون بعهودهم : ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : 76].

وأما خاتمتا صدق الوعد في آيتي سورة التوبة، فقد جاءتا في سياق خاص بـ (الحرب)، ومع ذلك صدر الأمر في كلتيهما، بإتمام العهود، والاستقامة فيها، بمعنى أن الله يحب المتقين، المُتمين لعهودهم، المستقيمين فيها، حتى في حال الحرب : ﴿فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : 4]، ﴿فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : 7].

والتقوى من (و ق ي) أي من دفع شيء بشيء غيره، كما قال ابن فارس في مقاييسه : (وَقَيَ) الواو والقاف والياء : كلمةٌ واحدة تدلُّ على دَفْعِ شيءٍ عن شيءٍ بغيره، واتَّقِ اللهَ : أي اجعل بينَك وبينه كالوِقاية[1].

ونجد معنى الوقاية هذا (بصيغته الثلاثية) في ست عشرة آية، ثلاث عشرة منها لفعل وقى الذي ورد ماضياً خمس مرات، كما هو الحال في آيتي الطور والدخان : ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور : 27]، ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان : 56]، ثم مرتين مضارعاً مبنياً للمجهول : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : 9] [التغابن : 16]، ثم ست مرات فعل أمر

1. معجم مقاييس اللغة لابن فارس.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 45 06/12/2016 22:29:13

عموماً : ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة : 201][آل عمران : 16]، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر : 7]، ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ [غافر : 9]، وأخيراً ورد اسم فاعله (واق) ثلاث مرات في سورتي الرعد وغافر : ﴿وَمَا كَانَ لَهُم / وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد : 34][غافر : 21].

وفي أصل معنى الوقاية هذا، جاءت بعض تواردات فعل الاتقاء، مثل آية آل عمران : ﴿وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران : 131].

أما الغالب من تورداته 219 تورداً من أصل ما مجموعه 235 تورداً لهذه الكلمة ومشتقاتها، فقد توزع على ثلاثة اشتقاقات، هي فعل (اتقى) بـ 148 تورداً، واسم الفاعل (متقين) بـ 49 تورداً، و(تَقِيٌّ) بـ 3 تواردات، ومصدريه (تقوى) بـ 17 تورداً، و(تُقاة) بـ 2 تواردين.

ومما يلفت النظر في تواردات هذه المفردة القرآنية، تفردها بأعلى تواتر، لفعل الأمر في القرآن 79 مرة جاء غالبها أمراً منه تعالى، ولاسيما صيغة (اتَّقُواْ اللّهَ) التي جاءت في سياقات وعظ عديدة، اخترنا منها آية سورة النساء، التي تبرز مدى تواتر هذه الوصية في رسالات الله، حيث جاء الكفر نقيضا للتقوى : ﴿وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً﴾ [النساء : 131].

كما جاء بعضه على لسان رسل الله، مقترناً بالأمر بطاعتهم، في أول تبليغ لهم لرسالات الله : ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران : 50]، ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ ... فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف : 63].

وتميزت سورة الشعراء بتكرار هذا الاقتران ثماني مرات : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 46 06/12/2016 22:29:14

وَأَطِيعُونِ﴾[1] .

وسياقات التقوى كثيرة، ولكن نقتصر منها في هذا الاستعراض المقتضب، على ما يبرز موجبات حب الله للمتقين، مبتدئين بآية آل عمران رقم 102 المنيرة، بأمرها المُلِّح بتقوى الله تعالى، مقترناً بأمر التمسك بالإسلام، حياةً ومماتاً، لا يقل إلحاحاً عن الأمر بالتقوى، ولا سيما بفضل مجيئه في لغة استثناء حصري : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : 102].

وتأتي آية الحجرات ثانيةً، في نورها، من ناحية اقتران الأمر بالتقوى فيها، برجاء الرحمة، في سياق خاص، هو الإصلاح بين متخاصمين مؤمنين، وهذه الآية هي إحدى ثلاث آيات حصل فيها الاقتران صريحاً بين الأمر بالتقوى، وبين رجاء بلوغ رحمته تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات : 10].

لكن آية البرّ من سورة البقرة، قد تميزت عن غيرها من الآيات بتقديمها تعريفاً عاماً عملياً للتقوى، تضمن إحدى عشرة صفة وميزة، لا تجتمع إلا لدى الصادقين المتقين، قال تعالى : ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة : 177].

هذه الصفات والميزات هي : الإيمان بالله تعالى، والإيمان باليوم

1. الشعراء : 108، 110، 126، 131، 144، 150، 163، 179.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 47 06/12/2016 22:29:14

الآخر، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتاب، والإيمان بالنبيين، (أي بخمسة أركان من أركان الإيمان المذكورة في حديث عمر الشهير ﷺ) ثم تتضمن الآية ثلاثة أعمال برٍّ تعبدية، اثنان منها : يتعلقان ببذل المال في سبيل الله، وتتوسطهما الصلاة، وهي إنفاق المال وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ليذكر بعد ذلك ذكر صفتين من أخلاق البر، اجتماعِيَّتي الطابع هما : الوفاء بالعهد، والصبر في كل أمور الحياة، وخصوصاً في ثلاث حالات هي : البأساء : أي الفقر، والضراء : أي المرض، والبأس : أي الحرب، ولتُختتم الآية بشهادتين ربانيتين، بصدق هؤلاء الذين يعملون هذه المبرات كلها، وتقواهم، فكان ذلك هو تعريف البر.

ولا تنتهي الإشادة بتقوى المتقين عند هذا الحد، بل تتتابع لتجعل هداهم سبباً من أسباب تنزيل كتاب الله ﷻ : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : 2].

وعلاوة على مجيئه هدىً لهم، فإنه قد جاء كذلك بياناً، وموعظةً لهم : ﴿هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : 138].

ويعلن سبحانه وتعالى ثلاث مرات في ثلاث خواتيم آيات من كتابه العزيز، أنه مع المتقين، مرة في سورة البقرة : ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : 194]، ومرتين في سورة التوبة ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : 36] [التوبة : 123].

ويعلن سبحانه وتعالى في سورة الجاثية أنه وليهم : ﴿وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية : 19].

ويعلن سبحانه وتعالى ثلاث مرات أن العاقبة لهم، لأن العاقبة للتقوى مرة واحدة : ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف : 128] [القصص : 83]، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 48 06/12/2016 22:29:14

للمُتَّقِينَ﴾ [هود : 49]، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه : 132].

وتميزت سورة الطلاق بذكر إنعام الله وإكرامه، لمن يتقي ربه، في دنياه وفي أخراه ثلاث مرات : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾ [الطلاق : 2]. ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق : 3]، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ [الطلاق : 4]، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ [الطلاق : 5].

وبخصوص الآخرة، تؤكد سورة الزخرف أنها للمتقين كذلك : ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف : 35]، بل تؤكد ذلك أكثر من آية، فجنات النعيم لهم : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [القلم : 34]، وسيتم إزلافها لهم : ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء : 90]، وسيكونون ورثتها : ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً﴾ [مريم : 63].

بل هي في الأساس قد أعدت لهم، بفضل مسارعتهم في الخيرات، حيث سيحصلون قبلها على مغفرته تعالى : ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : 133].

يروي أهل الأخبار أن عمر بن الخطاب ﵁، سأل أُبيّ بن كعب عن التقوى، فقال أُبيّ ﵁ : هل أخذتَ طريقاً ذا شوك ؟ قال عمر : نعم، قال أُبيّ : فما عمِلتَ فيه ؟ قال : شمَّرتُ وحَذِرتُ، قال أُبيّ : فذاك هو التقوى.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 49 06/12/2016 22:29:14

تَمهيدٌ : بين يَدَي حُبِّ الله للمُحسنين

علاقةُ التَّعاضُد بينَ التَّقوَى والإحسَان

تتجلى علاقة التعاضد بين صفتي التقوى والإحسان، في تجاورهما معاً في النسق نفسه، وفي تبادلهما الدور نفسه، في أنساق متشابهة متباعدة.

علاقات التعاضد تجاوراً : فكما أخبرنا تعالى أنه مع المتقين يؤكد هذا مع المحسنين في ختام سورة النحل : ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل : 128].

علاقات التعاضد تبادلاً للأدوار : وكما أن كتاب الله أنزل هدىً للمتقين، في سورة البقرة : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : 2]، فإنه أنزل كذلك هدى ورحمة للمحسنين، في سورة لقمان : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان 2-3].

وكما أخبر تعالى ثلاث مرات في القرآن أنه مع المتقين، فإنه أكد كذلك أنه مع المحسنين مرتين في آية واحدة : الأولى باستعماله أداة التوكيد (إنَّ)، والثانية باستعماله اللام الابتدائية المزحلقة، في توكيد هذه (المعية) : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت : 69].

ونقف عند آيتين من سورة الذاريات، توضح لنا علاقة التعاضد بين التقوى والإحسان، في تعريف عملي للاحسان : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات : 15-16].

ونتساءل : من هم هؤلاء الذين كانوا محسنين ؟ وما هو إحسانهم ؟ وما علاقة التقوى بالإحسان ؟ تجيب الآيات اللاحقة للآيات السابقة عن ذلك حيث يقول سبحانه : ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات : 17-19].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 50 06/12/2016 22:29:14

من ثوابت القرآن الكريم (2)

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين﴾

وردت خاتمة حب الله للمحسنين في خمسة مواضع من القرآن الكريم، تدخل في سياقات متعددة للاحسان، ترسم وجهة الإنفاق، سواء تعلق بالجهاد (بذلاً للمال، وللنفس في سبيل الله)، أم بمساعدة الآخرين في السلم، أم بالتقوى في الطعام في كل الأحوال، بل يتسع هذا الإحسان ليشمل حسن التعامل مع غير المسلمين، حتى ولو كانوا مسيئين.

فبخصوص الإنفاق، تأتي آية البقرة المنيرة جداً رقم 195 في وسط آيات، تدعو إلى مقاتلة من يقاتل المسلمين، دون الاعتداء عليهم، بعد عدة آيات من إعلانه تعالى، عدم حبه للمعتدين : ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190]، وتتمثل خصوصية هذه الآية، في اعتبار عدم الإنفاق، عند الله، إلقاء للنفس في التهلكة، بينما الإنفاق إحسانٌ إليها، يحب تعالى فاعليه : ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195].

وتتسع دائرة الإحسان في سورة آل عمران، ليتحول من مجرد بذل للمال، إلى خلق، وصفة، وحال، يتصف بها المحسنون، وذلك في سياق نهي قرآني، عن أكل الربا (توسط هذا النهي آيات مطولة، تعالج قضايا متعددة تتعلق بيوم معركة أحد)، أُرفق مُلحقاً بأمر المؤمنين بتقوى الله، وبطاعة الله ورسوله، وبالدعوة إلى المسارعة إلى مغفرة من الله، وجنة عرضها السموات والأرض، أعدت للمتقين، الذين يتصفون هنا بأربع صفات كريمة، تصدَّرتها صفة الإنفاق، في كل الأحوال، يجاورها خلقان إنسانيان عظيمان، هما

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 51 06/12/2016 22:29:14

كظم الغيظ، والعفو عن الناس، فكان هؤلاء المتقون بحق، أهلاً لأن يثني الله عليهم، بإضافة صفة الإحسان إليهم، بعد وصفهم بالمتقين، وإعلانه حبَّه لهم.

لنلاحظ في هذه الآيات، تجاور التقوى مع الإحسان، وتبادلهما مكانة الأخلاق، التي يحبها الله تعالى، وصدارتها : ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران : 133-134].

وإذا كانت آية آل عمران عامة، في التعريف بالإحسان، وببيان حب الله تعالى لفاعليه، فإن آية المائدة الخاصة بالطعام، لا تقل تأكيداً على حب الله للمحسنين، كيف لا، وقد اقترن الإحسان في خاتمتها بالإيمان، الذي سبقه متكرراً ثلاث مرات متلازماً مع العمل الصالح مرتين، وبالتقوى التي سبقته هي الأخرى متكررةً ثلاث مرات، وهكذا جاء الإحسان خاتمة المسك، في هذه الأحوال الثلاث، التي ينبغي ملابستها أثناء فعل الطعام الحيوي العضوي العادي : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة : 93].

ونعود مرة أخرى إلى سورة آل عمران، حيث نصادف خاتمة آية أخرى، في حب الله للمحسنين غير بعيدة عن الآية 134، موضع حب الله الأول لهم، وهو، وإن كان في سياق القتال نفسه في سبيل الله، إلا أنه يؤكد هنا على صفة الصبر، في هذا القتال، بمعنى الثبات فيه، وعدم الوهن، وعدم الضعف، وعدم الاستكانة، بل يمكن القول، بأن حب الله تعالى للمحسنين

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 52 06/12/2016 22:29:14

في أدائهم الجهادي النفسي هذا (هو عند الله إحسان)، يأتي تدعيماً لجهادهم القتالي الجسدي (وهو عند الله صبر)، وارتباط كل ذلك بثواب الله تعالى في الدنيا، وحسن ثوابه في الآخرة، يجعل من الصبر إحساناً، ومن الإحسان صبراً، وكلاهما يستدعي حب الله تعالى لفاعليه : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران : 146-148].

وتتسع دائرة الإحسان مرةً أخرى في الآية رقم 13 من سورة المائدة، لتشمل جانباً إنسانياً من خلق المسلم، يتمثل في حسن التعامل مع غير المسلمين، حتى ولو كانوا من المسيئين، فالله يأمر رسوله ﷺ، حتى في سياق التشنيع بسلوكياتهم الخاطئة، بالعفو وبالصفح عنهم، لأن ذلك من صفات المحسنين : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة : 13].

كانت تلك سياقات حب الله تعالى للمحسنين المتصفين بصفة الإحسان، والإحسان مصدر (أَحْسَنَ) مزيد رباعي، جاء من (حَسُنَ) الثلاثي، ومصدره الحُسن، الذي هو ضِدُّ القبح، عند ابن فارس وغيره : (حسن الحاء والسين والنون أصلٌ واحد، فالحُسن ضِدُّ القبح[1].

لكن احتمال الإحسان معانيَ جاريةً تتجاوز الجمال الحسي، إلى

1. مقاييس اللغة، ج2 ص45.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 53 06/12/2016 22:29:14

الجمال المعنوي، في القول والعمل، جعله ضد الإساءة، كما قال ابن منظور : (والإحْسانُ ضدُّ الإساءة)[1]، وقد ورد هذا الأصل الصحيح بمشتقاته العديدة أفعالاً (أحسن وَ حَسُنَ)، ومصادر (حُسْناً وَ إحساناً)، وصفات (حَسَنًا وَحَسَنَة وَ حَسَنَاتٍ) في 188 موضعاً من التنزيل الحكيم.

وقد جاءت تصاريفه في القرآن، ترقيةً وتزكيةً إسلاميةً، لأصل دلالته، ونعني بذلك تحوله من كونه نقيضاً للقبح، إلى كونه نقيضاً للسوء، نأخذ على ذلك بعض الأمثلة التي توضح هذا التحول :

فقد جاء الحسن نقيضاً للسوء في آية النمل : ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل : 11]، والحسنة جاءت نقيضاً للسيئة في آية القصص : ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص : 84]، والحسنات جاءت نقيض السيئات في آيتي هود والفرقان : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود : 114]، ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان : 70].

والإحسانُ نوعان

إحسانٌ بالعمل، كما قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء : 7]، وفي سورة يونس : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس : 26]، وفي سورة النجم : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم : 31]، وهو كذلك إحسان بالقول، كما توصي به آية البقرة : ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ [البقرة : 83].

والإحسان عند الرسول ﷺ، هو الإخلاص في العمل والقول، ومراقبة

1. لسان العرب، ج 13ص 114.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 54 06/12/2016 22:29:14

الله فيه، أي أن الإحسان هو : « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ».

وسنركز في عرضنا لتصاريف الإحسان الكثيرة في القرآن، على ما يساعدنا على فهم حب الله للمحسنين، لكننا سنبدأ بتلك الآيات التي تذكرنا بإحسانه تعالى، إلى عباده، ابتداءً من حسن خَلْقِه لكل شيء : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة : 7]، ومن هذا الإحسان خلقه الإنسان في أحسن تقويم : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : 4]، ولكثرة إحسانه في خلقه هذا، بارك تعالى نفسه : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون : 14].

وهذا الإحسان في الخلق، هو من حسن أسمائه (الحسنى) التي تكرر ذكرها بهذا الوصف في أربع آيات، منها الآية المُنيرة الأخيرة من سورة الحشر : ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾ [الحشر : 24]، والآية ما قبل الأخيرة من سورة الإسراء : ﴿قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾ [الإسراء : 110].

ومن إحسانه إلى الناس، إنزاله القرآن الذي وصفه بأحسن الحديث : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر : 23].

وهذا الكتاب، هو شرعته التي وسمها بـ (الحسنى)، يُصدِّق بها من أعطى واتقى، ويُكذِّب بها من بخل واستغنى : ﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل : 5-10]، وهذه الحسنى، هي قوله الذي أمرنا باتباع أحسنه : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 55 06/12/2016 22:29:14

وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 18].

وقد ذُكر هذا الإحسان من الله مطلقاً، في سياق نصائح أسداها قوم قارون، إلى هذا المتكبر، فقد أمروه بالإحسان على الإطلاق، كما أحسن الله إليه تعالى على الإطلاق، ونعني بالإطلاق هنا، عدم إرفاق فعل الإحسان بمفعول يقيد دلالته، لنلاحظ كيف جاء الإحسان هنا، نقيضاً للفساد، الذي يعلن تعالى عدم حبه لفاعليه، كما سنرى في مختصر الكتاب الثالث من هذه الموسوعة : ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77].

وتنقلنا آية القصص، من إحسان الله المفعول، إلى إحسان الإنسان المأمول، وهو ابتلاؤه في المسارعة، والمسابقة في أحسن الأعمال، التي من أجلها خلق تعالى الموت والحياة : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: 2].

بل خلق الله السموات والأرض من أجل هذا الابتلاء : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود: 7]، بل جعل على ما على الأرض زينةً لها، للفوز في هذا الابتلاء : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: 7].

ولقد جعل تعالى مجازاة إحسان الإنسان في الدنيا بالإحسان إليه يوم القيامة، قاعدةً عامةً، في وزنه القسط للأعمال : ﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60]، وهذا الإحسان في الحساب مجازاةً بالقسط منه تعالى في الآخرة، تتضمن زيادةً على إحسان العبد في عمله : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 56 06/12/2016 22:29:14

أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: 31]، وتُضاف إلى الحسنى في الآخرة زيادة على عدل موازينه تعالى، وقسطها لصالح المحسنين ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

وهذه الزيادة الخاصة بالمحسنين في الآخرة، هي وعدٌ قُدِّم مثيله إلى أهل القرية، إذا أحسنوا عملهم وقولهم ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 58].

ولعل من خصوصيات الإحسان في القرآن، وبالتالي من المبشرات بحبه تعالى لفاعليه، مجيئه في صيغة ثناء عليهم في خاتمة آية تكررت ثماني مرات في القرآن، خمس منها في سورة الصافات فقط، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 110]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: 84][يوسف: 22][القصص: 14]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وإذا كان ذكر المحسنين في صيغة جمع المذكر السالم، قد ورد 30 مرة في القرآن، شاملاً للذكر والأنثى – وهذا ما جرى عليه أهل لغات العالم، من تغليب التذكير على التأنيث – فإن القرآن خص نساء الرسول، ومن ورائهن، كل فضليات النساء المؤمنات، بلفظ جمع المؤنث السالم: (المحسنات): ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: 29].

والمحسنون، مشمولون برحمة الله، لكنهم مخصوصون، بقربها منهم، يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56].

والحرج والعنت والعسر مرفوعٌ عنهم، بنصحهم لله ورسوله، الذي اعتبره تعالى إحساناً: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ

1. الصافات: 80، 105، 121، 131. المرسلات: 44.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 57 06/12/2016 22:29:15

لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : 91].

ونختم بحث حب الله تعالى للمحسنين بخصوصية أخرى، هي تعهده تعالى، بعدم إضاعة أجرهم، تكرر هذا الوعد في خمس آيات، حسب الصيغ التالية : ﴿وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : 56]، ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة : 120].

وتميزت آية الكهف بجمعها، المعبر عن التلازم، لكل من الإيمان والعمل الصالح والإحسان معاً : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف : 30].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 58 06/12/2016 22:29:15

تمهيدٌ : بين يَدَي حُبِّ الله للصَّابرين

علاقةٌ حميميةٌ بين الإحسَان والصَّبر

ودون أن نغادر آيات تعهده تعالى، بعدم إضاعة أجر المحسنين، نلاحظ اقتران الإحسان بالصبر وحده، في آيتي هود ويوسف، وبالتقوى مع الصبر، في آية يوسف نفسها : ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود : 115]، ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : 90].

وسبق لنا، ملاحظة إعلانه تعالى حبه للصابرين، بجوار إعلانه حبه للمحسنين، في خاتمتي آيتين متقاربتين، من سورة آل عمران : ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران : 146]، ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران : 148].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 59 06/12/2016 22:29:15

من ثوابت القرآن الكريم (3)

﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾

ورد حب الله للصابرين مرة واحدة فقط، في خاتمة الآية رقم 146 من سورة آل عمران : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران : 146].

وقد سبق لنا الإشارة في هذا الجزء من موسوعة الحبِّ، إلى تجاور حب الله للصابرين في هذه الآية، مع حب الله للمحسنين، في الآية رقم 148 من السورة نفسها، وذلك في سياق الثناء على صبر الربيين، في كل زمان ومكان، في القتال إلى جانب أنبيائهم : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

ونؤكد هنا ما سبقت ملاحظته هناك، من تعريف قرآني للصبر، سابق لإعلان هذا الحبِّ يتمثل في نفي وجود ما هو نقيض الصبر، من وهن، وضعف، واستكانة لدى هؤلاء الربيين ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ﴾، وكأن من انتفت فيه هذه الصفات المذمومة الثلاث هو من الصابرين الذين يحبهم الله : ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

وقد ورد في القرآن تعريف آخر للصبر بنقيضه، وهو الجزع، في آية إبراهيم : ﴿قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم : 21].

وهذه الحال من تعذُّر النجاة، تذكرنا بتساوي الصبر وانعدامه، لدى من صالوا النار في آية الطور : ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ[1] مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور : 16].

1. فسر الجوهري الصبر بالجزع : الصَّبر حَبْس النفس عند الجزَع، لسان العرب، ج 4 ص 437.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 60 06/12/2016 22:29:15

لكن تعريف الصبر، لا يقف عند نفي نقيضه، بل يتعداه إلى إثبات ما هو من جنسه، من الصفات المحمودة، أي ثبات الأقدام، نيابة عن ثبات القلوب، وهو ما كان أولئك الربيون يطلبون المزيد منه، في دعائهم الذي سماه تعالى قولهم الوارد في صيغة نفي حصري : ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ﴾، والممثل بالفعل لحالهم : ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران : 147].

ومما يؤيد هذا التعريف للصبر بالثبات، دعاء ربيين من جنود داود ﷺ، في معركتهم مع جالوت وجنوده، حيث سألوا الله فيما سألوه، أن يفرغ عليهم صبراً بين يدي سؤالهم إياه، تثبيت أقدامهم : ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : 250].

وهذا المعنى ترقية لأصل معنى الصبر الأول عند ابن فارس، وهو حبس النفس عن فعل مذموم : (صبر) الصاد والباء والراء أصولٌ ثلاثة، الأول الحَبْس، والثاني أعالي الشيء، والثالث جنسٌ من الحجارة، فالأول : الصَّبْر، وهو الحَبْس، يقال صَبَرْتُ نفسي على الأمر، أي حَبَسْتُها[1].

وفَصَّلَ هذا المعنى المجملَ ابنُ منظور في لسانه : وأَصل الصَّبْر الحَبْس، وكل من حَبَس شيئاً فقد صَبَرَه، وفي حديث الصَّوْم : « صُمْ شَهْرَ الصَّبْر »، وسُمِّي الصومُ صَبْراً لِمَا فيه من حَبْس النفس عن الطَّعام، والشَّرَاب، والنِّكاح[2].

لكن الصبر مهما اختلفت أحوال متعلقاته، يبقى هو الصبر، الذي ورد

1. مقاييس اللغة، (ج 3 ص 256).
2. لسان العرب، (ج 4 ص 437).

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 61 06/12/2016 22:29:15

في التنزيل الحكيم حوالي 104 مرات[1]، وقد جمع الله تعالى بعض هذه الأحوال، وسمَّاها صبراً وتقوى، فقال سبحانه : ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة : 177].

والصبر كما يقول الإمام أبو حامد الغزالي ضربان : أحدهما ضرب بدني، كتحمل المشاق والثبات عليها، إما بمزاولة الأعمال الشاقة أو بالعبادات، وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع، ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر، الصبر النفسي عن شهوات الطبع، ومقتضيات الهوى[2].

والصبر رابع الأوامر الإلهية إلى رسول الله ﷺ التي أولها : اقرأ، وثانيها : قُم، وثالثها : أَنْذِر، ورابعها : اصْبر[3].

ولعلَّ ما يلفت النظر في آيات الصبر، هو تجاوره القريب مع عدد من الصفات المحمودة، التي هي محل حب الله للمتصفين بها، وسبقت لنا الإشارة إلى عدد منها، في فصلي حب الله تعالى للمتقين، وللمحسنين، ونكمل هذه السلسلة الذهبية من العلاقات بشواهد أُخرى :

علاقةُ تلازمٍ بين الصَّبر والتَّقوى

نضيف إلى ما ذكرناه آنفاً، من علاقة التجاور والتلازم بين الصبر والتقوى صيغةَ : ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ التي تكررت ثلاث مرات في سورة آل عمران : ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران : 120]، ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُواْ

1. في التفاصيل : نلاحظ غلبة توارد فعل الصبر الثلاثي، (صبر) 75 مرة، بينما ورد الخماسي (اصطبر) 3 مرات فقط، ويأتي اسم الفاعل المستعملُ استعمالَ الصفة ثانياً من حيث تواتره 22 مرة، مقابل 4 مرات لـ (صبار).
2. إحياء علوم الدين ج6 ص66.
3. انظر كتابنا الثاني (الثابت والمتغير في السنة والسيرة)، ج2 ص206.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 62 06/12/2016 22:29:15

وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ﴾ [آل عمران: 125]، ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186].

وننوه كذلك بالعلاقة بينهما، بخصوص عواقب الأمور: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49].

علاقةٌ تلازمٍ أُخرى بين الصَّبر والتَّوكُّل

ومن علاقات التجاور والتلازم التي يقيمها الصبر مع غيره من الفضائل في القرآن، علاقةٌ حميميةٌ خاصةٌ مع التوكل، تأكدت صراحة في ثلاث آيات: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: 12]، ﴿الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 42]، [العنكبوت: 59].

علاقةٌ حميميةٌ بين الإِيمانِ والتَّقوى والإِحسَان والصَّبر

في آيةٍ واحدةٍ

وتميزت آية الزمر باجتماع كل من الإيمان، والتقوى، والإحسان، والصبر فيها: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

أوليس في هذه العلاقات التي درجنا على التنويه بها، ما يؤيد ثبات حب الله للمتصفين بهذه الصفات الكريمة الثابتة، ويؤكده، لنتابع نسيج هذه العلاقات، من خلال رسوخ بعض الأنساق القرآنية، ولاسيما خواتيم الآيات، من حيث مجيئها في سياقات الثناء نفسه، على المتصفين بهذه الصفات فعلاً وحالاً.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 63 06/12/2016 22:29:15

﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

فكما أخبرنا تعالى أربع مرات أنه مع المتقين (وهذا ما توقفنا عنده في فصل حبه تعالى للمتقين)، فإنه تعالى أكد لنا أنه مع الصابرين أربع مرات، ثلاث منها في سياق القتال في سبيله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة : 153]، ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال : 46]، ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال : 66]، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة : 249].

ولعل خير ما يبرز مدى حبه تعالى للصابرين، هو اختصاصهم بأحسن درجات الأجر يوم القيامة، وقد رأينا آنفاً، كيف أنهم يُوَفون أجورهم بغير حساب : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر : 10].

وتعرض لنا آيات أخرى صوراً من هذا الجزاء المضاعف، الذي سيؤتونه بما صبروا : ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص : 54]، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون : 111]، ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان : 75]، ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ [الإنسان : 12].

من خُصوصيّات الجَزاء على الصَّبر

ونضيف إلى ما امتن به تعالى على الصابرين، خصوصية جزائهم بأحسن ما كانوا يعملون : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل : 96].

ذلك لأنهم فضلوا ثواب الله في الآخرة، على كثرة المال في الدنيا،

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 64 06/12/2016 22:29:15

وهذا كلام أهل العلم في كل الأزمنة والأمكنة : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص : 80].

وكيف لا يكونون كذلك، وهم ممن يدفعون بالتي هي أحسن : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت : 34-35].

ولا تخلو قصص الرسل في القرآن، من ثناء وإشادة بفضيلة الصبر، لدى أنبياء الله ورسله، حتى أصبحوا أسوة، ومثلاً أعلى فيه :

صبرُ أيوب عليه السلام

لعل اسم أيوب من أشهر الأسماء التي اقترنت بالصبر البدني، على ضرٍّ وسوءِ المرض، حتى ضرب الناس المثل بصبره، وقد ذكر القرآن قصته في سورتين : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص : 41]، ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء : 83]، وفي سورة (ص) ذكر القرآن هذه الصفة الحميدة عند أيوب، وهو يثني عليه : ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص : 44].

صبرُ يعقوب عليه السلام

يذكر القرآن الكريم يعقوب من بين أولي الأيدي والأبصار، إشارة إلى القدرة وآلتُها اليد، وإلى الإدراك وآلته البصر، وإشارة إلى حيازة يعقوب لهاتين القوتين : ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص : 45].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 65 06/12/2016 22:29:15

ومع ذلك، فقد كانت محنة فراق ولديه يوسف وبنيامين قاسية عليه، لكن إيمان يعقوب بربه، دفعه إلى القول بعد فراق ابنه الأول : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف : 18]، وإلى القول بعد فراق ابنه الثاني : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ [يوسف 83].

والصبر الجميل، هو الصبر الذي خلا من كل جزع، أو تذمُّر، وصفا من كل سخط، أو تبرم، وملأه الأمل برحمة الله، وحسن الظن بلطفه، ورأفته.

صبرُ يوسف عليه السلام

نقف عند نوعين من الصبر في قصة يوسف عليه السلام :

أولهما : صبره على مراودة من هو في بيتها عن نفسه : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف : 23].

وثانيهما : صبره على السجن اجتناباً للوقوع في الصبابة، والجهل مع النساء : ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف : 33].

وكان هذان الصبران النفسيان، في العاقبة صبراً واحداً، تأخر ذكره بلفظه، انتظاراً لبيان ارتباطه بالتقوى، وبالتالي بالإحسان، في لحظه اكتشافٍ، واعترافٍ بين يوسف وإخوته : ﴿قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : 90].

صبرُ الرسُول مُحمَّد ﷺ

نصل الآن إلى مثل أعلى في الصبر النفسي، هو صبر نبينا محمد ﷺ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 66 06/12/2016 22:29:15

الذي أمره ربه به 18 مرة في القرآن، لكثرة معاناته من إعراض قومه عنه، وأذاهم له.

أولها في سورة المدثر، أي منذ أوائل التنزيل، حيث كان صبره لله : ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر : 7]، والمقصود : لوجه ربك، أو لأمر ربك، وتأكدت خصوصية الصبر هذه، في ختام سورة النحل (تَسرِيَةً (تخفيفاً) له، مما هو عليه، من الحزن على قومه، ومن الضيق من مكرهم)، فكان صبره بالله : ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل : 127]،

وكان الصبر الذي أمره تعالى به بمعنى العزم، وتُقَدم لنا آية سورة الأحقاف تعريفاً خاصاً للصبر، لدى من فضَّلَهُم تعالى من رسله : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف : 35].

كما أمره الله تعالى بالصبر الجميل، على غرار ما كان عليه حال الرسول يعقوب عليه السلام، بمعنى خلو قلبه من الجزع، وعدم الرضا : ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾ [المعارج : 5].

وتكرر أمره تعالى له بالصبر، خاصةً في ثلاث صيغ، تؤكد كل منها، على نوع خاص من الصبر النفسي، هو صبر انتظار نصرته تعالى له، وننوه هنا بتلازم الأمر بالصبر مع التسبيح بحمد الله، في كثير من الآيات أدناه :

أولاً : صيغة أمره بالصبر على أذى قومه له بأقوالهم، انتظاراً للنصر (تكررت الصيغة في أربع آيات) : ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾ [المزمل : 10]، ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص : 17]، ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه : 130]، [ق : 39].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 67 06/12/2016 22:29:15

ثانياً : صيغة أمره بالصبر، انتظارا لحكم الله له بالنصر (تكررت في أربع آيات) : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم : 48]، ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور : 48]، ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس : 109]، ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ [الإنسان : 24].

ثالثاً : صيغة أمره بالصبر، انتظاراً لإنجازه تعالى وعده الحق بالنصر، تكررت في ثلاث آيات : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم : 60]، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر : 55]، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر : 77].

ولعل حديث الرسول ﷺ حين سئل مرة عن الإيمان قال : « هو الصبر »، دليل على أن أكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 68 06/12/2016 22:29:16

من ثوابت القرآن الكريم (4) و (5)

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

مُقَدِّمَة

نصل الآن إلى خاتمة آية مزدوجة، تكرر فيها حبه تعالى مرتين لصنفين من الناس، يتصفان بصفتين محمودتين، هما التوبة والتطهر، جاءت هذه الخاتمة في آية المحيض من سورة البقرة : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

وقد فرض سياق المحيض سَوادَ (أكثر) التطهر على الآية، فجاءت التوبة – في هذا المساقِ من سبقِ حبِّ الله للتوابين (نسقاً فقط) حبَّهُ للمتطهرين – بمثابة الطريق إلى التطهر، بحيث يكون التطهر حقيقة، وثمرة للتوبة.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 69 06/12/2016 22:29:16

من ثوابت القرآن الكريم (4)

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾

لم يَرِدْ حب الله للتوابين إلا مرةً واحدةً في القرآن، والتاء والواو والباء (ت و ب) أصل صحيح، ولفظ مفتاحي قرآني، وردت اشتقاقاته في 84 موضعاً من التنزيل الحكيم.

وأصل التوبة الرجوع، كما قال ابن فارس : (توب) التاء والواو والباء كلمةٌ واحدةٌ تدلُّ على الرُّجوع، يُقال تابَ مِنْ ذنبه، أي رَجَعَ عنه، يتوب إلى الله تَوبةً ومَتَاباً، فهو تائب، والتَّوْبُ التَّوبة[1].

ويتأكد هذا الأصل في بعض تصاريف فعل الرجوع في القرآن، حيث جاء بمعنى التوبة عدة مرات في ثلاثة سياقات هي :

تفصيل وتصريف الآيات : ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف : 174]، ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف : 27].

والابتلاء : ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف : 168].

والأخذ بالعذاب : ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف : 48]، وإذاقته : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة : 21]، ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : 41].

لكن تصاريف التوبة في القرآن تظهر خصوصيات، تفسر لنا لماذا يحب

1. مقاييس اللغة، ج 1 ص 326.

الله تعالى التوابين.

والمدهش أولاً : في القرآن، هو أن الله تعالى، هو الذي يتوب على عباده في 22 آية، ويصف نفسه بأنه التواب في إحدى عشرة آية أخرى، أي بما مجموعة 33 تواردا للتوبة، من أصل 84 تواردا، لفعل التوبة ومصدره واسم فاعله وصيغة مبالغته.

والمدهش ثانياً : يتمثل في مجيء توبة الإنسان، أساساً بدعوة منه تعالى مباشرةً، أو على لسان أنبيائه في عشر آيات، وفي بيان قبوله تعالى، وعدم قبوله للتوبة في سبع منها، فيُذْكَرُ محموداً مَنْ تاب في 21 آية، ويُشنَّع بمن لا يتوب في ثلاث منها، وللتعرف على كليات دلالة التوبة في كتاب الله، نطرح هذا السؤال المزدوج الأساس : ما حقيقة توبته تعالى على عباده، وتوبة عباده إليه ؟

والجواب على هذين السؤالين : هو مدار بحثنا، وسنلاحظ أن جوهر توبته تعالى على عباده، هو مغفرته لهم برحمة منه، وأن جوهر توبة عباده إليه، هو استغفارهم (أي طلبهم مغفرته تعالى)، قبل إصلاح العمل، وبعده، ومعه، وبذلك يكونون توابين يحبهم الله تعالى.

توبتهُ تَعالى عَلى عبادهِ وَرَحمتهِ بهم

من خلال استعراض الآيات التي تتضمن ذكر توبته تعالى على عباده، نلاحظ تجاور فعل التوبة مع التأكيد على أنه تواب ورحيم (في صيغة مبالغة)، وذلك في ختام العديد من الآيات، في عدة صيغ، ننوه باثنتين منها كثيرة التوارد :

أولاً : صيغة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

رافقت هذه الصيغة فعل توبته تعالى على عبادة في إحدى عشرة آية،

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 71 06/12/2016 22:29:16

نلاحظ فيها خاصة :

1) علاقة تجاور وتلازم بين توبته تعالى ورحمته : ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : 37]، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : 54]، ﴿فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : 160].

2) علاقة تجاور وتلازم بين قبوله تعالى توبةَ عباده، وبين توبته عليهم، رحمته بهم : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة : 104].

ثانياً : صيغة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

وقد رافقت هذه الصيغة الخاتمة اثنتي عشرة آية، تُذْكَرُ فيها توبةُ الناس، مع السكوت عن ذكر توبته تعالى عليهم، لأنها مفهومة من سياق هذه الصيغة الخاتمة، ونلاحظ هنا عموماً، ذكر توبة الإنسان بعد ذكر عمل السيئات، الذي غالباً ما يكون عن جهالة، فماذا نلاحظ ؟ نؤخر الجواب إلى ما بعد عرض بعض آيات هذه الصيغة : ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف : 153]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام : 54]، ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل : 119].

نلاحظ (وهذا هو جواب السؤال أعلاه) مرافقة فعل الإصلاح مرات عديدة، لفعل التوبة، بما يشي أن التوبةَ، من منظور منطق الفعل القرآني، عملٌ صالحٌ، يحل محل عمل سيئ سابق، ولعل في تكرار تجاور الإصلاح، بصيغه المتعددة، مع التوبة ما يشي كذلك، بأنه من أبرز شروط قبول التوبة.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 72 06/12/2016 22:29:16

صيغةُ التَّوبة والإِصلاح فقط

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 89] [النور: 5].

صيغة التَّوبة والإيمان والعَمل الصَّالح

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الفرقان: 70].

وتميزت آية طه أولاً، بظهور المغفرة في بدايتها، ليكون الاهتداء خاتمتها (أي رابعاً) بعد كل من التوبة، والإيمان، والعمل الصالح، وكأن هذه الأحوال الأربعة شروط لقبول التوبة، وبالتالي للمغفرة: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: 82].

التَّوبةُ والاستغفارُ

ولا يمكننا فهم العلاقة بين توبة العباد إلى الله وتوبته تعالى عليهم، إلا إذا تعرفنا على جوهر التوبة وروحها، وذلك من خلال اكتشاف نوعين من العلاقات، تقيمها بعض الآيات تجاوراً، وتبادلاً بين التوبة والمغفرة.

فمن جانب علاقة التجاور، نلاحظ مجيء الاستغفار سابقاً لتوبة العباد إلى ربهم، ولاسيما في سورة هود وعلى لسان أنبياء الله تحديداً وهم يُبلِّغون رسالات الله:

محمد ﷺ: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ، وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: 3].

هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ... وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 52].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 73 06/12/2016 22:29:16

صالح عليه السلام : ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود : 61].

شعيب عليه السلام : ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود : 90].

أما من جانب علاقة التبادل، فنلاحظ من خلال المقارنة بين صيغتي خاتمة الآيات، المؤكدة على توبته تعالى على التائبين، أن المتغير الوحيد في المحل نفسه من الصيغتين نفسيهما، هما صفتا التوبة والمغفرة، أما صفة الرحمة فمستقرة في الصيغتين، وهذا يؤكد أن جوهر التوبة هو المغفرة :

إِنَّ/هُ هُوَ / التَّوَّابُ / الرَّحِيمُ

إِنَّ / اللَّهَ / غَفُورٌ / رَّحِيمٌ

وهكذا نصل إلى خلاصة ذهبية، تتمثل في أن توبته تعالى على عباده مغفرة، وأن توبتهم إليه استغفار.

ثالثاً : صيغٌ اجتمعَت فيهَا صَراحةً تَوبةُ العبدِ إِلى الله مع تَوبةِ الرَبِّ عَليه

﴿فَمَن تَابَ ... فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

تميزت آية المائدة بعدة ميزات : أولها كونها جملة شرطية، جمعت توبة العبد إلى الله (على أنها جملة الشرط) مع توبة الله عليه (على أنها جواب الشرط)، ثم تأكّدت توبته تعالى في ختام الآية بلغة مغفرته، ورحمته تعالى الكثيرة، وتميزت بذكر التوبة قبل ذكر الظلم، الذي ناب مناب سوء العمل، في آيات أخرى، وتمثلت ميزتها الأخيرة في تشابهها مع عدد من الآيات أعلاه، من جانب عطف الإصلاح فيها على التوبة، وكأنه تعريف للتوبة بأنها إصلاح : ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 74 06/12/2016 22:29:16

إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: 39].

﴿فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ ... فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

وتميزت آية البقرة كذلك، باجتماع توبة بني إسرائيل إلى الله (بصيغة الدعوة والطلب)، بعد اتخاذهم العجل، مع توبة الله عليهم (بصيغة الترغيب)، لتختتم هي الأخرى بصيغة التواب الرحيم الأولى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 54].

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ﴾

لكن ما تفردت به آيتا التوبة، ولاسيما خاتمة الآية 118، هو سبق توبته تعالى على الثلاثة الذين خُلِّفوا، بهدف تحقيق توبتهم، التي لم تتبع بشبه جملة (إليه)، التي نجدها في بقية تواردات توبة العباد إلى الله، وجاءت هذه الخصوصية في سياق ميزتين أخريين لهاتين الآيتين، تتمثلان في تكرار فعل توبته تعالى فيهما ثلاث مرات، مرتين على الرسول والمهاجرين والأنصار، ومرة على الثلاثة الذي خُلِّفوا) وفي ختمهما بالصيغتين أعلاه: ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 117-118].

﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾

وتلخص بدايات سورة غافر، ما فصلته خواتيم آيات عديدة من مغفرته

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 75 06/12/2016 22:29:16

لذنوب عباده، وقبوله توبتهم : ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر : 3].

﴿وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾

ولا نستطيع، ونحن نذكر صيغ تواتر فعل توبته تعالى، إلا الإشارة إلى صورة أخرى من حبه تعالى للتوابين، ألا وهي إرادته تعالى التوبة على المؤمنين، التي تكرر ذكرها مرتين في سورة النساء، في ختام ذكر أحكام الزواج والطلاق، لنلاحظ مدى تقربه تعالى من عباده، بتكرار فعل إرادته أربع مرات، ومفعوله التبيين والهدى والتخفيف عن المؤمنين، مرة لكلٍ، مقابل التوبة عليهم مرتين : ﴿يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء : 26-28].

التوّابُ والتَّوابُونَ

ولعلَّ من خصوصيات التوبة في القرآن، توارد لفظ (توَّاب) مسنداً حصرياً إلى الله تعالى، في صيغة المفرد 11 مرة في القرآن، فيما أطلقنا عليه آنفاً صيغة توبته الأولى، وهو من أسمائه الحسنى، أما لفظ (التوابين)، فلم يرد (جمعاً) إلا مرةً واحدةً، مسنداً إلى عباده المؤمنين الذين يحبهم، لكثرة توبتهم إليه : ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : 222].

وذكرُ التوابين في حديث أنوَرَ لرسول الله ﷺ، يعظم التوبة ويربط بينها وبين الخطايا : « كل بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون ».

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 76 06/12/2016 22:29:16

تَائبُونَ وتَائبَاتٌ

أما جمع المذكر السالم (التائبون)، وجمع المؤنث السالم (التائبات)، فقد ذكرا مرة واحدة لِكُلٍّ في القرآن، في سياق ثناءٍ على المؤمنين والمؤمنات، تضمنته قائمتان طويلتان نسبياً من صفاتهم الحميدة، حيث تصدَّر (التائبون) قائمة من تسع صفات للمؤمنين، في آية التوبة : ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 112]، بينما جاءت (التائبات) في المرتبة الرابعة من قائمة من ثماني صفات لخير الزوجات : ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾ [التحريم: 5].

شروطٌ أُخرى لقبُول التَّوبة

تذكرنا صفات التائبين هذه بشروط التوبة التي يقبلها تعالى، والتي سبقت الإشارة سريعاً إلى حضور بعضها في عدد من الآيات، ونشير هنا إلى حضور بعضها الآخر، في آيات من سورتي التحريم والفرقان.

﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾

ذكر القرطبي ثلاثة وعشرين شرطاً للتوبة، منها : أن تكون ناصحةً لصاحبها وخالصةً لله، وقد سماها القرآن توبةً نصوحاً، كان من إشارات قبولها تكفير السيئات، وإدخال التائبين الجنات : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحريم: 8].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 77 06/12/2016 22:29:16

﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾

سبق لنا ملاحظة مدى ارتباط التوبة بالعمل الصالح، في آيات سبقت دراستها، وسنلاحظ وجود هذا الارتباط مجدداً في آيتين من سورة الفرقان، حيث تفردت الآية 70 بذكر تبديل السيئات حسنات، وتفردت الآية 71 بتكرار توبة العبد مرتين، في جملتي شرط الآية وجوابها، وبتأكيد خلوص هذه التوبة بإلحاق مصدر التوبة الميمي (متاب)، بفعل التوبة، مع ذكر وجهة هذه التوبة (إِلَى اللَّهِ)، وكلها قرائن بقبوله تعالى توبة من كانت هذه توبته : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾ [الفرقان : 70-71].

تَوبةُ الله على مَنْ تَاب إليه مِنَ الأَنبياء

يروي لنا القرآن أخبار عدد من توبة التائبين إلى الله، وتوبة الله عليهم، ولاسيما أنبياؤه الذين يبقون أسوة وقدوة لنا في التوبة.

وكان أول من تاب عليه تعالى هو آدم عليه السلام، الذي خالف أوامر ربه بعدم، الأكل من الشجرة، فذكر لنا القرآن توبته عليه، مرفقة بالصيغة الأولى بعد تلقي آدم كلمات من ربه : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : 37]، ويتضمن هذا التلقي، معنى إتمام هذه الكلمات فعلاً وحالاً بقرينة اجتباء الله له، في سورة طه، لنلاحظ كيف جاءت توبته تعالى عليه بعد الاجتباء، وقبل الهدى : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه : 122]، وجاءت تلك التوبة عليه بعد إقراره بظلمه نفسه، وتوبته إلى الله، هو وزوجه حواء، توبة جاءت بلغة الاستغفار : ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف : 23].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 78 06/12/2016 22:29:16

وسار نوح عليه السلام على منوال أبيه آدم عليه السلام بالاستغفار، حين سأل ربه ما ليس له به علم، بطلب نجاة ابنه على أنه من أهله : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود : 47].

وسار يونس عليه السلام بعد نوح عليه السلام، على درب التوبة، الذي لم يصبر على تكذيب قومه له، فأبقَ إلى الفلك المشحون فالتقمه الحوت، فنادى في ظلمات بطنه تائباً، بلغة الإقرار بظلمه النفس : ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وكانت توبة صادقة مقبولة بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء : 87-88].

وجاء موسى عليه السلام بعد يونس عليه السلام، ليسأل سؤالاً لا تتأتى استجابته في الدنيا، وهي رؤية الله تعالى، فلما رأى ما حصل للجبل الذي تجلى له تعالى، تاب بعبارات يونس نفسها، ولكن بلفظ فعل التوبة : ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف : 143].

وهكذا كان الأنبياء والرسل عليهم السلام في القرآن الكريم، وسيبقون، مثلاً أعلى، وقدوةً، وأسوةً للتائبين، في كل زمانٍ، ومكانٍ.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 79 06/12/2016 22:29:16

من ثوابت القرآن الكريم (5)

﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾
﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾

أعلن سبحانه عن حبه للمُتَطهِّرين والمطَّهِرين في موضعين من القرآن الكريم، أولهما في سورة البقرة، في سياق بيان أحكام علاقة الرجال بالنساء في المحيض : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : 222]، وثانيهما في سورة التوبة، في سياق التشنيع ببناء المنافقين لمسجد ضِرَارٍ : ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة : 18].

يستوقفنا في آية البقرة اقتران حب التوابين بحب المتطهرين، ووجه التناسب الذي يُستحسَنُ معه اقتران التوبة بالتطهر، هو أن التوبة بحد ذاتها، إنما هي عملية تطهرٍّ، بالرجوع إلى الله وإصلاح العمل، (بعد سوء وظلم)، وتطهر بالاستغفار استدراراً لمغفرته تعالى.

ويستوقفنا في آية التوبة، أحقية مسجد أسس على التقوى، بقيام رجال يحبون أن يتطهروا فيه، فاستحقوا بذلك ثناء الله ومحبته.

ويستوقفنا في الآيتين تكرار فعل الحبِّ مرتين، حيث أُسنِد إلى الله وحده في البقرة، بما يناسب حبه تعالى لصفتي التوبة، والتطهر، وأُسنِد إلى الرجال أولاً، ثم إليه تعالى ثانياً في التوبة، بما يناسب العلاقة بين حب الرجال

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 80 06/12/2016 22:29:17

للتطهر، وحبه تعالى لهم لتطهرهم.

والطاء والهاء والراء (ط هـ ر) أصل صحيح في اللسان العربي، يدل أساساً على نقاءٍ من دَنَس وزوالِه، ومن ذلك الطُّهْر : خلاف الدَّنَس، والتطهُّرُ : التنزُّه عن الذمِّ وكلِّ قبيح[1]. والتطهُّر من التفعُّل، أي من قيام المكلف بفعل التطهر بنفسه دون فعل غيره.

ومعنى الطهارة في عرف الفقهاء، يدور حول أمرين : طهارة الظاهر (أو الطهارة الحسية)، وطهارة الباطن (أو الطهارة المعنوية)، فأما طهارة الظاهر فتشمل : نظافة الثوب، والجسم، والنقاء من الدنس والنجس، وأما طهارة الباطن : فهي طهارة القلب من الوساوس، وطهارة النفس من الأمر بالسوء، وطهارة الجوارح من الآثام، و « طهارة القلب هي الأولى »، ولَعَمري لقد صدقت المرأة القائلة لسلمان الفارسي ﵁، حين سألها عن مكانٍ طاهر ليصلي فيه فأجابته : (طَهِّرْ قَلْبَكَ ثم صلِّ حَيْثُ شِئْتَ).

وطهارة القلب هي الغالب من تصاريف فعل الطُهر الذي ورد مرة، واسم تفضيله 4 مرات، وفعل التطهر 5 مرات، واسم فاعله مرتين، وفعل التطهير 8 مرات، واسم فاعله مرة، واسم مفعوله 4 مرات، ومصدره مرة، بغلبة واضحة لفعل التطهر ومشتقاته، أي 14 تواردًا من أصل 28 تواردًا للطهر، ومشتقاته في القرآن الكريم.

ولعل من ميزات آية البقرة التي ينبغي ذكرها هنا، دلالتها مرتين على طهارة الظاهر الحسية في (يَطْهُرْنَ) وفي (تَطَهَّرْنَ)، ثم على طهارة الباطن المعنوية في حبه تعالى لـ (الْمُتَطَهِّرِينَ)، الوارد في آخر خاتمة الآية، بعد حبه للتوابين، حيث فرض السياق النوع الثاني من الطهارة : ﴿وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ

1. مقاييس اللغة، ج 3 ص 334.

يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وهكذا اجتمع في هذه الآية، التطهر المكتسب، وفاعله الإنسان، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ مع الطهارة التكوينية قانوناً فطريّاً كتبه سبحانه على النساء، من بنات حواء، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىَ يَطْهُرْنَ﴾، والتطهر (بمعنى النظافة)، أمر واجب بعد حصول الطهارة من الحيض، ولو لم يكن التطهر تكليفاً، لاستعمل الطهر في الموضعين فقال: (فإذا طهرن)، والهدف من الطهارتين، جعل الإنسان في عداد من أعلن الله حبَّه لهم، بصريح قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

ولعل من ميزات آية التوبة ورود فعل التطهر، واسم فاعله مرتين مفعولين لفعلي الحبِّ فيها، فَسهَّلت هذه المفعولية بروز مقابلة جميلة، بين حب رجال (جمع) لفضيلة مفردة، وحب إله فَرْدٍ لفاضلينَ (جمع).

رِجَالٌ / يُحِبُّونَ / أَن يَتَطَهَّرُواْ .... وَاللّهُ/ يُحِبُّ / الْمُطَّهِّرِينَ

والمتأمل الذواق الذي استقام عنده اللسان العربي، لا يحتاج إلى جهد كبير، ليجد فرقاً بين المطَّهرين في آية التوبة، والمتطهرين في آية البقرة، فأما (المطَّهِّرين) في آية التوبة 108 فهم أنفسهم (المتطهِّرين) في آية البقرة 222، ولا يختلف اللفظان إلا في الشكل، أي في إدغام التاء بالطاء إدغاماً دلَّنا عليه تشديد الطاء.

وتميزت آيتا المائدة كذلك، بورود فعل التطهير مرتين فيهما، مع دلالته على نوعي الطهارة، فكانت إزالة الجنابة قرينة التطهير الحسي، وتمثلت أربع قرائن التطهير القلبي المعنوي، في نفيه تعالى إرادة الحرج (1)، وإثباته إرادة التطهير للمؤمنين (2)، مع إتمامه نعمته عليهم (3)، ورجاء شكرهم له (4)، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 82 06/12/2016 22:29:17

وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّن الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 6].

ودلت آية الأنفال على تطهيره تعالى للمؤمنين حسياً، بإنزال ماء المطر عليهم، وإن كان ذلك بين يدي طهارة معنوية أخرى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11].

وورد فعل التطهير مرتين بخصوص بيت الله الكعبة، في سياق إزالة أي أثر، مادي أو معنوي، للشرك فيه، وذلك من أجل السماح بعبادته وحده، دون غيره: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: 125]، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: 26].

كما ورد فعل التطهير بدلالته المعنوية ثلاث مرات:

أولاً: بخصوص عيسى عليه السلام في سياق توفيته ورفعه: ﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران].

ثانياً: بخصوص مريم عليها السلام في سياق اصطفائها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 42].

ثالثاً: بخصوص أهل البيت في سياق إذهاب الرجس عنهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: 33].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 83 06/12/2016 22:29:17

وبياناً لإحدى غرائب قوم لوط المفسدين، ينقل لنا القرآن، في ختام آيتين شبه متطابقتين شكلاً ومضموناً، مدى غضبهم من آل لوط، إلى حد المطالبة بإخراجهم من قريتهم، بتهمة التطهر: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: 82]، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: 56].

ودون مغادرة قوم لوط عليه السلام، نلاحظ ورود اسم التفضيل (أطهر) أربع مرات في القرآن، كان أولها في ثنايا عرض نبي الله لوط عليه السلام على قومه الزواج من بناته، بدلاً من الفجور برسل الله (الملائكة): ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: 78].

تطهيرُ القُلوب

وجاء فعل التطهر ومفعوله القلوب مرة واحدة، بمعنى طهارة الباطن: ﴿وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: 41].

وأما ثاني تواردات اسم التفضيل (أطهر)، فكان في سورة الأحزاب، حيث جاء قريباً جداً من دلالة فعل التطهر في آية المائدة، على الطهارة المعنوية، بفضل إسناده إلى القلوب: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: 53].

التَّطهيرُ والتَّزكيةُ

ورد معنى التزكية متجاوراً مع معنى التطهر القريب منه مرتين في القرآن، مرة بتجاور فعلي التطهر والتزكية، في سياق الحض على الصدقة: ﴿خُذْ مِنْ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 84 06/12/2016 22:29:17

أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103].

ومرة بتجاور اسمي التفضيل (أطهر وأزكى)، وذلك في سياق النهي عن عضل النساء: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء ... فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ ... ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [البقرة: 232].

أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وصُحُف مُّطَهَّرَة

وورد اسم مفعول التطهير (ظاهراً وباطناً) ثلاث مرات، بخصوص أزواج أهل الجنة، فلا نجس أو دنس فيها: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: 25]، ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: 15]، ﴿لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: 57]، وأزواج الجنة، أي بمعنى الأشباه والأمثال من المتطهِّرين والمطَّهرين.

كما ورد مرتين بالمعنيين، بخصوص صحف الله المنزلة في سورتي عبسَ والبيِّنة: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: 13-14]، ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: 2].

وورد كذلك مرة بخصوص الملائكة في سورة الواقعة: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: 79]، وهنا نقول في هذه الآية الكريمة تفسيراً لها بأنَّ المؤمنين المطَّهرين هم الذين يَمَسُّون المقاصد الإلهية المطلوبة في الكلام القرآني، ولقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية على قولين:

أولاً: أن المقصود الكتاب الذي في السماء لا يمسه إلا الملائكة.

ثانياً: أن المقصود القرآن لا يمسه إلا الطاهر، أما المُحدث حدثاً أكبر، أو أصغر على خلاف بين أهل العلم.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 85 06/12/2016 22:29:17

من ثوابت القرآن الكريم (6)

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

ورد حبه تعالى للمتوكلين مرة واحدة في آية آل عمران رقم 159 : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران : 159].

جاءت هذه الآية، وغيرها من آيات هذا القسم من سورة آل عمران، في سياق معالجة آثار معركة يوم أُحُد السلبية، ومنها مواقف المنافقين الناقدة للجهاد في سبيل الله من أساسه، وما يميز هذه الآية، هو سلسلة أوامره تعالى إلى رسوله باللين (نقيض الفظاظة)، تجاه هؤلاء، وبالعفو عنهم، وبالاستغفار لهم وبمشاورتهم، لتختتم بتلازم لافت للنظر بين العزم والتوكل على الله، في جملة شرطية، جعلت من العزم شرطاً للتوكل، ومن التوكل جواباً للعزم، وإذا فوجئ كثير من المفسرين بورود الأمر بالعزم بعد الأمر باللين، فإن تصاريف التوكل في القرآن، تُنسج على المنوال نفسه من التلازم بين العمل (ولا نقول الأماني والأمل)، وبين التوكل على الله، ولعل حبه تعالى للمتوكلين، يكمن في هذا التلازم، والواو والكاف واللام، أصل صحيح في اللسان العربي ولفظ قرآني ورد 69 تسعاً وستين مرة، في التنزيل الحكيم، وتوزعت تصاريفه عموماً على كلمتين : هما صفة (وكيل) 24 مرة وفعل (توكل) 40 مرة، وقد ارتبط به اسم فاعله (المتوكلون) 3 مرات، وجاء مرة رابعة مفعولاً لفعل الحبِّ، في آية هذا البحث، وأخيراً جاء فعل (وُكِّلَ) الرباعي مرة واحدة مبنياً للمجهول : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة :

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 86 06/12/2016 22:29:17

11]، وما يستوقفنا في تواردات كل من فعل التوكل، وصفة وكيل، دخولُهما في سياق دعوة القرآن، إلى توحيد الله، الذي من مقتضياته اتخاذ المؤمن ربه الله وحده، دون غيره، وكيلاً في كل أموره، وهو المعنى الذي صدَّر به ابن منظور مادة وكل في لسانه : (وكل) في أَسماء الله تعالى، الوَكِيلُ هو الكفيل بأَرزاق العباد، وحقيقته أَنه يستقلُّ بأَمر المَوْكول إِليه، والمُتَوَكِّل على الله الذي يعلم أَن الله كافِلٌ رزقه وأَمْرَه، فيرْكَن إِليه وحْدَه ولا يتوَكَّل على غيره[1]، ولعل هذا المعنى القرآني، هو الخيط الرابط الواصل لتواردات التوكل، ويمثل ترقية وتزكية لأصل معنى (وكل) السلبي، الذي نقله ابن فارس : (وكل) الواو والكاف واللام : أصلٌ صحيحٌ، يدلُّ على اعتمادِ غيرِكَ في أمرك، والوَكَل : الرّجُل الضّعيف، يقولون وُكَلَةٌ تُكَلَةٌ، والتوكُّل منه، وهو إظهار العَجْز في الأمر والاعتمادُ على غيرك[2].

وسنحاول في هذا البحث إبراز جانبين من تصاريف التوكل، أولها : جانب تشابه وتثاني الصيغ المشدَّدة على وحدانيته تعالى، في تصاريف الوكالة والتوكل، وثانيها : جانب علاقة التوكل مع الإيمان خاصة، ومع كل من الإنابة والمتاب (التوبة) والاحتساب، والصبر، والعبادة، والتقوى عامة.

تشابه صيغ الوكيل والتوكل

تشابه صيغ الوكيل والتوكل، كما هو الحال في تصاريف الكلمات المفتاحية في القرآن، يستوقفنا في تواردات الوكيل والتوكل تشابه صيغهما، في سياقها العام من التأكيد والتشديد على وحدانيته تعالى، التي تجسدها عبادتنا له واستعانتنا به وحده، دون غيره في كل أمورنا، وحدانيةً تختزن

1. لسان العرب، (ج 11 ص 734).
2. معجم مقاييس اللغة لابن فارس، (ج 6 ص 136).

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 87 06/12/2016 22:29:17

حقيقتها الآية الكريمة من سورة الفاتحة : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5].

صيغُ الوَكيل

نلاحظ في سياق وحدانية الاستعانة، تأكيدُ عدد من الآيات، الوكيل على كونه تعالى الوكيل على كل شيء، وعلى كون وكالته علينا كافية تماماً، وعلى استحالة عثورنا على وكيل غيره، حتى ولو كان رسول الله ﷺ، لنستعرض أدناه أكثر الصيغ تكراراً وتأكيداً على هذا المقصد القرآني :

صيغة : ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

تكررت ثلاث مرات في القرآن، مرتين منها في سياق بيان أنه تعالى هو الله ربنا وحده، خالق كل شيء : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل﴾ [الأنعام: 102]، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62].

صيغة : ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾

هذه الصيغة هي الأكثر تكراراً ست مرات، ثلاث منها في النساء، واثنتان في الأحزاب، وسادسة في الإسراء، نذكر منها هنا ثلاثا فقط : ﴿وَللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: 132]، ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: 171]، ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: 65].

تَجَاورُ التَّوكل مَعَ الحَسْبِ

وقد تأكد معنى كفاية وكالته تعالى، من خلال تجاور الحسب مع

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 88 06/12/2016 22:29:17

الوكيل في آية آل عمران : ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران : 173]، ثم من خلال تجاوره معه في آيتي التوبة والزمر : ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة : 129]، ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر : 38].

صيغة : ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾

وزيادة في التشديد على وحدانيته تعالى في الوكالة، نفى القرآن حتى وكالة رسول الله في سبع آيات، وبصيغ متعددة : ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان : 43]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ [الإسراء : 54]، ﴿وَمَا أنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر : 41] [الأنعام : 107] [الشورى : 6]، ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام : 66]، ﴿وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس : 108].

ولذلك كان طبيعياً مجيء أول أمر إلى الرسول في هذا الخصوص، بصيغة اتخاذه تعالى وكيلاً : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل : 9]، وذلك في أوائل ما نزل عليه من القرآن، ثم بالتذكير بأن هذا الأمر كان من صميم وصاياه تعالى في التوراة : ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء : 2].

صيغُ التَّوكُل

أول ما يستوقفنا في آيات التوكل، هو تواتر أمره تعالى نبيه والمؤمنين بالتوكل عليه، في صيغتين رئيستين :

صيغة الأمر المباشر : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾

توجه الأمر بالتوكل بصيغة المفرد المخاطب إلى رسول الله ﷺ ثماني مرات في القرآن، حيث تجاورت في ثلاث منها مع صيغة الكفاية أعلاه :

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 89 06/12/2016 22:29:17

﴿وَتوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء : 81] [الأحزاب : 3] [الأحزاب : 48]، بينما جاءت مفردة خمس مرات، نذكر منها ثلاثاً : ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [النمل : 79]، ﴿وَتوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾ [الأنفال : 61] [الشعراء : 217].

أما صيغة الأمر بصيغة الجمع المخاطب : ﴿وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ﴾ فموجهة إلى بني إسرائيل، بما يؤكد ثبات وصاياه تعالى في رسالاته جميعاً : ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس : 84]، ﴿وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : 23].

صيغُ الأمرِ بلام الأمر :

كما ورد أمره تعالى بالتوكل بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر (فليتوكل) تسع مرات في صيغتين :

صيغة : ﴿وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

وردت هذه الصيغة متجاورة مع الإيمان، في سبع آيات غلب على معظمها، سياق المواجهة مع المكذبين بالرسل والرسالات : ﴿وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

صيغة : ﴿وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

وردت هذه الصيغة مرتين متجاورة مع إعلان رسل الله توكلهم عليه، فهي من باب تعظيم التوكل على الله : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف : 67]، ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ ... وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم : 12].

1. [آل عمران : 122] [آل عمران : 160] [إبراهيم : 11] [المجادلة : 10] [التغابن : 13] [المائدة : 11] [التوبة : 51].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 90 06/12/2016 22:29:17

توكُّلُ أنبياء الله وَأوليائِه على الله

وقد تكرر هذا الإعلان من رسل الله وأوليائه عن توكلهم على الله، في عدة صيغ، كان أكثرها تواراداً صيغة المتكلم المفرد : (توكلت) التي وردت سبع مرات، منها ﴿فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس : 71] (على لسان نوح ﷺ)، و ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هود : 56] (على لسان هود ﷺ)، و ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة : 129] (على لسان محمد ﷺ).

وتليها في التواتر صيغة المتكلم الجمع : (توكلنا) التي تكررت أربع مرات، منها : ﴿عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف : 89]، ﴿فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس : 85].

علاقاتُ التَّوكل مع غيره من الفَضَائل

أما صيغ إخباره تعالى بتوكل المتوكلين، فسنستعرضها من خلال ثنائه تعالى على فضائل المتوكلين، الذين اجتمع لديهم عدد منها إلى جانب توكلهم على الله.

التَّوكل والإيمانُ

تأكدت هذه العلاقة الوثيقة بين التوكل والإيمان في أربع عشرة آية، سبق لنا ذكر بعضها آنفاً ولاسيما صيغة : ﴿وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون﴾ التي تكررت سبع مرات في تقرير ضمني أن من صفات المؤمنين التوكل.

ويدخل التوكل على الله في صميم صفات المؤمنين المحمودة، ولاسيما في آية الأنفال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال : 2]، وفي

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 91 06/12/2016 22:29:18

سورة الملك : ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك : 29]، وفي سورة النحل : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل : 99]، وفي سورة الشورى : ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى : 36].

التَّوكل والصَّبرُ

سبق لنا في بحث حب الله للصابرين، رصداً لعلاقة بين الصبر والتوكل : ﴿الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل : 42][العنكبوت : 59].

التَّوكل والتَّوبةُ

وتميزت آية سورة الرعد بإقامة علاقة بين التوكل والتوبة (بلغة المتاب) : ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد : 30].

كما رصدنا وجود علاقة بين التوكل والإنابة[1] القريبة من معنى التوبة في ثلاث آيات، على لسان شعيب عليه السلام في آية سورة هود : ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود : 88]، ومحمد ﷺ في آية الشورى : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى : 10].

وواضح من هذا العرض المقتضب، لماذا يحب تعالى المتوكلين، وواضح كذلك، ارتباط التوكل بالعمل، الذي هو من مصاديق التوكل بالضرورة، وبدونه لا يكون توكلاً، وكان رسول الله ﷺ حاسماً في جوابه، على سؤال الأعرابي، في حديث رواه الترمذي في سننه : يا رسول الله أترك ناقتي وأتوكل ؟ فقال ﷺ : « اِعقلها وتوكل ».

1. ونابَ زيدٌ إلى اللهِ تَعالى : أَقبَلَ وتابَ ورجَعَ إلى الطّاعَة كأَنَابَ إليه إنابَةً فهو مُنيبٌ، وقيل : نابَ : لَزِمَ الطّاعَةَ وأَنابَ : تابَ ورجعَ، والإِنابَةُ : الرُّجُوعُ إلى الله بالتَّوْبة وفي التَّنْزِيل العَزِيز ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي : راجعينَ إلى ما أَمرَ به غيرَ خارِجينَ عن شَيْءٍ من أمره، تاج العروس، (ج 1 ص 992).

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 92 06/12/2016 22:29:18

وقد تأكد مفهوم التوكل هذا في حديث عن عمر بن الخطاب ﵁ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً، وتروح بطاناً »[1].

تروي الأخبار أن عمر بن الخطاب ﵁ لقي ناساً من اليمن يتكففون أهل السوق، فقال : من أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكلون، قال : بل أنتم المُتَّكِلُون، إنما المتوكل من يلقي الحبة في الأرض ثم يتوكل.

1. رواه الإمام أحمد في مسنده.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 93 06/12/2016 22:29:18

من ثوابت القرآن الكريم (7)

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

أعلن الله سبحانه وتعالى صراحةً عن حبه للمقسطين، في خواتيم ثلاث آيات من تنزيله الحكيم :

1) في الحكم بين المتخاصمين، حتى ولو كانوا سماعين للكذب أكالين للسحت، مثل حال بعض أهل الكتاب : ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة : 42].

2) في التعامل مع المسالمين من غير المسلمين، حيث تجاور الأمر بالقسط مع البر : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : 8].

3) في الإصلاح بين طائفتين من المسلمين متقاتلتين، نفياً لبغي إحداهما على الأخرى، وتحقيقاً للعدل بينهما، لنلاحظ تكرار الصلح مرتين، ومجيء العدل سابقاً للقسط، وكأنه لابد من العدل، والقسط معاً في الصلح : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات : 9].

والقاف والسين والطاء أصل صحيح في اللسان العربي، وردت مشتقاته في 27 سبعة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم، والقسط عند القوم من

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 94 06/12/2016 22:29:18

ألفاظ الأضداد، له معنيان، كما ذكر ذلك ابن فارس في مقاييسه : (قسط القاف والسين والطاء أصلٌ صحيح يدلُّ على معنَيَين متضادَّين والبناءُ واحد، فالقِسط : العَدل، ويقال منه أقْسَطَ يُقسِط، والقَسْط بفتح القاف : الجَور، يقال قَسَطَ، إذا جار، يَقْسِطُ قَسْطاً، والقِسْطَاس : المِيزان[1].

ويمثل هذا المعنى الأول للقسط الغالب من تواردات القسط في القرآن : 15 مرة للمصدر (القِسْط)، و 3 مرات لـ (تقسطوا) و 3 مرات لـ (أقسطوا) و 3 مرات كذلك لاسم فاعله (المقسطين) مفعول فعل الحبِّ، ومرتين لاسم التفضيل (أقسط)، أي بما مجموعه 25 تواراداً للقسط، بمعنى العدل، مقابل تواردين لاسم فاعل القَسْط : (القاسطون).

القِسْط والعَدْلُ

لاحظنا في بداية هذا البحث، كيف تجاور القسط مع العدل، في آية سورة الحجرات أعلاه : ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات : 9]، كما أنه تجاور معه في موضعين آخرين، يتميزان بتشابههما نسقاً وسياقاً، ولاسيما من جانب التوجه بالخطاب إلى المؤمنين، حثاً لهم على القيام بالقسط، والشهادة لله، اللذين يتطلبان عدلاً لا يقوم إلا بعدم اتباع الهوى في آية النساء : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ،فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ﴾ [النساء : 135]، وإلا بالتغلب على الشنآن المانع من العدل في آية المائدة، حيث تكرر ذكر العدل مرتين : مرةً لمنع أثر الشنآن على العدل، ومرة للاقتراب من التقوى، في أمر صريح بالعدل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ

1. معجم مقاييس اللغة لابن فارس، (ج 5 ص 85 و86).

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 95 06/12/2016 22:29:18

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: 8].

وهكذا تلاقى القسط مع العدل في ثلاثة مواضع من القرآن، لكن اللافت في العلاقة بينهما، هو تبادلهما الأدوار في سياق بيان مضمون ما أمر به تعالى أنبياءه وأولياءه من الفضائل، ولعل في استعراض هذه العلاقة، ما يفسر تكرار إعلان حبه تعالى للمقسطين.

الأمرُ بالقِسْطْ وبالعَدل

فالقسط والعدل داخلان في صميم أوامره تعالى ووصاياه:

أمره بالقسط: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: 29].

أمره بالعدل: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

وهذا الأمر بالقسط وبالعدل مِنْ عملِ مَن اختارهم الله واجتباهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21]، ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: 76].

الحُكمُ بالقِسْطِ وبالعَدل

والقسط والعدل داخلان كذلك في صميم الأحكام الصادرة، حلاً للخصومات بين الناس:

الحكم بالقسط: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: 42].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 96 06/12/2016 22:29:18

الحكم بالعدل : ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾ [النساء : 58].

وإذا رجعنا إلى مقاييس ابن فارس، بحثاً عن تعريف للعدل، اكتشفنا تشابهه مع القسط في أصل دلالته : (عدل) العين والدال واللام أصلان صحيحان، لكنَّهما متقابلان كالمتضادَّين : أحدُهما يدلُّ على استواء، والآخر يدلُّ على اعوجاج، فالأول الحكم بالاستواء، ويقال للشَّيء يساوي الشيء عِدْلُه، والعَدْل : نقيض الجَوْر، تقول : عَدَل في رعيته، فأمّا الأصل الآخر فيقال في الاعوجاج : عَدَل عن الأمر وانعدَلَ، أي انعرَج[1].

وزيادة في معرفة أسباب حبه تعالى للمقسطين، نتابع أبرز تصاريف القسط، حيث نلاحظ وجود علاقة متكررة بين القسط وبين القيام، بالمعنى القرآني، وقد سبق لنا رصد هذه العلاقة بين قوامين والقسط، في سياق الشهادة لله، أما هنا في آية آل عمران، فيتعلق الأمر بشهادة كونية، هي الأوسع على الإطلاق، وهي أنه تعالى قائم بالقسط، وهذا القيام من صفاته تعالى : ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران : 18].

وتتأكد هذه العلاقة بين القيام والقسط، من خلال مجيء الوزن مفعولاً لفعل القيام، وذلك في سياق وضعه تعالى الميزان مع رفع السماء، وبذلك يتحول الميزان إلى قيمة كونية لوزن الأشياء، بكل معاني الوزن، معياره عدم الطغيان وعدم الإخسار، فلا زيادة ولا نقص في أي وزن، وفي أي ميزان : ﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن : 7-9].

1. معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ج 4 ص 246-247.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 97 06/12/2016 22:29:18

وبعد وضع الميزان في السماء، بكل أبعاده القِيَمِيَّة، يأتي إنزاله مع الكتاب، من أجل إقامة القسط بين الناس : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]، وكأن عطف الميزان على الكتاب، يجعل منه جوهر البينات التي أرسل تعالى رسله بها.

ومن الجدير بالذكر هنا، اختصاص رسالة نبي الله شعيب عليه السلام بالتأكيد خمس مرات على القسط، بلغة الوفاء به وعدم الإخسار فيه : ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: 85]، ﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام: 152].

ويجري على لسانه مرتين لفظ (القسطاس) الموصوف بـ (المستقيم)، والاستقامة من هذه العلاقة بين القيام والقسط : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: 35]، ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: 182].

وبهذا القسط وموازينه توزن أعمال الناس، من أجل الحساب يوم القيامة، لنلاحظ كيف تحول لفظ القسط إلى صفة للموازين، فهي القسط عينه : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ [الأنبياء: 47].

وبها يُقضى بالقسط بين الناس، حيث تكرر ذكره كنقيض للظلم، فبذلك يُعرّف القسط بنقيضه : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 47]، ﴿وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 54].

وأما التوارد الثاني للقسط الذي ظهر مرتين فقط بصيغة اسم الفاعل (الْقَاسِطُونَ)، دون فعله ومصدره، فهو بمعنى (الجائرين)، الذين تفردت

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 98 06/12/2016 22:29:18

سورة الجن بذكرهم مرتين في مقابل المسلمين : ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ، فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ [الجن: 14-15].

وكما أن للقسط معنيين، أحدهما سلبي، وهو المعنى الثاني أعلاه، فإن للعدل معنى ثانياً سلبياً، يتمثل في اتخاذ آلهة مع الله، معادلةً له في الألوهية، وقد ظهر هذا المعنى السلبي لفعل العدل مرتين في القرآن، في بداية وفي أواخر سورة الأنعام : ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1]، ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 150].

(العدل = المساواة، وقد تكون المساواة عادلة، وقد تكون ظالمة، وهذا له علاقة بقيمة الشيئين اللذين نساوي بينهما، فالسوء ليس من لفظ العدل أو لفظ المساواة، وإنّما من الربط بين الشيئين).

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 99 06/12/2016 22:29:18

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً﴾

أعلن تعالى عن حبه للمقاتلين في سبيله مرة واحدة في آية سورة الصف : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوص﴾ [الصف : 4]، ولهذه الآية خصوصية تتمثل أولاً في مجيء إعلانه سبحانه عن حبه للذين يقاتلون في سبيله في مستهلها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ﴾ وليس في خاتمتها، كما هو الحال بالنسبة إلى المتقين، والمحسنين، والصابرين، والتوابين، والمتطهرين، والمتوكلين، والمقسطين.

وتتمثل خصوصية الآية ثانياً في كون كلّ الصفات السبع المذكورة صفات فردية، أما القتال في سبيل الله صفاً واحداً، فهي صفة تخص الجماعة حصراً، وهذا ما يفسر بروز وحدة الصف، في سياق القتال في سبيل الله.

أما خصوصية الآية ثالثاً فتتمثل في كون هذا الحبِّ الإلهي للموصوفين، بالصفات السبع المذكورة أعلاه، حباً غير مشروط بصفة أخرى، وكأن المرء إما أن يكون تقياً محسناً صابراً تواباً متطهراً متوكلاً مقسطاً، أو لا يكون، فإن كان كذلك، نال محبة الله دون قيد أو شرط، أما في آية الصف 4، فَاللهُ لا يحب المقاتلين عموماً، بل هو يحب من كان قتاله منهم : في سبيل الله من جانب، ومتراصين كالبنيان صفاً واحداً من جانب آخر، وحول مقصد سبيل الله، سيدور بحثنا ونحن نحاول حشد كل ما يؤيد حبه تعالى للذين يقاتلون في سبيله.

وفعل (يقاتلون) مشتق من الثلاثي (قَتَل)، وهو أصل صحيح ورد في

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 100 06/12/2016 22:29:18

القرآن فعلاً ومصدراً 94 مرة في القرآن، مع تواردين لفعل (اقتتل)، و 64 تواردا لقاتل وقتال، أي بما مجموعه 162 توارداً، وفعل (قتل) يحمل دلالة سلبية أساساً عند القوم : (قتل) القاف والتاء واللام أصلٌ صحيح، يدلُّ على إذلالٍ وإماتةٍ، يقال : قتَلَهُ قَتْلاً، والقِتْلَة : الحالُ يُقْتَلُ عليها، يقال قَتَله قِتلةَ سَوء، والقَتْلَة : المرّة الواحدة[1].

ويُعدّ القتل عملاً منكراً في شرائع الله جميعها، إذا كان القتلُ قتلَ نفسٍ زكيةٍ بغير نفس، كما قال موسى ﷺ، وهو يستنكر قتل غلام من أحد عباد الله، الذي آتاه رحمته وعلمه من لدنه : ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً﴾ [الكهف : 74].

كما أن الله تعالى كتب على بني إسرائيل حكماً أبدياً، يتمثل في اعتبار قتل نفس واحدة، مساوياً لقتل الناس جميعاً : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة : 32].

وقد جاءت هذه الآية من سورة المائدة، بعد تلاوة نبأ ابني آدم، فقد رفض أحدهما قتل أخيه، رغم علمه أنه قاتله، حتى لا يبوء بإثم القتل : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة : 27-28].

وتعددت صيغ النهي عن القتل في القرآن، وكان أكثرها تواردا صيغةٌ تكررت ثلاث مرات في ثلاث سور، هي : ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ

1. معجم مقاييس اللغة لابن فارس، (ج 5 ص 56).

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 101 06/12/2016 22:29:18

إلاَّ بِالحَقِّ﴾ [الإسراء: 33] [الفرقان: 68] [الأنعام: 151].

وكانت آيتا سورة النساء الأكثر تشديداً في النهي عن القتل، فقد تضمنت الأولى نهياً بلغة الاستحالة، عن قتل المؤمن: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً﴾ [النساء: 92]، أما الآية الثانية التالية لها، فهي الأكثر تشنيعاً في القرآن، بأية خطيئة كانت: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء: 93].

وشنع القرآن أربع مرات، بقتل بعض عرب الجاهلية أولادهم من إملاق (أي فقر)، ولاسيما في ثلاث آيات من أواخر سورة الأنعام المكية: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: 137]، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 140]، ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ﴾ [الأنعام: 151].

ثم في سورة الإسراء التي اعتبرت هذا القتل خِطْأً كبيراً: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 31].

وكذلك شنع القرآن بوأد البنات في أوائل سوره، بين يدي عرضٍ رهيبٍ، لمشاهد القيامة، تخلله سؤال حول سبب هذا الوأد: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 8-9].

كان هذا عرضاً لبعض الآيات التي تحرم قتل نفس بغير نفس، ولا فساد في الأرض، تحريماً شديداً، وكان هذا العرض ضرورياً، لبيان الفرق بين القتل (بمعنى الإماتة والإذلال)، وبين القتال الذي يتجاوزه إلى حد بعيد، ليس على مستوى الاشتقاق فحسب (بتضمنه معنى مشاركة أكثر من طرف في

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 102 06/12/2016 22:29:19

التخاصم)، وإنما على مستوى الدلالة (أي المقاصد العامة) كذلك، حيث يهدف القتال في سبيل الله، فيما يهدف إليه، إلى منع القتل عدواناً وظلماً، ومنع ما هو أشد منه، أي الفتنة في الدين، وهذا مقصد إنساني، نحاول تسليط الضوء عليه بإيجاز، إزالة لالتباسات التأريخ، وما رافقه من تأويلات مغرضة، جاءت من خارج النص، سواء جاءت من المسلمين أم من غير المسلمين، بقصد أو بغير قصد.

في الحقيقة، عرفت بدايات الدعوة الإسلامية أمراً بكف الأيدي، أي بعدم الرد على إيذاء المشركين للمسلمين : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾ [النساء: 77].

ثم أُذن بالقتال لمن يقاتَلون مظلومين : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39].

ثم كُتِبَ (أي فُرِضَ) القتالُ على المؤمنين، وهم كارهون له، قبل معرفة أنه خير لهم، كما يتبين من سياق آية البقرة : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

وكان أول أمر بالقتال حصراً ضد من يقاتل المسلمين، وقد جاء مقترناً بنهي عن العدوان، وبإعلان عدم حب الله للمعتدين، (كما سنرى في الجزء الثالث من هذه الموسوعة)، وكان ذلك القتال في سبيل الله : ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190].

وتُظهر آية أخرى من سورة البقرة، ليس مبادرة الكفار بمقاتلة المسلمين وحسب، و إنما حرصهم على مواصلته قصد رد المسلمين عن دينهم،

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 103 06/12/2016 22:29:19

لنلاحظ كيف جاءت هذه الآية جواباً عن تساؤل بعض المسلمين، منكرين مشروعية القتال، خاصة في الشهر الحرام، فكان جواب القرآن حازماً مرتين، مبيِّناً أن الفتنة في الدين، هي أشد من القتل في القتال وأكبر : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾ [البقرة : 217].

وقد صرحت آيتان من سورة البقرة والأنفال بهدف القتال عند المسلمين، ألا وهو منع الفتنة في الدين، ولا عدوان في مثل هذا القتال : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة : 193]، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال : 39].

وتبرز آية النساء الفرق بين هدف قتال المؤمنين، وهدف قتال الكافرين، فرق عُبِّر عنه بلغة السبيل : ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [النساء : 76].

وقد تكرر في الآيات أعلاه، إرفاق فعل القتال بعبارة في سبيل الله (وسيتكرر كذلك في عدد من الآيات أدناه)، كما هو الحال في آية سورة التوبة، التي تضمنت ثناءً واضحاً على هذا القتال الداخل في سياق تجارة (شراء وبيع)، بين الله والمؤمنين : ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة : 111].

وتقدم لنا الآية أعلاه تعريفاً عملياً لهذا القتال، الذي يُقتل فيه كافرون

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 104 06/12/2016 22:29:19

ومؤمنون، بينما يتواصل فيها الثناء على هذا القتال مع بيان ثمرة تجارته، ألا وهي الجنة التي تمثل مادة الربح في هذه التجارة متحولة إلى وعد قطعه تعالى لكل من قاتلوا في سبيله، من أهل الديانات الثلاث، منصوصاً عليه في الكتب الثلاثة.

ولنلاحظ مدى الثواب الذي خص به تعالى الذين يقاتلون في سبيله، ولنلاحظ كذلك ما يرافق هذا القتال ضرورة، من هجرة وأذى وقتل للمؤمنين: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: 195].

وكان أبرز آيات القتال آيتان تعظمان من أمر المقتول، بالنهي عن اعتبار من يقتل في سبيل الله ميتاً، بل هو حي يرزق ولو لم نشعر نحن بذلك: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 154]، ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169].

لنعد إلى سورة الصف، فنلاحظ تأكيد أواخرها لما تضمنته الآية رقم 4 من حبه تعالى للذين يقاتلون في سبيله، ولكن بلغة (في سبيله) هذه المرة، ولكن في السورة نفسها ورود أربع آيات (من 10 إلى 13)، تشكل حزمة واحدة، تُرَغِّبُ في الجهاد في سبيل الله ترغيباً خاصاً، جاء بلغة تجارة منجية، من عذاب أليم، وهذا الترغيب، يذكرنا بآية التوبة رقم 111 التي استخدمت هي الأخرى، لغة شراء وبيع من نوع خاص: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 105 06/12/2016 22:29:19

سَبيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: 10-13].

لنلاحظ القاسم المشترك بين القتال والجهاد، إنه (سبيل الله)، أي من أجل إعلاء كلمة الله، وليس من أجل فتح البلدان، وإخضاع الشعوب، وهكذا يحتمل كل من القتال والجهاد شحنة حياة لا شحنة موت، بفضل ارتقائهما إلى معارج القيم الربانية.

والجهاد من الجهد، وهو أصل صحيح ورد بمشتقاته المختلفة 51 مرة في القرآن، وهو من المشقة، كما ذكر ذلك ابن فارس: (جَهَدَ) الجيم والهاء والدال أصلُهُ المشقَّة، ثم يُحمَل عليه ما يقارِبه، يقال جَهَدْتُ نفسي وأجْهَدت والجُهْد الطَّاقَة[1].

وقد ورد أصل معنى المشقة في آية من سورة التوبة، تصف حال مُطَّوِّعين فقراء من المسلمين، لا يجدون إلا القليل الذي يتصدقون به بمشقة، فكان فقرهم هذا مدعاة سخرية الأغنياء من المنافقين: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 79].

وتكرر فعل (جَاهَدَاكَ) مرتين وبالصيغة نفسها، بمعنى بذل قصارى الجهد، من وَالدَيْنِ مشركين لإقناع ولدهما بالشرك: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت: 8]، ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: 15].

1. معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ج 1 ص 486).

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 106 06/12/2016 22:29:19

واللافت في أنساق جمل الجهاد في سبيل الله عموماً، هو سبق الجهاد بالمال، على الجهاد بالنفس محلاً، بما يعزز حضور معنى الجهد فيه، بل غلبته، لنأخذ ذلك مثالاً آية التوبة التي تلازم فيها الأمر بالنفير، مع الأمر بالجهاد بالمال والنفس : ﴿انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُم وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ﴾ [التوبة : 41].

واللافت كذلك في أنساق الجهاد في سبيل الله، هو تلازمه مع الإيمان السابق له، في كثير من تورداته، لنلاحظ في الآيتين أدناه كذلك، كيف اقترن الجهاد بالإيمان (وكذلك بالهجرة) في آية الأنفال، وبعدم الريبة مع الإيمان في آية الحجرات، وكيف اعتبر المجاهدون مؤمنين حقاً، في الآية الأولى وصادقين في الثانية : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال : 74]، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات : 15].

بل هم الفائزون، ثم هم المفلحون، في آيتين من سورة التوبة : ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة : 20]، ﴿لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة : 88].

وقد قامت علاقة تجاور بين اسمي فاعل الجهاد والصبر، في آيتين حيث حلَّا مفعولين لفعل العلم، بما يبرز مدى الجهد الذي يتطلبه الجهاد، كما هو الحال في الصبر : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران : 142]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد : 31].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 107 06/12/2016 22:29:19

لكننا نختم هذا العرض الموجز جداً، لمختلف جوانب الجهاد، بما أطلقت عليه آية الفرقان، الجهاد الكبير، ويعني بذل قصارى الجهد، في بيان مقاصد القرآن، وقيمه : ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ [الفرقان : 52].

نعود بعد هذا الاستطراد الطويل في التفريعات، إلى آية الصف 4، لنجد أن ثمة صفات لا بد من توفرها في المقاتلين، لكي يستحقوا محبة الله تعالى، منها :

أولاً : أنهم يقاتلون من يقاتلهم، فلا يبدؤون بقتال، ولا يبادرون بعدوان، فلا يخرجون في قتالهم عن حدود الدفاع عن النفس، أما الزعم بوجود قتال هجومي استباقي في الإسلام، فهو ليس عندنا بشيء، لأن دين الإسلام الذي لا يقبل الله من عباده ديناً غيره، إنما نزل رحمة للعالمين، ولم يسمع أحد أن السيف شَكلٌ من أشكال الرحمة[1].

ثانياً : أنهم مخلصون صادقو النية في القتال في سبيل الله، فهم لا يقاتلون طلباً لشهرة، ولا حباً بغنيمة، ولا رغبة في دنيا يصيبونها، كل همهم أن تكون كلمة الله في العدل والحرية والمساواة هي العليا، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾.

ثالثاً : أنهم يقفون صفاً واحداً في وجه الأعداء والبغاة والطغاة، ويكون هذا بأجسادهم، وأموالهم، وقلوبهم، وتكامل أعمالهم.

رابعاً : أنهم كالبنيان المرصوص، الذي بتماسك أحجاره وتلاحم لبناته لا يقوى المعتدي على اختراقه.

1. [عودة إلى الجزء الخامس من كتابنا (الثابت والمتغير في السنة والسيرة النبوية) وبعنوان : (فقه الجهاد في كتب فقه الجهاد) للدكتور إحسان بعدراني من (سلسلة القراءة المطلوبة ٢)].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 108 06/12/2016 22:29:19

خامساً: أنهم لا يتخللهم ما يمزقهم، ولا يخالطهم ما يفرقهم، وهذا تأكيد معنى قوله تعالى: ﴿مَرصُوص﴾.

لقد جاءت آية البقرة 216، لتبين مكروهية القتال، لما فيه من قتل، وسفك للدماء: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم جاء قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60]، ليبين وجوب تكاتف الأمة، في إعداد كل الأسباب، التي تمكنها من الوقوف في وجه المعتدين، ولا ريب، في أن وحدة الصف، أحد أبرز هذه الأسباب، وأهمها على الإطلاق.

ثم يأتي أخيراً قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: 61]، ليوضح لنا أمرين:

الأول: الاستجابة لدعوات السلم والسلام، تجنباً لمكروهية القتال.

والثاني: عدم ترك الاستعداد، واتخاذ أسباب القوة، في حال الاستجابة لدعوات السِّلم والسَّلام.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 109 06/12/2016 22:29:19

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 110 06/12/2016 22:29:19

الجزء الثالث

الذيْنَ لاْ يُحِبُّهُمُ اللهُ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 111 06/12/2016 22:29:19

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 112 06/12/2016 22:29:19

مُقدِّمَة

ننتقل إلى الجزء الثالث من هذه الموسوعة المختصرة، التي يعلن فيها تعالى عدم حبه لعشر فئات من الناس، يجسّد عملهم وحالهم عشر رذائل، هي الأسوأ، حسب منظومة قيم قرآنية، هي في الواقع من معروف العالم وعرفه.

هؤلاء الناس الذين لا يحبهم تعالى، هم أولاً الكافرون، المشنَّع بهم تشنيعاً هو الأكبر والأكثر في القرآن، يليهم الظالمون، ثم المعتدون، ثم المسرفون، ثم الخائنون، ثم المفسدون، ثم المستكبرون، ثم الفرحون، ثم المختالون الفخورون، ثم الذين يجهرون بالسوء من القول، دون ظُلمٍ يقع عليهم. إن عدم حبه تعالى لهذه الفئات العشر من أهل الرذيلة، ناشئ عن ثابت قرآني عام، يحرِّم ويحظر وينهى عن كل عمل سيئ، ناشئ عن نية وطوية سيئة، يترجمها سلوك عملي على أرض الواقع.

وفي الواقع، تنتمي هذه الرذائل إلى أسرة واحدة، هي على النقيض كلياً من أسرة الفضائل، وحين نقول (أسرةً واحدةً)، فإننا نعني بذلك شجرة سوء مشتركة لها عشرة فروع سيئة مشتركة، تخرج من جذع سوء مشترك له ثلاثة جذور كبيرة مشتركة، تتغذى بماء مستنقع (الظلم)، وهذه الجذور هي :

1 | حجبٌ وكتمانٌ يتجسد في الكفر (الإنكار أو الجحود)، للحقيقة (الواقع).

2 | اعتداء، بمعنى تجاوز ينشأ عنه عدم احترام حقوق الإنسان، وبالتالي تعدي حدود الله في الأديان.

3 | فساد وإفساد، هو نقيض الصلاح والإصلاح.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 113 06/12/2016 22:29:19

ونؤكد بأنَّ هذه الجذور الثلاثة تنبُع من جذرِ رذيلةِ الظُلم بصريح الآيات القرآنية.

ودراستنا للعشرات بل للمئات من الآيات، التي وردت فيها كلماتٌ مفتاحية، وصيغٌ خاصة، تدل على هذه الرذائل، قد أكدت هذا الواقع من الانتماء إلى جذور السوء الثلاثة، وإنه لاكتشاف كبير في عالم المعنى تبصر من خلاله أن الإنسان من أهل هذه الرذائل، إنما يعمل على حجب الواقع، وعلى تعدي القوانين (القيم) الحاكمة الناظمة للسلوك الطبيعي للإنسان في كل زمان، وعلى إفساد النظام الطبيعي، الذي كتبه تعالى يوم خلق السموات والأرض والإنسان.

ويمكننا اعتبار التعدي جذر السوء الأكبر، حيث تدل معظم رذائل الأعمال ضمنياً على التعدي، فالظلم، هو تعدٍّ، بمعنى انتهاك حقوق الغير، والإسراف تعدٍّ، بمعنى تجاوز الحاجة في مجال نعمة الغذاء وغيرها، والخيانة تعدٍّ، بمعنى الإنقاص (عدم الوفاء بالعهود)، والاستكبار (بمختلف أعراضه من فرح ومرح واختيال وفخر) هو تعدٍّ أيضاً، بمعنى الإفراط في تقدير الذات، والتفريط في تقدير الغير، وأما الكفر والفساد فاعتداءان كاملان، حيث الأول حجب للحقيقة، والثاني استبدال للنظام بالفوضى.

وإن كثافة هذا الجزء من الموسوعة، ليست ناشئة وحسب عن عدد خواتيم الآيات المُعلِنَةِ لعدم حبه تعالى لأصحاب هذه الرذائل (24 خاتمة مقابل 17 بالنسبة إلى الفضائل)، وليست ناشئةً كذلك عن العدد الكبير للآيات الداخلة في سياقات التشنيع، بسيئات أعمال هذه الفئات العشر، من أهل الرذائل، وإنما هي ناشئة خاصة، عن طبيعة الجدل القرآني المتوجهة، إلى غير المؤمنين، ضِعْفَ توجهه إلى المؤمنين.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 114 06/12/2016 22:29:19

ومما ينبغي الإشارة إليه، بخصوص بنية هذا الجزء الثالث من الموسوعة، هو تعارضها مع بنية الجزء الثاني منها، من وجهة نظر نحتٍ نحوية، وخاصة من وجهة نظر دلالية، فنفي حبه تعالى لأصحاب صفات السوء العشر، ينجر عنه حلول الوعيد محل الوعد، والعذاب محل الثواب، وجهنم محل الجنة، وغضبه تعالى محل رضاه، وإهلاك الكافرين الظالمين محل نجاة المتقين والمحسنين. ويرافق ثنائية التعارض، حلول لغة النذير محل لغة البشير، وقد اتبعنا في كل فصل المنهجية نفسها ألا وهي، إبراز العناصر المُبيِّنة لأسباب عدم حبه تعالى لأصحاب كل رذيلة مدروسة في الآيات المعروضة، وينشأ احترامنا لهذه المنهجية، من القيمة التي نعلقها على استخراج منطق القرآن الثابت، الذي يعالج ثوابت عمل الإنسان، ونركز على كلمة (عمل الإنسان.

إننا في الجزء الثاني من الموسوعة، اكتشفنا وتعلمنا ما يريد تعالى منا أن (نعمل)، وفي هذا الجزء الثالث، نكتشف ونتعلم ما يريد منا تعالى (ألا نعمل)، لأن المسألة في الحالتين، تتعلق بـ (العمل)، هذا معيار النجاة والهلاك، بحسب طبيعة (العمل)، الذي هو إما ممارسة فضيلة، وإما مقارفة رذيلة.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 115 06/12/2016 22:29:19

من ثوابت القرآن الكريم (1)

﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾

أعلن الله تعالى في أربعة مواضع من القرآن، عدم حبه للكافرين، وذلك في السياقات التالية :

1) سياق اتباع الرسول وطاعته، حيث جاءت آية سورة آل عمران مباشرة بعد الآية المنيرة، التي كانت إحدى موضوعات الجزء الأول من هذه الموسوعة، لنقرأهما معاً، ولنلاحظ العلاقة الوثيقة بين الآيتين، التي يرسمها إعلانه تعالى حبه للمتبعين لرسوله (في الآية رقم 31) الطائعين له تعالى ولرسوله (في الآية رقم 32) ويؤكدها إعلانه تعالى عدم حبه للمتولين عن رسوله (في الآية رقم 32) باعتبارهم كافرين ضمنياً : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران : 31-32]، وعليه فالتولي (بمعنى عدم اتباع الرسول وعدم طاعته) ضرب من الكفر، من حيث المؤدّى والعاقبة.

2) سياق وعيد بسوء عاقبة الكفر على الكافر، كما تدل عليه الآيتان 44 و 45 من سورة الروم، باعتبار الكفر عمل سوء، وذلك على عكس حال من عمل صالحاً، فإنه يمهد لنفسه حسن العاقبة، من حيث جزاؤه تعالى للذين آمنوا، وعملوا الصالحات، من فضله، وهذه المقابلة بين سوء عاقبة الكفر، وحسن عاقبة العمل الصالح، يفسر لنا لماذا اختتمت الآية رقم 45 بإعلان عدم حبه تعالى للكافرين : ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 116 06/12/2016 22:29:20

يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [الروم: 44-45]، وعليه، فالكفر عمل سوء أساساً يقتضي عاقبة سوء.

تعقيب: كان سياقاً، إعلانه تعالى عدم حبه للكافرين أعلاه، تشنيعاً بكفر الكافرين، بمعناه القرآني العام، حيث جاء مفرداً، أما في السياقين الخاصين أدناه، فنحن أمام تشنيع بالكفر جاء مقترناً بالخيانة، في آية سورة الحج، وبالإثم في آية سورة الروم.

3) سياق تشنيع بكفر كافرين وَالِغِينْ (داخلين)، ليس في الكفر وحسب، وإنما في (الخيانة) كذلك، ويتجسد هذا الكفر، وهذه الخيانة، في قتالهم ظلماً، لمجرد أنهم آمنوا (كما نفهم من سياقات القرآن العامة)، لذلك اقتضت نصرته تعالى للمؤمنين، إعلانه دفاعه عنهم، في صدر الآية رقم 38 من سورة الحج، قبل إعلانه عدم حبه تعالى لهؤلاء الكفرة الخونة في خاتمتها، كما اقتضت إعلانه في صدر الآية رقم 39 بعدها، عن إذنه للمؤمنين بدفع الظلم عن أنفسهم، بين يدي إعلانه عن قدرته تعالى على نصرهم، على هؤلاء الخونة الكفرة الظلمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: 38]، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39]، وتقيم خاتمة آية سورة الحج علاقة حميمية بين الكفر والخيانة، متيحة بذلك المجال لتعريف الكفر على أنه خيانة.

4) سياق تشنيع بعمل قد لا يكون صادراً عن الكفر بالضرورة، ولكنه (إثم كبير) عند الله، يتمثل في (الربا)، ولعل من خصوصيات آية سورة البقرة هنا، اعتبارها الربا كفراً وإثماً، ولا نستطيع فصل الآية رقم 276 عن سابقتها الآية 275، فهي امتداد لها في تشنيع بالربا، يصل إلى وعيد يوازي ضمنياً من

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 117 06/12/2016 22:29:20

حيث العاقبة، بين إثم المرابي وكفره : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 275-276]، وعليه فإن آية سورة البقرة تقيم علاقة بين الكفر والإثم، بمعنى أن الكفر إثم.

وتُعدُّ هذه العلاقات، التي أنشأتها آيات عدم حبه تعالى للكافرين، إشارات وعلامات، تساعدنا على كشف حقيقة الكفر، من خلال تصاريفه الكثيرة جداً في القرآن، ونبدأ كالعادة، بمحاولة ربط هذه التصاريف، بأصل معنى الكفر عند القوم، وهو الستر والتغطية، كما ذكر ذلك ابن فارس في مقاييسه.

لنقرأ ما نقله هذا اللغوي الحاذق، ولنتأمل في مثال (كفر الدرع) كيف هو تغطية لثوب المقاتل، ثم في دلالة (الكافر) عند القوم، حيث هو (المغيب)، و(البحر)، و(النهر العظيم)، لأنها تغطي الأرض والسماء بلونها : (كفر) الكاف والفاء والراء أصلٌ صحيحٌ، يدلُّ على معنىً واحد، وهو السَّتْر والتَّغطية، يقال لمن غطّى دِرعَه بثوبٍ : قد كَفَر دِرعَه. والمُكَفِّر : الرّجل المتغطِّي بسلاحه، يقال، إنَّ الكافر : مَغِيب الشَّمس، ويقال، بل الكافر : البحر والنهر العظيم كافر، تشبيهٌ بالبحر، والكُفْر : ضِدّ الإيمان، سمِّي لأنَّه تَغْطِيَةُ الحقّ[1].

وقد أخذ النص القرآني هذا الأصل المادي الحيادي للكفر، فشحنه بدلالة معنوية سلبية (باعتباره نقيض الإيمان)، تعبر عن حقيقة عمل الكافر،

---

1. معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ج 5 ص 1).

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 118 06/12/2016 22:29:20

حين يغطي ما لا ينبغي تغطيته، وهو الحق والحقيقة.

والكفر، من المفردات القرآنية عالية التوارد، فقد وردت مشتقاته في 497 موضعاً من القرآن الكريم، (باستثناء 14 تواراداً لتكفير السيئات، التي تحتفظ بأصل دلالة التغطية نفسه في الكفر، لأن معنى التكفير هنا، هو عدم كشف هذه السيئات يوم الحساب)، وكان معظم تواردات هذه الكلمة لفعل (كَفَرَ) 322 مرة ثم لاسم فاعله (كافِر)، وصيغ مبالغته (كَفَّار)، و(كَفُور)، 172 مرة، وأخيراً لمصدرين له هما (كُفْر) كثير التوارد 31 مرة، و(كُفُور) قليل التوارد 3 مرات فقط.

وفي الآية رقم 20 من سورة الحديد، وردت كلمة الكُفَّار بمعنى الزُّرَّاع، أي، الذين يغطون ما يزرعون بتراب الأرض، بين يدي بيان تشنيع بإعجاب الكافر بحاضر حياته السريع، فيحسَبُ ما هو زائل فيها دائماً، وربما كان هذا الاغترار والاستعجال في إصدار الأحكام، أصل كفره، أي محاولته حجب حقائق الأشياء: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20].

وأول ما نلاحظه في تصاريف هذه الكلمة قرآنية النحت والنحو، مجيئها 256 مرة توصيفاً لحال مَنْ لم يؤمن برسالة محمد ﷺ، توزعت على عبارات ثلاث، هي (الذين كفروا) 126 مرة، كما قال تعالى في بداية سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6]، وعلى اسم فاعل هذا الفعل، الذي كثيراً ما جاء في صيغة جمع المذكر السالم (الكافرون والكافرين) 111 مرة، كما في آية سورة النساء: ﴿أُوْلَـئِكَ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 119 06/12/2016 22:29:20

هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴾ [النساء: 151]، وذلك مقابل 19 تواردا لجمع التكسير المذكر: (الكُفَّار وكُفَّار)، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 42].

وثاني ما نلاحظه في كثير من تصاريف فعل كَفَرَ، هو استعماله فعلاً لازماً غير متعد ظاهراً، بحيث يفيد في تقرير كفر من أُسند إليه هذا الوصف، أو الفعل، بمعنى أن مفعوله محذوف، لأنه معروف، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ ... وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ [البقرة: 102]، وكما قال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: 161].

لكن مفعول هذا الفعل المسكوت عنه، في سياقات تشنيع عام، يظهر في سياقات تشنيع خاص، تستدعي ظهوره، فيدخل جملة الكفر مرفقاً بحرف الجر (الباء)، فيتحدد موضوع الكفر (أي مفعوله)، وهو الله تعالى ورسوله، كما قال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: 54]، كما قال: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ﴾ [الأنفال: 52].

واليوم الآخر، كما قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ [الكهف: 105].

ولم يأت فعل الكفر متعدياً مباشرة (أي بدون الحاجة إلى حرف الجر الباء)، إلا في سياق تشنيع، بقومي عاد وثمود، في آيتين من سورة هود، ومفعوله لفظ الرب: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: 60]، ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ﴾ [هود: 68].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 120 06/12/2016 22:29:20

يدخل الكفر في سياقات شتى، لتوصيف حال وسلوك من لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ، وسنحاول في هذه العجالة، استعراض نظائرَ، تمثل أهم سياقات التشنيع بالكفر، وما يرافقه من وعيد للكافرين بالهلاك في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

يُلفت النظر في هذه السياقات أولاً، عمومية هذا التشنيع بالكفر، نأخذ على ذلك مثل تواردات لفظ الجنس (الإنسان)، فمن بين عدة أوصاف سوء، وُصِفَ بها هذا الإنسان في القرآن، نجد أن وصفه بالكفر الشديد كان غالباً على غيره من الأوصاف، ولاسيما في صيغتي مبالغة اسم فاعل الكفر: (كَفُور) 6 مرات و(كَفَّارٌ) مرتين: ﴿إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: 9]، ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ [الإسراء: 67]، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: 66]، ﴿فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: 48]، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: 15]، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]، ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: 24].

كما جاءت كثرة الكفر في صيغة مصدرية خاصة، تدل على كثرة ميل الناس إلى الكفر: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ [الإسراء: 89] [الإسراء: 99] [الفرقان: 50].

وكان الإنسان في كُفُورِهِ هذا تابعاً، للشيطان الكَفور: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ [الإسراء: 27].

وتمثلت بداية كفر الشيطان (إبليس)، في امتناعه عن امتثال أمر ربه، له وللملائكة، بالسجود لآدم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 121 06/12/2016 22:29:20

لمعرفة سبب عدم حبه تعالى للكافرين، سنستعرض مجموعتين من الآيات، تدخلان في سياقين اثنين، يظهران حقيقة الكفر، أولهما : سياق تظهر فيه نقائض الكفر، وثانيهما : سياق تظهر فيه ردائف الكفر، بمعنى، أننا سنحاول معرفة واقع الكفر، من خلال إبراز علاقات تعاضده، مع صفات السوء وكذلك علاقات تناقضه، مع صفات الخير.

نَقَائضُ الكُفر (الجحود والنكران)

تعريف مفهوم ما بنقيضه، قد يكون أسهل من تعريفه ببيان ماهيَّته، وقد جاء الكفر نقيضاً لعدة فضائل أعمال، وعلى رأسها الإيمان، والشكر، والإسلام، والتقوى.

الكُفرُ نقيضاً للإيمان

يمكن لأي قارئ متنبِّهٍ للقرآن، أن يلاحظ دون عناء، أن الكفر نقيض للايمان، لكثرة السياقات والأنساق، التي أقام فيها الكفر علاقة تجاور وتناقض مع الإيمان، ولا نستطيع استعراض جميع المواضع، التي رصدنا فيها هذه الحالة، لذلك نكتفي بعرض عينات منها، بيّنة البداهة، لا تخطئها العين، فهذه آية سورة الأنفال، تعرف الذين كفروا بأنهم لا يؤمنون، في سياق تشنيع بهم : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال : 55]. ورد في القرآن (الدواب) جمعاً، وورد لفظ (دابة) مفرداً، ومعناها : كل ما يدب على الأرض، ذكراً كان أو أنثى، عاقلاً كان أو غير عاقل.

وحالهم لا يختلف كثيراً عن حال بعض أهل الكتاب، الذين تكرر التشنيع بكفرهم مرتين، على أنه انعدام إيمان بالقلَّة : ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء : 46]، ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 122 06/12/2016 22:29:20

عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء : 155].

كما تكرر كذلك ذكر كفر المشركين من أهل مكة، على أنه ميلٌ للباطل، وإعراض عن الهدى، الذي هو نعمة من الله أنعم بها عليهم، ليُسهِّل لهم النجاة من عذابه﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل : 72]، ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت : 67].

كما اتخذت علاقة التناقض بين الكفر والإيمان، شكل مقابلة تعارض، بين مصير من آمَنَ، ومصير من كفر، ثواباً وعقاباً، وقد تكرر ذكر هذا النوع من المقابلة مرات عديدة، وقد جاءت مختصرة في نسيج الآية الواحدة، كما جاءت مفصَّلة في آيتين متجاورتين.

مقابلةٌ بين الذين كَفَرُوا والذين آمنوا في آيةٍ واحدةٍ

مع الفعل : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف : 29]، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة : 253].

مع الصفة : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً﴾ [البقرة : 26]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد : 3].

في آيتين مُتجاورتين

﴿وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة : 9-10]، ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة : 124-125].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 123 06/12/2016 22:29:20

الكُفرُ نقيضاً للإسلام

وجاء الكفر نقيضاً للاسلام، في عدد قليل من الآيات، منها : ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : 80]، ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر : 2].

الكُفرُ نقيضاً للشُّكر

وجاء الكفر، في عدد لابأس به من الآيات، نقيضاً للشكر، وهذا التناقض ناشئ، لأنَّ جوهر الكفر تغطيةٌ، ولأن جوهر الشكر إظهار وإبراز، ولاسيما إذا انطلقنا من كون ما أنزل الله تعالى من هدى، هو نعمةٌ أكَّد القرآن على كونها كذلك على الدوام، لذلك، كان طبيعياً مجيء الشكر والكفر نقيضين، في مقام هدي السبيل : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان : 3]، أو في مقام ذكره تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة : 152]، أو في مقام زيادة نعمته تعالى مقابل الشكر، وعذابه الشديد مقابل الكفر : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم : 7].

ومهم في بحثنا هذا، معرفة عدم رضاه تعالى، عمن كفره (بلغة الاستغناء)، مقابل رضاه عن شكر مَنْ شكره : ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر : 7].

الكُفرُ نقيضاً للتَّقوى

وجاء الكفر نقيضاً للتقوى، في سياق وصية الله للناس في كتبه، التي أنزلها بتقوى الله، فكان طبيعياً ذكر استغنائه تعالى عمن كفره، في هذا المقام كذلك : ﴿وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 124 06/12/2016 22:29:20

الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً﴾ [النساء: 131].

وجاء الكفر مرةً ثانيةً، نقيضاً للتقوى، في آية سورة الرعد، في مقام يهم بحثنا، وهو عقبى الكافرين الذي مصيرهم إلى النار، مقابل الجنة عقبى الذين اتقوا: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: 35].

أُسرةُ الكُفر

كما يمكن تعريف صفةٍ أو حالةٍ ما، بالنظر إلى تصاريفها في النص، ولعلَّ أقرب توصيف للكفر، يكمن في سياقات آيات، يتماهى فيها الكفر مع غيره من صفات السوء، وهي إحدى عشرة صفة، على رأسها الظلم، ثم الشرك، فالضلال، فالصد عن سبيل الله، فالتكذيب (والكذب)، فالفساد، والبغي، والفسق، والاستكبار (والخيلاء والفخر)، والنفاق، والإجرام، وقد أقام الكفر معها علاقات تعاضد، أتاح لنا اكتشافَها كثرةُ توارد الكفر في سياقاتها، ومن الطبيعي إعلانه تعالى أربع مرات، عن عدم حبه للكافرين: ﴿فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 32]، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [الروم: 45]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: 38]، ﴿وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 276].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 125 06/12/2016 22:29:20

﴿وَاللّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

أعلن تعالى عدم حبه للظالمين ثلاث مرات في القرآن، في خواتيم آيتين من سورة آل عمران وسورة الشورى، وذلك في ثلاثة سياقات :

أولها : بيان جزاء الأعمال (الصالحة) في الآية الأولى من سورة آل عمران : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران : 57].

ثانيها : الحض على العفو في آية سورة الشورى : ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى : 40].

ثالثها : الحث على الصبر في الآية الثانية من سورة آل عمران : ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران : 140].

والظاء واللام والميم (ظلم) أصل صحيح في اللسان العربي، وهو من المفردات كثيرة التوارد في القرآن، حيث وردت مشتقاته، اسم فاعل (صفة)، وفعلاً، ومصدراً، في 271 مئتين وواحد وسبعين موضعاً من التنزيل الحكيم، يضاف إليها أربعة وعشرون موضعاً للظلمات، وما تعلق بها، أي بما مجموعه 295 موضعاً، ونلاحظ في تواردات الظلم، غلبة خفيفة لتواردات اسم فاعل الظلم بـ 134 تواردا (الظالمين، وظالمين، وظالم، وظالمة)، مقابل 119 تواردا لفعل الظلم، و 19 تواردا لمصدره (ظُلْم).

وكما أشرنا سريعاً أعلاه، فإن لـ (الظلم) أصلين، حسب ابن فارس : هما أصلانِ صحيحانِ، أحدهما خلافُ الضِّياء والنور، والآخر وَضْع الشَّيءِ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 126 06/12/2016 22:29:20

في غير موضعه تعدِّياً، فالأوَّل (الظُّلْمة)، والجمع (ظلمات)، والأصل الآخَر (الظُلم) ظلَمَه يظلِمُه ظُلْماً[1].

يهمنا الأصل الثاني، الذي نميل إلى اعتباره، هو الأصل الفعلي، وهو وضع الشيء في غير موضعه تعدياً، ولعل الأهم في هذا التعريف، هو تفسيره وضع الشيء في غير موضعه، على أنه تعدٍّ، فيقترب بذلك من معنى عام، هو بمثابة قاسم مشترك لكثير من صفات السوء، وهو تجاوز الحد المعروف والمألوف في وضع الأشياء نظراً وعملاً، ومما يدفعنا إلى اعتبار أصلي ابن فارس أصلاً واحداً، هو نحت (الظُلمة) التي تظهر وكأنها مؤنث (الظلم)، حيث تتضمن الظلمة زيادة تاء التأنيث، ويستدعي هذا الجناس اللفظي تجانساً دلالياً، حيث تعني (الظلمة) تجاوز حد يؤدي، ليس إلى نقصان الشيء المُتعدَّى عليه وحسب، وإنما إلى محوه أحياناً، كما تبينه آية سورة الإسراء، في وصف آية الليل، مقارنة مع آية النهار : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: 12].

ولعل في آية الجنتين، من سورة الكهف، ما يؤيد معنى النقصان هذا، حيث يُفهم من عدم ظلم الجنَّتين مِنْ أُكُلِهِمَا، هو عدم نقصانه : ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَراً﴾ [الكهف: 33].

ولا تختلف صورة نفي إلباس الإيمان بِظُلم، في آية سورة الأنعام، عن مثيلتها آية سورة الكهف، من جانب اعتبار الظلم فيها نقصاً في الإيمان : ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82].

1. معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ج 3 ص 468).

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 127 06/12/2016 22:29:21

ومن المهم ملاحظة الفارق الكبير بين تعاريف الكلمات، في المعاجم، وتصاريفها في القرآن، ولعل عجب قارئ القرآن، ينتهي إلى إعجاب في كل مرة، يدرك فيها لماذا يحكم تعالى في كتابه العزيز، على كثير من الأعمال السيئة، بأنها ظُلمٌ، شريطة محافظته على الإمساك بهذا الخيط الدقيق، الواصل بين أصل معنى التجاوز، وبين ما يحمله كل تصريف للظلم، من خصوصية دلالية في عشرات الآيات القرآنية.

واستكمالاً لهذه الملاحظة الهامة، نشير إلى خاصية من خواص تصاريف الظلم في القرآن، تتمثل في غلبة التوصيف على تواردات اسم فاعل الظلم، وفعله، بغرض التشنيع بنوع من الناس، يتسم سلوكهم بهذا التعدي، والتجاوز لحد الأشياء، فمن أصل 134 تواردا لاسم فاعل الظلم، ذُكِرَ الظالمون مُعرَّفين بـ (ال) للتعريف 116 مرة، وهذه عينات منها، تشير إلى سوء تفكير وسلوك الظالمين : ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام : 52]، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون : 41]، ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص : 40].

ومن أصل 85 مرة، أُسند فيها فعل الظلم، إلى الناس مثبتاً، كذلك ذُكر هؤلاء (الظالمون)، بأنهم (الذين ظَلَمُوا) 31 مرة، وهذه عينات منها، يغلب عليها ما يغلب على تصاريف الظلم، في القرآن من نذير، ووعيد : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف : 12]. ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود : 37][المؤمنون : 27]، ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات : 22].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 128 06/12/2016 22:29:21

أي بما مجموعه 147 مرة، من أصل 271 مرة، وذلك مقابل 256 تواردا، لصيغ توصيف الكافرين الثلاث.

وعليه يأتي الظلم ثانياً، من جهة تواتره، بعد الكفر، في توصيف غير المؤمنين.

وسنحاول في هذه الدراسة، تتبع سياقات التشنيع بالظلم في القرآن، تحذيراً للظالمين، من سوء عاقبة تجاوزهم، ما هو معروف مألوف لدى البشر، إنَّ تجاوزهم هذا، هو ظلم لأنفسهم، قبل أن يكون ظلماً تجاه ربهم، وتجاه الناس، كما توضح ذلك وتؤكده صيغ ظلم النفس، التي تكررت 29 مرة في القرآن، وهذا مقصدٌ، سنؤكد عليه خلال هذا البحث، الذي يهدف إلى معرفة لماذا لا يحب تعالى الظالمين.

لنتابع في البداية بعض تواردات الظلم، القريبة جداً من أصل دلالته على التعدي، وذلك في خواتيم آيات، تحكم على مقترفي أعمال سيئة معينة، بأنهم ظالمون حكماً صريحاً، ونعتبر هذه الأحكام، بمثابة تعاريف عملية للظلم، ولاسيما أن تُتَّخذَ نسقياً صيغة حكم صريح واضح، مثل هذه الخاتمة التي تكررت في القرآن سبع مرات : ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ومن الآيات التي ظهرت فيها هذه الخاتمة، آية سورة آل عمران، التي تشنِّع بمفتري الكذب على الله، بتحريفهم ما أنزل، وتَعدُّهم ظالمين، لكون افترائهم هذا تعدياً على حقه تعالى، في التفرد بالتشريع : ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: 94].

ومن هذه الآيات كذلك، آية سورة البقرة التي تَعدُّ أخذ الزوج المُطَلِّق شيئاً من مهر مُطَلَّقته، ليس تعدياً على حق المرأة وحسب، بل تعدياً لحدود الله : ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 129 06/12/2016 22:29:21

تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 229].

ومن هذه الآيات أخيراً آية سورة الحجرات، التي تنهى عن التنابز بالألقاب، معتبرة إياه فسوقاً بعد الإيمان، وأصحابه ظالمين، لانتقاصهم من كرامة غيرهم، وبالتالي فهو تعدٍّ : ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: 11].

أُسرةُ الظُّلم

لننتقل الآن : إلى تعريف الظلم، عن طريق كشف علاقاته مع صفات السوء، وقد مكننا تتبّع تصاريف الظلم في القرآن، من رصد إحدى عشرة علاقة، يقيمها الظلم مع صفات السوء، المشنَّع بها، وأول وأكثر علاقاته تواتراً، هي مع الكفر، تلي هذه العلاقة علاقات قوية مع الكذب، والشرك، والمعصية، ثم في الدرجة الثالثة، علاقات ظرفية مع كل من الفسق، والضلال، والعلو، والإجرام والترف والفساد وعمل السوء :

1) الظُلمُ والكَذبُ

نركز في هذه العلاقة بين الظلم والكذب، على صيغ افتراء الكذب، التي يشغل بعضها بدايات ونهايات عدد لا بأس به من الآيات، وقد اخترنا منها ما صُدِّر بالتشنيع بالظلم بصيغة : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً﴾ التي تكررت تسع مرات في القرآن، ترافقها عدة خواتيم آيات، تشنع هي الأخرى بالظلم.

من هذه الآيات آية سورة هود، التي تشنع مرتين بظلم مفتري الكذب،

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 130 06/12/2016 22:29:21

على أنهم كاذبون على الله، وبالتالي ظالمون عليهم لعنة الله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أُوْلَـئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَـؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود : 18].

وكذلك كان الحال في آية سورة الأنعام، التي صُدِّرت بالتشنيع بظلم افتراء الكذب على الله، واختتمت بالحكم بعدم فلاح الظالمين : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام : 21].

وتمثل آية سورة الصف ثالثَ مثالٍ على علاقة الظلم بالكذب، من جهة تصديرها بالتشنيع بظلم افتراء الكذب على الله، لكن مع اختتامها بإعلان حرمان الظالمين من هدايته تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف : 7].

2) الظُلمُ والشِّركُ

والشرك من أعمال السوء التي عُدّت ظلماً، في عدد من الآيات، اخترنا منها آية لقمان المنيرة، التي نهى فيها لقمان ابنه عن الشرك بالله، لأنّه ظلم عظيم : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : 13].

وظلم الشرك هذا، الذي جاء بلغة دعاء (أي عبادة) ما لا ينفع، ولا يضرُّ، تؤكده آية سورة يونس، في صيغة حكم على فاعله، بأنه من فئة الظالمين، ولا يخفى منطق هذا الحكم المؤكد في آيات كثيرة، بأنه تعالى هو وحده، القادر على النفع والضُرِّ، وبالتالي فإن عبادة من لا يملك هذه القدرة من دونه، هو انتقاص من قدره تعالى : ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس : 106].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 131 06/12/2016 22:29:21

وبنو إسرائيل وقعوا في هذا الظلم، باتخاذهم العجل مباشرة، بعد أن نجاهم الله من فرعون وقومه، وقد تكرر اعتبارهم ظالمين بهذا الاتخاذ، أكثر من مرة، ولاسيما في سورة البقرة ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: 51][البقرة: 92].

3-4) ظُلمٌ وأهواءٌ وضلالٌ

وتكشف لنا آية سورة الروم، جوانب أخرى في الظلم، وهي: أنه ناشئ عن ميل عام لدى الإنسان، إلى اتباع هواه، وبالتالي فهو ضلال، يجعله يبتعد عن الحق والحقيقة: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم: 29].

5) ظُلمٌ وبغيٌ

ومن خصوصيات آية سورة الشورى، إقامتها علاقة بين الظلم والبغي، وتفردها بالتشنيع بظلم الناس صراحة، بما يقوي من حضور التعدي والتجاوز في عمل الظالمين، وهم الذين تجب مؤاخذتهم، بلغة السبيل، على أعمالهم: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 42].

6) ظُلمٌ وترفٌ وإجرامٌ

وتقيم آية سورة هود علاقة تجاور بين الظلم والإجرام، سببها الترف الذي يشجع الظالمين على سلوك سبيل الظلم، والإجرام: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116].

7-8) ظُلمٌ وعُلُوٌّ وفسادٌ

وتقيم آية سورة النمل علاقة تجاور بين الظلم والعلو، يضاف إليها

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 132 06/12/2016 22:29:21

الفساد في خاتمتها، وذلك من أجل إبراز واقع التعدي الذي يدل عليه جحود قوم فرعون الفاسقين، الذي تم تصدير الآية به : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل : 14].

9) ظُلمٌ وفسقٌ

لعل من خصوصيات تكرار واقعة تبديل فريقٍ من بني إسرائيل، قولاً غير الذي قيل لهم مرتين في القرآن، إقامة علاقة تبادل بين الظلم والفسق، بفضل ظهور الفسق في خاتمة آية سورة البقرة، محل الظلم في خاتمة آية سورة الأعراف، لنلاحظ أولاً التشابه الكبير بين آيتي الأعراف المكية وآيتي البقرة المدنية : ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف : 161-162]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة : 58-59].

ثم لنلاحظ ثمرة الاختلاف اليسير، بين خاتمتي الآية 162 من سورة الأعراف، والآية 59 من سورة البقرة، الذي سمح بحلول الفسق محل الظلم، والذي يسوّغه انتماؤهما إلى أسرة السوء نفسها، بالإضافة إلى تكرار (الذين ظَلَمُوا) مرتين في آية سورة البقرة، الذي لم يحصل في آية سورة الأعراف : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾، ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

إن تبادل الظلم والفسق الدور نفسه، في تسويغ إرسال رجزٍ من السماء،

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 133 06/12/2016 22:29:21

على مبدلي القول أو إنزاله، وشغلهما المكان نفسه، من خاتمة الآيتين، لَيُعزّز من تقارب معنيي الظلم والفسق فيهما.

10) الظُّلم وعملُ السُّوء (تعاريفٌ عمليةٌ للظُّلم)

تقيم بدايات الآيات الثلاث أدناه، علاقة تعاضد بين الظلم وعمل السوء، وتتميز بكونها بمثابة تعاريف عملية للظلم، جاءت في سياق يغلب عليه مقصد التوبة إلى الله، المعبَّرِ عنها بلغة الاستغفار (في آية سورة النساء)، ثم بلغة تبديل السوء بالحسن (في آية سورة النمل)، وأخيرا بلغة التوبة والإصلاح (في آية سورة المائدة)، وتشترك خواتيم هذه الآيات، بالتأكيد على قبوله تعالى هذه التوبة بلغة مغفرته، ورحمته.

ويهمنا في آية سورة النساء، تعريف ظلم النفس، على أنه عمل سوء، بفضل حرف العطف (أو) : ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء: 110].

ويهمنا في آية سورة النمل، تعريف الظلم، على أنه سوء، جاء لاحقاً لنقيض الحُسن، أي الحُسْن الذي جاء مفعولًا لفعل التبديل، جاء تعريف الظلم هنا برديفه ونقيضه : ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: 11].

ويهمنا في آية سورة النساء، تعريف الظلم بنقيضين له، هما : التوبة والإصلاح، وهي من الآيات القليلة التي تُعرِّف الظلم بنقيضه سياقاً، ونسقاً : ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: 39].

11) الظُّلمُ والمعصيةُ

وتذكرنا هذه التعاريف العملية للظلم، بمعصية أوامر الله على أنها ظلم

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 134 06/12/2016 22:29:21

كذلك، كما تؤكده خاتمتا آيتين من البقرة والأعراف، بحق آدم وزوجه، فقد نهاهما عن الأكل من الشجرة، بلغة الاقتراب : ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾ [البقرة : 35] [الأعراف : 19]، فكان عدم التزامهما هذا النهي ظلماً، أي معصيةً، بدليل قوله تعالى في سورة طه : ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه : 121].

لكن آدم وزوجه أقرّا بهذه المعصية بلغة ظلم النفس : ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف : 23].

الظُّلم ظُلمٌ للنَّفْس

هنا نصل إلى بيت القصيد في تعريف الظلم عموماً في القرآن، بأنه في مؤداه وعاقبته ظلم للنفس، حتى ولو كان ظلماً للغير، إنه هو مهلكة لصاحبه في الدنيا، وخسارة له في الآخرة، وهذا ما سنلاحظه في استعراض بعض عيّناتٍ من 29 آية، صُرِّح فيها بأن الظلم في الواقع ظلم للنفس.

فإذا عَدّت الآية 229 من سورة البقرة، آخِذَ شيء من مهر مطلقته ظالماً بتعديه حدود الله : ﴿وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً ... تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة : 229]، فإن أول آية من سورة الطلاق تعدّ تعديَ حدود الله ظلماً من الظالم لنفسه : ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق : 1].

ولنلاحظ في آية سورة الكهف، كيف شُنِّع بتكبر صاحب الجنتين على أنه ظلم لنفسه، وتقدم لنا خاتمة الآية صورة عن هذا التكبر – الظلم – بنفيه إمكانية فناء جنته : ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾ [الكهف : 35].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 135 06/12/2016 22:29:21

ولنلاحظ كذلك كيف نهى القرآن، عن النسيء (أي التلاعب في عدة الأشهر الحرم، التي يحرم فيها الصيد بما يناسب هوى المشركين)، معتبرةً إياه ظلماً للنفس، لأنه يمثل تعدياً على سنن الله الثابتة في الخلق، بإحلاله أهواء الناس محلها : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة : 36].

نفيُ الظُّلم عنه تعالى وإثباتُ ظُلمِ النَّاس لأنفُسهم

واللافت جداً في تواردات ظلم النفس، صيغة خواتيم، يترافق فيها نفي ظلمه تعالى لعباده، مع إثبات ظلمهم لأنفسهم 9 مرات من أصل 29 مرة لتواردات ظلم النفس، ومن خصوصيات الآيات التي وردت فيها هذه الصيغة – الخاتمة – حلولُ ظلمهم أنفسَهُم، محلَّ كفرهم وتكذيبهم واستهزائهم المسكوت عنه فيها، والمذكور في آيات أخرى : ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل : 33]، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم : 9]، ﴿فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت : 40].

سياقاتُ نفيهِ تعالى ظُلمهُ لعباده

ولم يقتصر نفي ظلمه تعالى لعباده على هذه الصيغة المركبة، حيث يمكننا رصده في صيغ أخرى حاضرة في الـ 34 تواردا لهذا النفي في القرآن، ويمكن العثور على هذه الصيغ في سياقين اثنين : سياق إهلاك الأقوام

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 136 06/12/2016 22:29:21

الظالمة في الحياة الدنيا، وسياق الحساب يوم القيامة، والغالب من تواردات نفي الظلم عنه تعالى، هو في السياق الثاني.

سياقُ إهلاك الأقوام الظَّالمة : ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ﴾

بخصوص سياق الإهلاك في الدنيا، نلاحظ غلبة خطاب العموم، حيث تؤكد الآية من سورة غافر، خوف مؤمن آل فرعون، من أن يصيب قوم فرعون ما أصاب من قبلهم من الأقوام الهالكين، والمهم اختتام الآية بتأكيد عدم إرادته تعالى ظلم العباد، وإنما معاقبة ما دأبوا عليه من كفر، وتكذيب، وظلم : ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: 31].

وبلغة العموم نفسها، تؤكد آية سورة الأنعام، استحالة إهلاكه تعالى قوماً لم يأتهم نذير : ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: 131]، والاستحالة نفسها تقررها آية سورة هود، بخصوص أقوام مصلحين : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117]، وعليه فالإهلاك حتماً وحصراً نتيجة ظلم من ظلم من الأقوام : ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً﴾ [الكهف: 59].

سياقُ الحساب بدون ظُلمٍ يوم القيامة : ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾

وبخصوص سياق حساب الأعمال يوم القيامة، نلاحظ حشد عديد من صيغ نفي الظلم عنه تعالى، كل لغات النفي قد اجتمعت من أجل تأكيد انتفاء ظلمه تعالى، وهذه آيات تشتمل على نفي مطلق لظلمه تعالى.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 137 06/12/2016 22:29:21

نفيٌ للظُّلم بلغة الشَّيء (ثلاث مراتٍ)

ورد نفي ظلمه تعالى بلغة الشيء في ثلاث سور : ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾ [يونس : 44]، ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ [يس : 54]، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ [مريم : 60].

نفيٌ للظُّلم بلغة الفَتيل أو النَّقير

واختصت سورتا النساء والإسراء بنفي الظلم بلغة الفتيل ثلاث مرات : ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء : 49]، ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [الإسراء : 71]، ﴿وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء : 77]، ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ [النساء : 124].

نفيٌ للظُّلم بلغة الجزاء

وبلغة الجزاء بمقدار الكسب ينتفي الظلم مع (لا) النافية لجنس الظلم :﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر : 17]، وتتأكد لغة الجزاء على قدر الكسب، مع صيغة : ﴿وهم لا يظلمون﴾ المتكررة كخاتمة آيات في القرآن 11 مرة : ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية : 22].

الظُّلم بمعنى الهَضم

واللافت في آية سورة طه، نفي الظلم مع نفي قريبه الهضم، في تعريف جديد للظلم بأنه تعدٍّ بلغة الهضم : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً﴾ [طه : 112].

نقيضانِ للظُّلم : القِسْطُ والحَقُّ

ويظهر في تواردات نفي الظلم نقيضان للظلم، هما : القسط ثلاث

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 138 06/12/2016 22:29:22

مرات، والحق مرة مثبتين، مع نفي مؤكد للظلم، وبذلك يُعرَّف الظلم على أنه نقيض للقسط والحق.

الظُّلمُ نقيضاً للقِسْط

جاء الظلم نقيضاً للقسط في آية من سورة الأنبياء، في سياق وزن أعمال العباد: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ [الأنبياء: 47]، وفي خاتمة آيتين من سورة يونس، بالصيغة نفسها، في سياق القضاء بين الناس، فيما هم فيه يختلفون: ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 47][يونس: 54].

الظُّلمُ نقيضاً للحقِّ

وتميزت سورة الزمر، بورود صيغة هذه الخاتمة نفسها فيها، مع تبديل واحد يتمثل في إحلال الحق محل القسط، الذي هو جوهر القسط: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: 69]، ويدخل في هذا السياق آية سورة المؤمنين، التي تؤكد على الحقّ الذي ينطق به كتاب أعمال العباد يوم القيامة: ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: 62].

تشنيعُ وعيدٍ بحقِّ الظَّالمين

أمام هذا النفي القاطع لظلمه تعالى عباده، كان منطقياً إعلانه تعالى عدم حبه للظالمين، وتشنيعه بهم، كما فعل ذلك بحق الكافرين، نستعرض في إجمال بعض صيغ الوعيد بالإهلاك في الدنيا، والعذاب في الآخرة، التي خُصَّ بها الظالمون أكثر من غيرهم، وهي في معظمها خواتيم آيات.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 139 06/12/2016 22:29:22

صيغُ الإهلاك

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 47]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: 13]، ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: 59].

صيغُ الأَخْذ

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود: 102]، ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: 113]، ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 14].

صيغة ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: 192]، ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: 72]، ﴿وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: 37].

صيغة ﴿وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

في خاتمة الآية هذه الواردة في سورتين، يؤكد القرآن عجز أهل الكتاب عن تمني الموت، الذي طلبه منهم تعالى تصديقاً لادعائهم، أنهم أبناؤه وأحباؤه، وسبب هذا العجز، هو سوء عملهم الذي عُبِّر عنه بلغة الظلم: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً﴾ [البقرة: 95]، ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: 7]، ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 58].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 140 06/12/2016 22:29:22

تلك كانت بعض صيغ وسياقات التشنيع بالظلم في القرآن، التي تتماشى مع إعلانه تعالى عدم حبه للظالمين.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 141 06/12/2016 22:29:22

من ثوابت القرآن الكريم (3)

﴿إِنَّ اللّهَ لا يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾

أعلن تعالى عدم حبه للمعتدين في ثلاث خواتيم آيات، جاءت في ثلاثة سياقات :

1) سياق أمر بمقاتلة من يقاتلون المسلمين، مع نهي عن المبادرة بالقتال، واعتبار هذه المبادرة اعتداء : ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة : 190].

2) سياق نهي عن تحريم الطيبات التي أحلها تعالى، واعتبار هذا التحريم اعتداء، ويتأكد هذا النهي بأمره تعالى لنا بأكل الحلال الطيب : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ [المائدة : 87-88].

3) سياق أمر بالتضرع والخفية في الدعاء، دون اعتداء فيه، يتضمن مسكوتاً عنه، هو نهي عن الجهر بالصوت فيها استكباراً : ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف : 55].

والاعتداء : من (العَدوِ والعدوان)، كما يظهر من استعمال فعليهما في الآيات الثلاث التالية، فقد جاء هذا العدوان بلغة الاعتداء في آية سورة البقرة : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة : 65]، ولكنه جاء مرتين، بلغة العدو والعدوان في آيتي الأعراف المكية : ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف : 163]، والنساء

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 142 06/12/2016 22:29:22

المدنية : ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾ [النساء : 154].

والعين والدال والواو (ع د و) أصل ناقص في اللسان العربي، ورد في القرآن الكريم في تصريفين رئيسين اثنين :

أولهما وأكثرهما تواردا : ثلاثي أصل (من عَدَوَ) بما مجموعه 65 توارداً، ويغلب على تورداته اسم (عَدُوٌّ) 37 مرة، وجمعه أعداء 6 مرات، يضاف إليه توارد واحد لفعل (عادى)، يقابلها 20 توارداً لأسرة (عدا) بمعنى اعتدى 3 تواردات للفعل، و 8 تواردات لمصدره الأول (عدوان)، وتواردان لمصدره الثاني (عَدْو)، و 7 تواردات لأسماء فاعله (عادٍ)، وعادون 3 مرات، وعاديات مرة واحدة.

ثانيهما : تصريف مزيد خماسي ورد في القرآن 27 مرة، وتَمَثَّلَ في فعل (اعتدى/يعتدي) 15 مرة، واسم فاعله (معتدون ومعتدٍ) 9 مرات، وفعل (تعدى) 3 مرات.

وبالتالي فإن مجموع تواردات هذين التصريفين هو 91 توارداً، ولكن القاسم المشترك بين هذين التصريفين، هو دلالة الـ 20 توارداً لفعل (عدا) ومشتقاته، التي ينبغي ضَمُّها إلى الـ 27 توارداً، لتصريف فعلي الاعتداء والتعدي واسم فاعل الاعتداء، أي بما مجموعه 47 توارداً، تحمل جميعاً شحنة (تجاوز الحد)، التي هي أصل معنى (العدو والعدوان والاعتداء والتعدي)، كما ذكر ذلك ابن فارس في مادة (عدو)، وكان لافتاً نقله ما تعارف عليه القوم، من اعتبار كل من العداء (صفة العدو)، والاعتداء والتعدي والعدوان (ظلماً صراحاً)، يربط بحث (الاعتداء) بسابقه بحث (الظلم)، لنقرأ ما نقله ابن فارس في مقاييسه : (عدو) العين والدال والحرف

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 143 06/12/2016 22:29:22

المعتل أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يُرجع إليه الفروعَ كلّها، وهو يدلُّ على (تجاوُزٍ في الشيء وتقدُّمٍ لما ينبغي أن يقتصر عليه)، و(العادي) : الذي (يعدو على الناس ظُلْماً وعُدواناً)، ومنه (العُدْوان)، وكذلك العَدَاء، والاعتداء، والتعدِّي والعُدْوان : (الظلم الصُّراح)[1].

ورغم صحة هذا التعريف، إلا أننا سنرى من خلال استعراض تصاريف العدو والعدوان والاعتداء والتعدي في القرآن، مدى الفارق بين تعاريف المعاجم للكلمات، وتصاريفها في القرآن، ولاسيما من خلال علاقات التعاضد، التي تقيمها ألفاظ العدوان والاعتداء والتعدي، مع صفات السوء الأخرى في مختلف السياقات التي تواردت فيها.

العَدْوُ والجهلُ وانعدامُ العلم

لنبدأ بتصاريف (العَدْو) الذي لم يرد سوى مرتين في القرآن، إحداهما في آية سورة الأنعام، التي تنهى المؤمنين عن سب آلهة المشركين، فتقيم بنهيها هذا (علاقة تعاضد بين العدو وانعدام العلم)، لدى هؤلاء الذين لن يترددوا في سبّه تعالى دفاعاً عن آلهتهم : ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108].

العَدْوُ والبغيُ

وفي ثاني تصاريف العدو، تقيم آية سورة يونس (علاقة تجاور وتلازم بين العدو والبغي)، من خلال سرد واقعة مطاردة فرعون وجنوده، لبني إسرائيل اجتيازهم البحر : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً﴾ [يونس: 90].

1. معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ج 4 ص 249).

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 144 06/12/2016 22:29:22

وتأكدت علاقة التلازم هذه بين العدو والبغي، من خلال تلازم توارد اسمي فاعلي البغي والعدو (أو العدوان)، في خاتمة تكررت في ثلاث آيات : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾، وتتضمن استثناء بالاضطرار من قائمة محرمات الطعام، تكررت صياغتها هي الأخرى مرات، كما هي في سورتي النحل والبقرة : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 115]، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 173].

﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

وإذا كان لابد من الابتداء بالعداء كأصل للعدوان، فإن من المفيد جداً التنويه، بأن (ثلث) تواردات عَدُوٍّ في القرآن تخص (الشيطان) : 12 مرة، من أصل 37 تواردا، وجاء وصفه بـ (العدو المبين) في ثمان منها، وهي خواتيم آيات، نأخذ منها خمس عينات، تمثل في عمومها سياقات قرآنية ثابتة : ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: 117]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: 168]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: 208]، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: 6]، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: 60].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 145 06/12/2016 22:29:22

الإثمُ والعُدوانُ

ننتقل الآن إلى دراسة (علاقة تلازم بين العدوان والإثم)، رصدناها في أربع آيات منيرة، تشنع بسوء سلوك بعض بني إسرائيل، والمنافقين المخالطين للمسلمين، ومن اللافت ظهور هذه العلاقة الثنائية في سور مدنية، ولاسيما في سورة البقرة في سياق التشنيع، بنقض فريق من بني إسرائيل ميثاقهم مع الله، الوارد نصه في الآية رقم 84 من سورة البقرة : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: 84]، فتأتي الآية رقم 85 بعدها، لتبرز لنا فعل هؤلاء ما نهوا عنه فيه، من قتل فريق منهم بعضهم بعضاً، وإخراجهم من ديارهم، وسمّى القرآن فعلهم هذا، بأنه تظاهر بالإثم والعدوان على إخوانهم : ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [البقرة: 85]، وبرز الإثم والعدوان مترافقين مرة ثانية، في آية سورة المائدة، تشنع بمسارعة فريق، من بني إسرائيل ومن المنافقين فيهما، ناهيك عن أكلهم السحت : ﴿وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: 62].

وعلى ذكر المنافقين، فإن آية سورة المجادلة، تبرز مدى سوء طويتهم وهم يتناجون ليس بالإثم والعدوان وحسب، وإنما بمعصية الرسول كذلك، وهذا ما شنعت به آية سورة المجادلة، وهي تصف عداوة المنافقين للمسلمين : ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة: 8]، قبل أن تنهى المؤمنين عن فعل ذلك في الآية التالية : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المجادلة: 9].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 146 06/12/2016 22:29:22

الاعتداءُ والإثمُ في سياق التَّكذيب

نُنهي دراسة (علاقة الاعتداء بالإثم)، بقراءة سريعة لآيات من سورتي القلم والمطففين، برزت فيها هذه العلاقة من خلال اسم فاعل الاعتداء (معتدٍ)، في سياق عام من التشنيع بالمكذبين برسالة الله، والذين من بين صفاتهم السيئة، الاعتداء والإثم، حيث شغل (معتد) و(أثيم) المرتبتين السابعة والثامنة من (قائمة صفات سوء تلازم المكذبين)، كما يظهر من آية سورة القلم : ﴿فلا تُطع المُكذبين وَدُّوا لو تُدْهنُ فَيُدهنون ولَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم: 8-12]، بينما برزا صفتين لازمتين، لكل مكذب بيوم الدين : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ، الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [المطففين: 10-12].

الاعتداءُ والكُفرُ وقتلُ الأنبياء والمعصيةُ

ومن السياقات التي تبرز حقيقة الاعتداء، خاتمة آية من سورة البقرة، تحولت إلى آية في سورة آل عمران، في تشابه بينهما، يصل إلى درجة التطابق، لاسيما من جهة تكشف (علاقة الاعتداء بكل من الكفر والقتل والمعصية)، وكأنه توصيف أو تعريف لها : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: 61]، ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 147 06/12/2016 22:29:22

وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 112].

تعدِّي حدودِ الله

ننتقل الآن إلى ثلاث مجموعات من الآيات، تميزت بظهور فعل التعدي على حدود الله فيها، إلى جانب فعل الاعتداء، ويجمعها سياق عام، من النهي عن تعدي حدود الله، بخصوص مسألتين تشريعيتين، عُني القرآن بتفصيلاتهما، هما: (الطلاق) الذي شغل ثلاث آيات من البقرة (حيث تكرر ذكر حدود الله ست مرات)، وبداية سور الطلاق (حيث ذكرت هذه الحدود مرتين)، ثم (الميراث) الذي شغل آيتين، جاءتا اختتاماً لأحكام الميراث، في بدايات سورة النساء (ذكرت الحدود مرتين)، أي بما مجموعه عشر مرات، من أصل 13 مرة، وردت فيها عبارة حدود الله في القرآن.

أولها: الطلاقُ

ذُكرت حدود الله في ثلاث آيات، من سورة البقرة (229-231)، في نطاق نهي عن ثلاثة تصرفات، تخص الطلاق، أولها: نهي الزوج المُطلق، عن أخذ أي شيء من مهر مطلقته، ومناسبة ذكر حدود الله هنا، هي الخشية من عدم إقامة الزوجين لحدود الله، أي عدم أداء كل منهما واجبه، من حسن المعاملة تجاه الآخر، في فترة الإمساك هذه، وقد ذُكرت إقامة حدود منفية مرتين في الآية رقم 229، على أنها جملةٌ، في محل نصب مفعولاً لفعل الخوف: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

ثم ذُكرت إقامة حدود الله مثبتة هذه المرة، بلغة المظنَّة، في الآية رقم 230 في سياق بيان شرط التراجع، وهو نكاح المطلقة من زوج آخر ثم طلاقها منه: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 148 06/12/2016 22:29:22

ومن اللافت هنا، ورود الإشارة إلى حدود الله بلغة التنبيه (إلى ضرورة إقامتها)، ثم النهي عن الاعتداء عليها، بفعل اعتداءٍ لم يحتج إلى حرف جره المعهود (على)، لتأثره بكيمياء تجاوره وتجانسه، مع فعل التعدي : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوها، وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ﴾.

وأصبحت هذه الحدود مفعولاً به مباشراً، لفعل اعتداء، هيمنت عليها دلالة التجاوز، وذلك بين يدي وعيد، يحذر من عاقبة هذا التعدي، ألا وهي دخول مقترفه، في عداد الظالمين : ﴿وَمَن يَتَعَدّ حُدُودَ اللّه فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وهنا نلحظ قيام (علاقة تجاور، وتعاضد بين الاعتداء، أو التعدي والظلم)، كنا أشرنا إليها في بحث الظلم، وهي علاقة سيتكرر حضورها في الآية رقم 231، التي تؤكد مرة ثانية على ضرورة الإمساك، أو التسريح بمعروف في حال الطلاق، تأكيداً اقتضى اعتبار الإمساك بنية الاعتداء، ليس ظلماً بحق المرأة، وإنما هو ظلم الظالم لنفسه، لنلاحظ هنا حضور التعدي مرتين، في سياق النهي عنه : مرة بلفظه، ومرة بلفظ الفعل، يضاف إليه (لتقويته وتعزيزه) النَّهيُ عن اتخاذ آيات الله هزواً : ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً﴾.

لنقرأ آيات الطلاق الثلاث، متأملين في عظة وعظمة اعتبار انتهاك حقوق المرأة، تعدياً على حدود الله، والسؤال الذي يطرح نفسه هو : لماذا يبقى هذا المنطق القرآني غائباً عن خطابات، من يدافعون عن المرأة ؟ ألا ينبغي أن يكون هذا المنطق حاضراً بوضوح ؟! : ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 149 06/12/2016 22:29:22

فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوها وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُواً﴾ [البقرة: 229-231].

ويتكرر ذكر حدود الله في أول آية من سورة الطلاق، بلغة إشارة، وبلغة وعيد، تذكرنا بالآية رقم 231 من سورة البقرة، وذلك في سياق نهي، عن إخراج المطلقة من بيتها، أو خروجها قبل إتمامها عدتها، وتظهر من جديد، علاقة تجاور وتعاضد بين التعدي والظلم : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: 1].

ثانيها : الميراثُ

وما أُكّد عليه في مسألة (الطلاق)، أُلحّ عليه في مسألة (الميراث)، فبعد عرض وصاياه تعالى، بخصوص حقوق الورثة، تُتوَّج هذه الوصايا بالتأكيد، على كون (حقوق الورثة حدوداً لله)، تنبغي إقامتها، فيؤكد على هذه الحدود بلغة الإشارة نفسها، (أو التنبيه) في الآية رقم 13 من سورة النساء، وبلغة وعيد أكثر صراحة في الآية رقم 14، في حال التعدي عليها، ثمة مقابلة في الآيتين، بين (وعد بالجنة) لمن أطاع الله ورسوله، (بإقامة هذه الحدود) في الآية الأولى، وبين (وعيد بالنار)، لمن عصى الله ورسوله معصيةً فُسِّرت على أنها (تعدٍّ لحدود الله)، بفضل واو العطف، لنقرأ الآيتين، متنبهين إلى

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 150 06/12/2016 22:29:23

عظمة الارتقاء بحقوق العباد إلى مقام حدود الله : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء : 13-14].

لنعد إلى سياقي (نفي حبه تعالى للمعتدين)، وهما في القتال والطعام، وذلك من أجل بيان موجبات هذا النفي.

سياقُ القتال

نلاحظ بخصوص سياق (النهي عن المبادرة بالقتال)، مجيء آية سورة البقرة رقم 190، على رأس خمس آيات، هي من أوائل نظائر الأمر بالقتال، وتتسم جميعاً، بروحية النهي نفسه عن الاعتداء، مع الرد بالمثل على المعتدين، ومع بيان هدف أصل القتال الثابت، أي : في سبيل الله، وتوقّعِ تَوقُّفِ المعتدين عن قتال المسلمين.

لنقرأ أولاً هذه الآيات، ثم لنتحقق من مصداقية هذه المقاصد الأربعة : ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : 190-194].

فأما النهي عن المبادرة بالقتال، فقد تقرر مرتين :

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 151 06/12/2016 22:29:23

أولاً : بلغة النهي عن الاعتداء، في خاتمة الآية الأولى، مرفقاً بإعلان عدم حبه تعالى للمعتدين، أي المبادرين بالقتال : ﴿وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

ثانياً : بلغة النهي عن القتال، عند المسجد الحرام، إلا إذا بادر الكفار بقتالهم فيه : ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾.

وأما الرد بالمثل، فقد تقرر خمس مرات :

وجاء بلغة المماثلة في القتال : ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾.

ثم بلغة المماثلة في الإخراج : ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾.

ثم بلغة القصاص، (أي المعاملة بالمثل)، بخصوص القتال في الأشهر الحرم، انطلاقاً من عمومية القصاص في الحرمات : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾.

ثم بلغة الجزاء عقابا للكافرين : ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴾.

وأخيراً بلغة المماثلة في الاعتداء : ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾.

وأما بيان الهدف، فقد تقرر أربع مرات بلغات متعددة، فبينت حقيقته أولاً، بأنه في سبيل الله : ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾.

ثم باعتبار الفتنة في الدين، أخطر من القتال : ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

ثم بتكرار غايته، وهي درء الفتنة في الدين، في الآية رقم 193 من سورة البقرة : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ﴾، وقد تكررت جملة بداية

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 152 06/12/2016 22:29:23

الآية، هي نفسها، في آية سورة الأنفال رقم 39.

وتأكد أخيراً في ختام هذه الآيات، بالأمر بتقوى الله حتى في القتال، مع إعلان أن الله مع المتقين : ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : 194].

ورغم ذلك الواقع المفروض على المسلمين من القتال، فقد بقيت الفسحة مفتوحة أمام الكافرين، بلغة الانتهاء عنه، مدعمة أولاً بالمغفرة والرحمة : ﴿فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم جاءت بلغة الحصر، أي بجعل العدوان (أي القتال)، محصوراً على الظالمين المبادرين بالقتال : ﴿فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وقد تأكدت بلغة بصره تعالى بعمل الكافرين : ﴿فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال : 39].

ويمكن لمعترض أن يقول : هذه آيات من سورتي البقرة والأنفال، تتضمنان نهياً عن الاعتداء، في بدايات الأمر بالقتال، فماذا عن الاعتداء في سورة التوبة التي تشتمل على أواخر آيات القتال ؟ نجيب من خلال استخراج ثلاث موجبات لبراءته تعالى، من عهود المشركين في الآيات رقم 8-10، هذه الموجبات هي أولاً : عدم مراقبتهم قرابة ولا عهداً، عُقد مع المسلمين، تُرجع الآية الأولى عدم المراعاة هذه إلى فسقهم، لنلاحظ تأكيد الآية رقم 10 لعدم المراقبة هذه، بالصيغة نفسها، ويأتي نفاقهم ثانياً : في هذه الموجبات، وتتمثل في رفض قلوبهم إرضاء المسلمين، الجاري مخاتلة على ألسنتهم، ويكمن ثالث الموجبات : في شرائهم بآيات الله ثمناً قليلاً، للصد عن سبيله تعالى، تبرز هذه الآيات الثلاث، مدى ميل هؤلاء المعتدين إلى الاعتداء : ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 153 06/12/2016 22:29:23

وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ. اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: 8-10].

سياقُ الطَّعام

ربما كان من خصوصيات بحث الاعتداء، التي لم يعتد عليها الناس، أنّ تحريم طيبات الطعام عَدّته آية سورة المائدة، التي جاءت ثانيةً بين ثلاث آيات، أعلنت عدم حبه تعالى للمعتدين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: 87]، ولكن تحريم الطيبات، وتسميته اعتداء، أمر مقصود لذاته في القرآن، بقرينة تكراره أربع مرات فيه، منها تشنيع آية سورة الأنعام، بعدم الأكل مما ذكر اسم الله عليه، ولا سيما بعد تفصيله تعالى في القرآن، ما حرم من المطاعم، بل إن الآية تقيم علاقة بين هذا الاعتداء والضلال بغير علم عن سبيل الله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 119].

ولم تحدد جهة المُعتدى عليه في هذا السياق، ولكن يفهم من سياقات آيات الافتراء بالتحليل والتحريم، أنه اعتداء على الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: 116].

وفي المقابل، فإن تحليل ما حرمه تعالى هو اعتداء أيضاً، كما نلاحظ ذلك في آية الابتلاء بشيء من الصيد من سورة المائدة، التي تعدّ صيد البر في الأشهر الحرم اعتداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 154 06/12/2016 22:29:23

تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 94]، ودليل ذلك تحريمه مباشرة بعد هذه الآيـة، ومما يؤكد أنه اعتداء، هو كفارته الشديدة، ووصفه بوبال الأمر، ووعيده تعالى بالانتقام ممن يعود إليه مرة ثانية، ووصفه بأنه قَتْلٌ ثلاث مرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [المائدة: 95].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 155 06/12/2016 22:29:23

من ثوابت القرآن (4)

﴿وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

الإسرافُ والأكلُ والشربُ (الجانبُ الماديُّ)

أعلن تعالى عن عدم حبه للمسرفين في خاتمتي آيتين من سورتي الأنعام والأعراف المكيتين، وكانت صيغة هذه الخاتمة هي نفسها نهياً عن الإسراف في الأكل والشرب، يتبعه إعلان منه تعالى، عن عدم حبه للمسرفين.

وجاءت خاتمة آية سورة الأنعام، بعد بيان نعمته تعالى، في إنشاء جنات معروشات وغير معروشات، حيث سبق النهي عن الإسراف، أمر بالأكل من الثمر عند إثماره، وأمر بإيتاء حق الزرع يوم حصاده: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: 141].

أما خاتمة آية سورة الأعراف، فتلت أمراً بأخذ الزينة عند كل مسجد، وتضمنت أمرين (بالأكل والشرب)، ونهياً واحداً عن الإسراف: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31].

وهذا المعنى المادي للاسراف، راجع إلى أصل (س ر ف) الذي اشتق منه فعل (أَسْرَفَ)، الذي ورد 6 مرات، واسم فاعله مُسْرِف، ومُسْرِفون، الذي ورد 15 مرة، ومصدره إسراف مرتين، أي بما مجموعه 23 تواردا للاسراف في القرآن الكريم.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 156 06/12/2016 22:29:23

وهو أصل صحيح يدل على تعدي الحد، بمعنى مجاوزة القدر، حسب ابن فارس، الذي أضاف إليه في مقاييسه، دلالته على إغفال الشيء جهلاً : (سرف) السين والراء والفاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تعدِّي الحدّ، والإغفالِ أيضاً للشيء، تقول : في الأمر سرَفٌ، أي مجاوزَةُ القدر، وأمّا الإغفال فقول القائل : مررتُ بكم فَسرِفتكم، أي أغفلتكم، ويقولون إنَّ السَّرَف : الجهل، والسَّرِف : الجاهل، وهذا يرجع إلى بعض ما تقدَّم، والقياس واحد[1].

الإسرافُ والعدوانُ والجهلُ عند قوم لوط

ولعل ما يدل على صحة هذا الأصل، خطاب نبي الله لوط عليه السلام لقومه المتجاوزين حد ما تعارف عليه البشر، من حلال العلاقة بين المرأة والرجل في الزواج، إلى علاقة شهوانية شاذة بين الرجال، ما سبقهم بها أحد من العالمين، حيث نقل القرآن ثلاث مرات تشنيعه نفسه، بفعل قوم لوط في ثلاث لغات، فقد وسمهم بـ (العدوان) في آية سورة الشعراء (ودلالته التجاوز) : ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء : 166]، ووسمهم بـ (الجهل) في آية سورة النمل، (ودلالته الإغفال) : ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل : 55]، ووسمهم بـ (الإسراف) في آية سورة الأعراف : ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف : 81]، بما (يقيم علاقة تعاضد بين العدوان، والجهل، والإسراف)، بفضل شغلها المكان نفسه، من خواتيم متطابقة النسق والدلالة.

---

1. معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ج 3 ص 153.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 157 06/12/2016 22:29:23

الإسرافُ والقتلُ

ونجد معنى تجاوز الحد، ومقداره في آية سورة الإسراء، التي تنهى ولي المقتول ظلماً عن الإسراف في القتل، أي في الثأر من القاتل، وأهله، وعشيرته على عادة العرب في ذلك، وهو ما يسمى بالقَوَد، فلا يُقتل إلا القاتل : ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ [الإسراء: 33].

الإسرافُ في الإنفاق

ونجد في وصف قوام إنفاق عباد الرحمن، من سورة الفرقان، تعريفاً عملياً للإسراف، ليس لأنه نقيض التقتير، (الإنفاق بأقل من القدر المطلوب)، بقدر ما هو خلاف القوام، وهو التزام حدود الاعتدال، الذي تقوم به الحياة في الإنفاق : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ [الفرقان: 67].

بعد هذا العرض، لبعض سياقات الإسراف المادية، ننتقل إلى الغالب من توارداته، التي تحمل دلالة معنوية للإسراف، عاقبتها خسارة النفس، وليس خسارة المال.

الإسرافُ والجانبُ المعنويُّ

الإسرافُ والكفرُ (الإعراضُ والنسيانُ)

لنبدأ بعلاقة تجاور بين الإسراف والكفر، أقامها تلازم عدم الإيمان مع الإسراف، في آية من سورة طه : ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾، ولعل في ظهور هذه العلاقة، في نهاية حوار بين أعمى وربه، ما يدعم صحة دلالة السَرَفِ على الغفلة (أو الإغفال عند ابن فارس)، فقد

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 158 06/12/2016 22:29:23

جاء جوابه تعالى على سؤال الأعمى، الذي يريد معرفة سبب عماه، على شكل حكم، أُستخدمت فيه (كَذَلِكَ) ثلاث مرات، وفعل النسيان مرتين، من أجل بيان أن نسيانه تعالى لأعمى يوم القيامة، إنما جاء نتيجة لنسيان مسرف الدنيا، لآيات ربه : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه : 124-127].

الإسرافُ والكذبُ

لننتقل الآن إلى علاقة تعاضد أخرى، قائمة هذه المرة بين الإسراف والكذب، في آية من سورة غافر : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر : 28].

جاءت خاتمة الآية، هذه في نهاية رد مؤمن آل فرعون، على مزاعم فرعون، وهو يطلب من آله، تركه يقتل موسى، في آية سابقة لهذه الآية : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر : 26].

لنلاحظ مدى مناسبة وصف فرعون بالمسرف الكذاب، ولاسيما بمقارنة الآية رقم 28، مع الآية رقم 26، حيث نجده مسرفاً في كذبه، حين يجرؤ على اتهام موسى بالفساد : ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، وهو الذي يدعو إلى الله : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾، كما نجده كاذباً في إسرافه، حيث يتحدى الله تعالى، غافلاً عن قوته : ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 159 06/12/2016 22:29:23

الإسرافُ والتكذيبُ

ننتقل الآن إلى حال إسراف في التكذيب، تعرضها لنا آيات من بدايات سورة (يس)، تروي لنا قصة أصحاب القرية، مع ثلاثة مُرسَلين، قابلوهم بالتكذيب، إنكاراً وإصراراً بل وتطيراً، فكان مناسباً إنهاء هذا الجدل، مع أصحاب القرية هؤلاء، بوسمهم بالإسراف من قبل رُسُلِهم، لما يعنيه هذا الإسراف من غفلة عن عذاب الله، هي من صميم دلالته : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ... قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس : 13-19].

الإسرافُ والفسادُ

تقدم لنا آيتان من سورة الشعراء، تعريفاً صريحاً للمسرفين، بأنهم من يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، جاء هذا التعريف في سياق دعوة نبي الله صالح عليه السلام قومَهُ إلى تقوى الله، وعدم طاعة رهط يتصفون بهاتين الرذيلتين : ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ : الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء : 151-152].

الإسرافُ على النَّفس

ونصل إلى واسطة العقد في آيات الإسراف، ألا وهي آية سورة الزمر، التي تبرز حقيقة الإسراف، بأنه إسراف على النفس، كما رأينا ذلك بالنسبة إلى الظلم، الذي عدّته آيات عديدة ظلماً للنفس، وانطلاقاً من قيمة ما هو مسكوت عنه في الكلام، في اللغات عامة، ولكنه في القرآن مذكور خاصة،

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 160 06/12/2016 22:29:23

يمكننا اعتبار كل إسراف إسرافاً على النفس، أياً كان سياقه، وبالتالي، فإن المسرفين ينبغي أن يفهموا على أنهم مسرفون على أنفسهم، يقوم هذا التأويل على قاعدة ذهبية، تتمثل في تفسير القرآن بالقرآن، ولاسيما، بخصوص مراميه ومقاصده.

والمقصود من الإسراف على النفس، في آية سورة غافر، هو كثرة الذنوب والمعاصي، القابلة للمحو جميعاً، بفضل حضور المغفرة في نسيج الآية، ودعوة هؤلاء المسرفين إلى عدم القنوط من رحمة الله : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر : 53]، ولعل خير دليل على صحة هذا المقصود، هو علاقة التلازم التي قامت بين الذنوب والإسراف، في الأمرين الذين جاءا مفعولين لفعل المغفرة، في هذا الدعاء الخالص للمجاهدين : ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران : 147].

الإسرافُ والعُلوُّ عند فرعون :

لنلاحظ من بين علاقات التعاضد التي يقيمها الإسراف مع غيره، من أعمال السوء، علاقة تلازم بينه وبين العلو، وهما صفتان سيئتان خاصتان بفرعون، شُنِّع بهما مرتين في القرآن : ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس : 83]، ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان : 31].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 161 06/12/2016 22:29:23

الإسرافُ والإجرامُ

تميزت ثلاث آيات من سورة الذاريات، بإقامة علاقة تعاضد بين الإسراف والإجرام، بحق قوم لوط عليه السلام على لسان الملائكة، خلال بيانهم لإبراهيم عليه السلام سبب مجيئهم، ألا وهو إهلاك هؤلاء المجرمين المسرفين : ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: 32-34].

ويسمح لنا إهلاكه تعالى لقوم لوط، بالانتقال من استعراض علاقات الإسراف بغيره من الرذائل، إلى بيان ما أعدَّه تعالى للمسرفين، من هلاك في الدنيا وعذاب في الآخرة.

إهلاكُ المُسرفين

تتضمن آيات من بدايات سورة الزخرف وعيداً شديداً لمشركي قريش، بأنهم ليسوا مستثنين من عذابه تعالى، الذي أصاب أمثالهم من الأقوام المسرفين، ويتمثل إسرافهم هنا باستهزائهم بأنبياء الله، ولا شك أن الاستهزاء إسراف، لأنه غفلة عن النصر، الذي هو من حظ الأنبياء، ومَنْ تبعهم : ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ؟ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ! وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: 5-8].

وجاء النصر في آيات سورة الأنبياء بلغة النجاة، التي وعدهم بها تعالى، بينما وعد المسرفين بالهلاك : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ... ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: 7-9].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 162 06/12/2016 22:29:24

الإسرافُ والنَّارُ

نختم هذا البحث المليء بتشنيع المسرفين بالوعيد، بأن يكون المسرفون أصحاب النار، كما هو حال الكافرين والظالمين، وذلك على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر : 43].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 163 06/12/2016 22:29:24

من ثوابت القرآن (5)

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾

أعلن تعالى عدم حبه للخائنين ثلاث مرات في القرآن، وذلك في سياقين اثنين :

أولهما : سياق القتال في حالتين اثنتين.

ففي الحالة الأولى : يعلن تعالى دفاعه عن الذين آمنوا، وإعلان هذا الدفاع لغة في حبه لهم، بقرينة ختمه الآية بإعلان عدم حبه للخائنين، والكافرين : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج : 38].

وفي الحالة الثانية : يأمر تعالى نبيه بالنبذ إلى قوم يخشى خيانتهم، وهدف هذا النبذ، هو درء هذه الخيانة : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ [الأنفال : 58].

ثانيهما : سياق إعلان عدم حبه تعالى للخائنين، هو سياق نهي عن (الدفاع) عن المنافقين، بلغة المجادلة، لأنه إذا كان الجدال عنهم ممكناً في الحياة الدنيا، فهو مُحال يوم القيامة : ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً هَا أَنتُمْ هَـؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ [النساء : 107-109].

والخاء والواو والنون أصل صحيح، ومفردة قرآنية وردت اشتقاقاتها في 15 موضعاً من القرآن الكريم، وأصل معنى الخيانة نقصان الوفاء، كما نقل

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 164 06/12/2016 22:29:24

ذلك ابن فارس في مقاييسه : (خون) الخاء والواو والنون أصلٌ واحد، وهو التنقص، يقال خانَه يخُونه خَوْناً، وذلك نُقصانُ الوَفاء، ويقال تخوَّنَني فلانٌ حَقِّي، أي تنقَّصَني[1].

وبفعل دلالة الخيانة على التنقص والنقصان، فإنها تشترك مع غيرها من الرذائل، ولاسيما الظلم، في قاسم مشترك، ألا وهو التعدي على حق الآخر نقصاناً، على عكس الوفاء نقيض الخيانة، الذي يقتضي إتمام ما تستوجبه العهود من التمام.

الخيانةُ والإثمُ والكُفرُ

ولذلك كان طبيعياً اقتران الخيانة بالإثم حيناً : ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً﴾ [النساء : 107]، وبالكفر حيناً : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج : 38]، ومن خواص خواتيم إعلانه تعالى عدم حبه للخائنين، استعمال اسم مبالغة فاعل الخيانة خَوَّانٍ مرتين، مقابل مرة واحدة لاسم فاعله العادي : الخائنين.

ولعل في علاقة تعاضد الخيانة مع كل من الإثم والكفر، في خواتيم الآيات أعلاه، ما يكشف لنا سوء مصير الخائنين، وتصاريف الخيانة في القرآن الذاهبة في هذا الاتجاه، تفسر لنا لماذا أعلن تعالى ثلاث مرات عدم حبه للخائنين.

الخيانةُ في الخصَام

ونبدأ هذه التصاريف بحال الخيانة، في خصام (دفاع) المتخاصمين، ونعني بها الكذب والافتراء، بغية كسب الحكم أمام العدالة، دفاعاً عن

1. مقاييس اللغة، ج 2 ص 186.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 165 06/12/2016 22:29:24

الخائنين. ولذلك أمر تعالى رسوله ﷺ بالحكم بين الناس، بموجب الحقِّ، أنزله عليه مُعلّماً، بلغة الإراءة، وقد رافق هذا الأمر نَهيٌ عن اتخاذ موقف (الدفاع) عن الخائنين : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً﴾ [النساء : 105].

تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ

والخيانة بمنطق القرآن خيانة للنفس، وهذه الخصوصية التي تتقاسمها مع كل من الظلم، والإسراف، دُعّمت من وجهة نظر نحت نحوية، بصيغة خاصة لفعل الخيانة، تدل على فعل فاعل الفعل فعله على نفسه، وهي صيغة (اختيان النفس)، التي وردت مرتين في القرآن، أولاً في سياق تشنيع بخيانة المنافقين أنفسهم، بتبييتهم ما لا يرضى تعالى من القول، ونذكر هنا بالعلاقة بين النهي عن اتخاذ موقف الدفاع من الخائنين، في آية سورة النساء أعلاه، وبين النهي عن المجادلة عن الذين يختانون أنفسهم، في الآيتين التاليتين المجاورتين لها : ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء : 107-108]، ثم في سياق آخر، هو تحليل علاقة الصائمين بنسائهم ليلة الصيام، منعاً لمراودة أنفسهم بالمعصية، التي عُبِّر عنها بلغة الاختيان : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة : 187].

خيانةُ الله :

ومن خواص تصاريف الخيانة في القرآن، اعتبار من يخون الرسول، أو

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 166 06/12/2016 22:29:24

عدم رد الأمانات إلى أهلها، خيانة لله، وقد تكرر هذا الاعتبار مرتين، في سورة الأنفال تحديداً، ولابد من التنويه بهذا الاعتبار من ناحيتين :

أولاً : إن آية النهي عن خيانة الأمانات الآية رقم 27 من سورة الأنفال، والموجهة إلى المؤمنين، هي آية سابقة للآية 71 من الأنفال والموجهة للكافرين، والتي فيها تشنيع بإرادة الخيانة عند الكافرين.

ثانياً : في آية سورة الأنفال 27 فقد سبق النهيُ عن خيانة الله ورسوله، النهيَ عن خيانة الأمانات، وكأنَّ الآية تريد أن تعلم المؤمنين، بأن خيانة الأمانات خيانة لله وللرسول.

لنلاحظ أخيراً مجيء الأمانات مفعولاً به للخيانة، تأكيداً لما هو مؤكّد، ألا وهو كون الخيانة نقيضاً للأمانة لدى القوم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال : 27]، وفي آية سورة الأنفال 71 تذكير بأسرى قريش، في معركة يوم بدر، والذين حررهم رسول الله بعد الهزيمة والأسر، تذكير بخيانة سابقة لهم، عُبِّرَ عنها هذه المرة بلغة خيانة لله : ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال : 71].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 167 06/12/2016 22:29:24

من ثوابت القرآن الكريم (6)

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

أعلن تعالى أنه لا يحب المفسدين في آيتين اثنتين، وفي سياقين اثنين :

في الآية 77 من سورة القصص، وذلك في سياق قول قوم موسى عليه السلام لـ (قارونَ) بابتغاء الدار الآخرة، والإحسان عموماً إلى الناس، ونهيهم له نهياً عاماً عن الفساد في الأرض : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ 0الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77].

وفي الآية 64 من سورة المائدة في سياق تشنيع بطغيانِ وكفر بني إسرائيل، ولاسيما، سعيهم فساداً في الأرض عن طريق إيقاد الحرب، التي يطفئها تعالى : ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً ... كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64].

وإذا كان (إعلانه تعالى عدم حبه للمفسدين)، شبيهاً بغيره من (إعلاناته تعالى عدم حبه للمتصفين بصفات السوء السابقة)، فإن ما يميز خاتمة سورة البقرة، هو (إعلانه تعالى عدم حبه للفساد بعينه)، وهذا أكبر تشنيع بصفة سوء مقصودة بذاتها : ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة: 205].

الفاء والسين والدال (ف س د) أصل صحيح في اللسان العربي، وردت في 49 موضعاً من القرآن، وكان الغالب على تواردادته اسم فاعله مفسدون

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 168 06/12/2016 22:29:24

21 مرة، يليه فعل (أفسد) مضارعاً خاصة 14 مرة، ثم لمصدره فساد إحدى عشرة مرة، بينما لم يرد الثلاثي (فسد) إلا ثلاث مرات.

ويمكن القول أن للفساد تصريفين رئيسين في القرآن أولهما (وهو الغالب) : الإفساد بفعله أفسد واسم فاعله الجمع مفسدون بما مجموعه 35 مرة، وثانيهما : للفساد بمصدره فساد، وفعله الثلاثي فسد بما مجموعه 14 عشرة مرة.

وأصل الفساد خروج الشيء عن الاعتدال، كما قال الراغب الأصفهاني في مفرداته : الفساد خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج أو كثيراً، ويضاده الصلاح، ويستعمل في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة[1].

ولا نستطيع دراسة تصاريف الفساد، بدون أخذ نحتها ونحوها بالاعتبار، لأنهما منبئان عن مراد منزل القرآن، من النهي عن الفساد والتشنيع بالمفسدين، وأول ما يلفت النظر في هذه التصاريف مجيئها تصديقاً لتعريف الفساد بنقيضه الإصلاح، ولا سيما، (فساد في النفس الذي يعني سوء العمل)، لعل هذا الجانب في الفساد هو سبب علاقته بلازمته المكانية الحاضرة، حيثما ذكر في القرآن، وهي الأرض، فالفساد فساد في الأرض من الإنسان ذاته، بسوء العمل، حتى إنه يتلازم مع غيره من صفات السوء، كما سنرى ذلك مع العلو، الذي يصبح علواً في الأرض من الإنسان بسوء عمله.

الفسادُ نقيضاً للصَّلاح

ظهرت علاقة تناقض بين الإفساد والإصلاح في آيتين من سورة الأعراف،

1. مفردات ألفاظ القرآن، ص 636.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 169 06/12/2016 22:29:24

تميزتا بتكرار صيغة نهي : ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ مرتين دون تغيير، وكان النهي موجهاً في الأولى إلى المسلمين، بينما توجه في الثانية إلى مدين قوم شعيب عليه السلام، فبخصوص (توارد هذه الصيغة الأول)، نلاحظ مجيئها في صدر الآية 56 مباشرة، بعد إعلانه تعالى عدم حب المعتدين في خاتمة الآية 55، فكان مكانها متوسطاً تماماً أمرين، بدعاء ربّنا سبحانه وتعالى في بداية الآية الأولى، ودعائه سبحانه وتعالى قبل خاتمة الآية الثانية، وكأن عدم الفساد في الأرض شرط لوصول الداعي (تضرعاً وخفية وخوفاً وطمعاً) إلى منزلة المحسنين المتميزين، بقرب رحمة الله منهم : ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف : 55]، ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف : 56].

وأما بخصوص (توارد هذه الصيغة الثاني)، فنلاحظ مجيئها نهياً، في ختام أربع وصايا نبي الله شعيب عليه السلام لقومه : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف : 85].

ونختم عرض علاقة التناقض بين الإفساد والإصلاح، بآيتين من سورة البقرة، تبين أولاهما مدى كذب المنافقين، وهم يردّون على نهيهم عن الإفساد، بادعاء كونهم مصلحين، لكن الآية التالية تؤكد ما سبق الإخبار به، ألا وهو أنهم مفسدون، دون شعور منهم بذلك : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة : 11-12].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 170 06/12/2016 22:29:24

﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

لم تكن صيغة آيتي الأعراف 56 و 85 وحيدة في النهي عن الفساد، فثمة صيغة أخرى خاصة بالفساد، هي صيغة : ﴿وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، التي تكررت خمس مرات في القرآن، ثلاثة منها على لسان نبي الله شعيب عليه السلام، نأخذ منها عيّنيتين : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت : 36]، ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود : 85].

وهذه آية ثالثة تذكر بعض بنود عهد الله مع بني إسرائيل : ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة : 60].

فسادُ السَّموات والأرض ومن فيهنَّ

ومما يُلفت النظر في تصاريف (فَسَدَ) القليلة مجيئها، في سياقات عمومية، تتعلق بالمقاصد الكلية للشريعة، ففي سورة المؤمنين، جاء هذا الفعل في سياق تشنيع القرآن بإنكار المشركين لما جاءهم به رسول الله من الحق، الذي يكرهونه، لأنه نقيض أهوائهم، التي قد يتسبَّب اتباعها في فساد السموات والأرض، بما يعني هلاكاً عاماً، ولكن الحق الذي تكرر ثلاث مرات في آيتين، هو المانع من هذا الفساد، وبالتالي من الهلاك، كما تفيد ذلك (لو) الدالة على الامتناع للامتناع : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون : 70-71].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 171 06/12/2016 22:29:24

وجاء هذا الفعل كذلك، في سورة الأنبياء، في سياق تشنيع القرآن بشرك المشركين، مبيناً امتناع وجود آلهة غير الله تعالى، لأن مثل هذا الوجود الممتنع، قد يتسبب كذلك في فساد السموات والأرض، كما تفيد ذلك (لو) الدالة على الامتناع للامتناع، كما أسلفنا : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ؟ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 21-22].

وجاء هذا الفعل ثالثاً وأخيراً، في سياق قصة هزيمة (جالوتَ) على يد (طالوت) وداود ﵇، مبيناً حكمة دفعه تعالى الناس بعضهم ببعض في القتال، والتنافس في إحياء الأرض بالعمران، وما يتعلق به ويتبعه ويندرج تحته، ألا وهي منع فساد الأرض : ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 251].

الفسادُ وسفكُ الدِّماء

ويذكر القرآن لنا قصة خلق الإنسان، في سياق اعتراض الملائكة على جعل الإنسان خليفة في الأرض، لما سيتسبب به من إفساد فيها، بسبب سفكه للدماء : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

أسرةُ الفساد

الفسادُ والإسرافُ

سبقت لنا الإشارة في بحث الإسراف، إلى علاقة تعاضد خاصة بين

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 172 06/12/2016 22:29:24

الإسراف والفساد، وعلاقة تضاد بين الفساد والصلاح، حيث نهى نبي الله صالح عليه السلام قومه عن طاعة المسرفين، نهياً تضمَّن تعريفاً للإسراف، بأنه فساد، وبأن الفساد نقيض للصلاح: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ : الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: 151-152].

فسادُ فرعونَ وإسرافهُ وعُلُوُّهُ

سوء سلوك فرعون، يقيم في القرآن كذلك علاقة تبادل بين الفساد والإسراف، بسبب تلازمهما مع العُلو، فقد لاحظنا في بحث الإسراف تلازم إسراف فرعون مع عُلّوه في آيتين: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: 83]، ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: 31].

وفي بحث الفساد هنا، نكتشف علاقة تعاضد بين الفساد والعلو، أقامتها آية من سورة القصص، تشنع بسوء عمل فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4].

لنلاحظ التشابه بين آيتي يونس والقصص، الذي يُقيم علاقة تبادل بين الإسراف والفساد: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: 83]، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ... إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4].

فسادُ المُلوك

وفساد فرعون نموذج لفساد الملوك في كل زمان ومكان، يدعمه المفسدون، ومن رموزهم هامان وقارون، ويكونون غالباً أغراباً في العقيدة، أو المنشأ، أو السلوك والقيم، يدخلون البلاد أو يكونون فيها، فلا يرون من

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 173 06/12/2016 22:29:24

وسيلة لدعم ملكهم فيها، سوى نشر الفساد، ولاسيما إذلال العزيز وإعزاز الذليل، بالإضافة إلى أعمال سوء أخرى، هي من باب الإسراف في الفساد : ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل : 34].

ونموذج صلاح ملكة سبأ، نموذج لصلاح الملوك في كل زمان ومكان أيضاً، يدعمه المصلحون من الملأ في القوم.

الفسادُ والفسقُ

وكما يدخل الفساد في تعريف الإسراف، فإنه يدخل كذلك في تعريف الفسق، وتقدم لنا آيتان من سورة البقرة تعريفاً للفاسقين عاماً، عموميةِ آياتِ فعلِ فَسَدَ أعلاه، حيث تضمن ثلاثة عناصر، كان أولها : نقضهم عهد الله، وثانيها : قطعهم ما أمر الله به أن يوصل، وكان ثالثها وآخرها : فسادهم في الأرض، وهكذا... وبفضل هذا التعريف العملي، تقوم علاقة تعاضد بين النقض والقطع من جهة، وبين الفساد من جهة أخرى، والثلاثة جميعاً من أسرة الفسق السيئة : ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ : الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة : 26-27].

وبعد محاولتنا التعرف على حقيقة الفساد، من خلال علاقات التعاضد التي يقيمها مع غيره، من صفات السوء، نختم هذا البحث بعرض موجز لبعض الآيات، التي تبين سوء مصير المفسدين، مثل غيرهم من المتصفين بصفات السوء سالفة الذكر، مكتفين بتقديم نموذجين من نظائر الوعيد بحق المفسدين، أحدهما : بلغة العاقبة، بمعنى هلاكهم في الدنيا، ثانيهما : بلغة العذاب، بمعنى عقابهم في الآخرة.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 174 06/12/2016 22:29:25

عاقبةُ المُفسدين

ورد الأمر بالنظر في سوء عاقبة المفسدين ثلاث مرات في القرآن، كما ورد أربع مرات بحق المكذبين، وثلاث مرات بحق الظالمين، ومرتين بحق المجرمين، بما يقيم علاقة قرابة في المصير بين هذه الصفات المتعاضدة في شر البداية وسوء الخاتمة، نعرض أدناه، نموذجين للنذير والتحذير من سوء مصير المفسدين، أولهما : يخص ثمود قوم صالح عليه السلام، والكلام هنا لهذا النبي عليه السلام : ﴿وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وتبغونها عِوَجاً وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فكثركم وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف : 86]، وثانيهما : يخص فرعون وملأه : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف : 103].

الفسادُ واللَّعنةُ وسوءُ الدَّار والعذاب

يشترك الفساد مرة واحدة مع الظلم خمس مرات، ومع الكفر ثلاث مرات، في صيغة توجه لعنة الله لهم، مع الوعيد بسوء الدار في الآخرة : ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد : 25].

كما يشترك الفساد مرة واحدة مع الفسق خمس مرات، ومع الكفر ثلاث مرات، ومع الظلم مرتين، في صيغة (بما كانوا) المبيِّنة لسبب استحقاقهم عذاب الله في الآخرة، وإن كانت آية (سورة محمد ﷺ) من الآيات الشديدة في وعيدها، بقرينة زيادة عذابهم فوق العذاب بسبب فسادهم : ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل : 88].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 175 06/12/2016 22:29:25

من ثوابت القرآن الكريم (7)

﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾

أعلن تعالى عدم حبه للمستكبرين مرة واحدة، في ختام الآية 23 من سورة النحل، في سياق وعيد للمستكبرين، بعلمه تعالى بما يُسرّون وما يُعلنون من أفعالهم وأقوالهم، المعبرة عن حالهم التي وصفتها الآية رقم 22، مبينة عدم إيمانهم بالآخرة، وإنكار قلوبهم بسبب استكبارهم، لنلاحظ كيف شُنِّع مرتين بالمستكبرين، في ختام آيتين متجاورتين : ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ لاَ جَرَمَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: 22-23].

ورد الكبر مرتين، والتكبر ست مرات، والاستكبار 47 مرة، وهي ألفاظٌ ثلاثة وردت في القرآن بما مجموعه 55 مرة، من أصل 124 تواردأً لفعل (كبر) ومشتقاته، ويظهر أن المُعجميين لم يعثروا على أصل للكبر إلا بمقارنته بالصغر، فاعتبره الراغب الأصفهاني ضمن الأسماء المتضايقة، أي تلك التي لا تُعرف إلا باعتبار رديفها، أو نقيضها، في حالة خاصة بهذه الأسماء أطلق عليها وصف التعاقب، وجاء كلامه قريباً جداً من تصاريف (كبر وأكبر وتكبر واستكبر) في القرآن : الكبير والصغير من الأسماء المتضايقة التي تقال عند اعتبار بعضها ببعض، فالشيء قد يكون صغيراً في جنب شيء، وكبيراً في جنب غيره، وأصل ذلك أن يُستعمل في الأعيان (الأشياء)، ثم استعير للمعاني، والكبر والتكبر والاستكبار تتقارب معانيها، فالكبر الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره، وأعظم التكبرِ التكبرُ على الله، بالامتناع من قبول الحق، والإذعان

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 176 06/12/2016 22:29:25

له، ذاك فيه (الوجه الأول) للاستكبار، والاستكبار على (وجهه الثاني) : أن يتشبَّع فيظهر من نفسه ما ليس له، وهذا هو المذموم[1].

وسنقتصر في بحثنا هذا، على دراسة كل ما يتعلق بعدم حبه تعالى للمستكبرين، من تصاريف الاستكبار، ونبدأ بمجوعة من الآيات، التي يثني فيها تعالى على نفسه، وحُقَّ له وحده الثناء، فهو العلي الكبير، ولا يحق لكائن في الكون أن يشاركه في كبريائه، فهي هي من صفات ألوهيته وربوبيته، ويكمن هنا أصل التشنيع بالاستكبار، كما يدل عليه اشتقاقه، لأنه طلب كبر كبير من المُحال نواله.

الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

أثنى تعالى على نفسه في القرآن بصفتيه (العلي الكبير) اللتين وردتا متلازمتين في خمس خواتيم آيات مع سبق لصفة (العلي) : (النساء 34، الحج 62، لقمان 30، سبأ 23، غافر 12) نأخذ منها آية سورة الحج عينة : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: 62]، وتفرَّدت آية سورة الرعد بخاتمة، تميزت بسبق صفة (الكبير)، وبحلول صفة (المتعال) محل (العلي) : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9].

الكبرياءُ لله

وتفردت آية سورة الجاثية، بجعل الكبرياء له تعالى دون غيره : ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: 37].

1. مقتطفات من مفردات ألفاظ القرآن، ص 696-698.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 177 06/12/2016 22:29:25

الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ

وأما تفرد الآية رقم 23 من سورة الحشر، فيكمن في وصفه تعالى بالمتكبر، كـ ثامن اسم من أسمائه الحسنى التي ذكرت تمجيداً وتعظيماً له تعالى، وهذا هو التوارد الإيجابي الوحيد للفظ متكبر في القرآن، ذلك أن التكبر صفة من صفات الله، لا يجوز إسنادها إلا له تعالى : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر : 23].

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ

وتدخل في هذا السياق العام أربع آيات، أُمِرَ فيها المؤمنون بتكبيره تعالى (بمعنى تعظيمه)، نختار منها بداية سورة المدثر حيث يأتي التكبير ثانياً بعد أمر رسول الله بالإنذار، وذلك في نطاق أمر عام بالقيام... : ﴿يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر : 1-3].

وبخصوص أمر المؤمنين بتكبيره تعالى، نلاحظ ترافقه مع عبادتي الصوم والحج : فقد جاء هذا الأمر في نهاية آية الصوم، في سياق شكر الله على الهدى : ﴿وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة : 185].

وتكرر الأمر بالتكبير شكراً على هدى الله، في ختام آية سورة الحج، ترافقه بشارة كون الحج والتكبير فيه بلوغاً لدرجة الإحسان : ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج : 37].

عدمُ استكبار الملائكة

وكان ثاني سياقات الاستكبار الإيجابية، مجيء فعله منفياً ثلاث مرات،

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 178 06/12/2016 22:29:25

ثناء على الملائكة، لعدم استكبارهم تجاه الله تعالى، نأخذ منها عينة من سورة الأعراف : ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف : 206].

وحالهم هو حال الكائنات الحية في السموات والأرض : ﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل : 49].

ولذلك كان طبيعياً أن يأتي الاستكبار منفياً في آية سورة السجدة، بحق الذين يؤمنون بآيات الله، تشبُّهاً بالملائكة في عدم استكبارهم : ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة : 15].

استكبارُ إبليس

لذلك كان حال إبليس موضوع تشنيع ثلاث مرات في القرآن، في سور (البقرة : 34، الأعراف : 13، ص 74)، لأنه أبى فعل ما أمر به من السجود لآدم، وكان أول الكافرين : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : 34]، وكان هذا التكبر منه سبباً لإخراجه من الجنة صاغراً : ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف : 13].

أسرةُ الاستكبار (1)

ترددنا كثيراً قبل وضع العنوان برقمه هذا الذي أعطيناه، وفي مكان غير مكانه المعتاد، والسبب، هو أنه تعالى أعلن عدم حبه لثلاث فئات من الناس، تجعلهم صفاتهم السيئة، ينتمون إلى أسرة سوء واحدة، هي

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 179 06/12/2016 22:29:25

أسرة الاستكبار، وهم الفرحون : ذُكروا مرة واحدة، والمختال الفخور ثلاث مرات، بالإضافة إلى المستكبرين مرة واحدة، وقد احتَسبنا أصحاب هذه الصفات الأربع ثلاث فئات، اتباعاً للقرآن الذي جمع المختال مع الفخور، في المرّات الـ ثلاث التي ذُكرا فيها، ليس ابتداعاً منّا، اعتبارهم أسرة واحدة، ولكن مقتضيات السياقات التي وردوا فيها.

استكبارٌ بغير الحقِّ

وأول ما يجمع هذه الأسرة عموماً، اعتبار الاستكبار والفرح (بغير الحق)، اعتداءً وتجاوزاً من دون استحقاق وأهلية، ويؤكد هذا ما تقدم بيانه أعلاه، من كون الكبرياء والتكبر من صفاته تعالى، مع التشنيع بمن يحاول مشاركته تعالى فيها، بمعنى أن الكبرياء والتكبر حق من حقوقه تعالى، لا يمكن انتقاصه بمُلابسة الإنسان له، وممارسته تجاه الناس.

سنحاول شرح هذه الخصوصية الخافية عن الناس :

تنبئنا إحصائيات توارد صيغة (بغير الحق)، مع (الـ) التعريف أنها تكررت في القرآن تسع مرات، مقابل خمس مرات، لصيغة (بغير حق) بدون (الـ) التعريف، فأمّا صيغة (بغير حق) بدون (الـ) التعريف، فقد وردت عموماً تشنيعاً بقتل بني إسرائيل أنبياءهم أربع مرات، مقابل مرة واحدة لإخراج مشركي مكة المسلمين من ديارهم، كما أشرنا إلى ذلك في بحث الاعتداء، وقد سبق لنا ذكر الآيات المشنعة بقتلة الأنبياء في بحث الاعتداء.

وأما صيغة (بغير الحق) الأكثر تواردا بـ (الـ) التعريف، فقد شارك الاستكبار والتكبر فيها كلاً من البغي والظلم، باعتبارها جميعاً بغير الحق، أي تجاوزاً وتعدياً على حقوق العباد، وبالتالي لحدود الله، ماذا يعني هذا ؟ إنه يعني صراحة أن القرآن يعُدّ استكبار الإنسان على عباد الله استكباراً على

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 180 06/12/2016 22:29:25

الله، كما رأينا في بحث الاعتداء، حيث عدّ الاعتداء على حقوق العباد تعدّياً لحدود الله، هذا ما تؤكده تصاريف هذه الصيغة التسعة.

فقد شاركت صيغة (بغير الحق) صيغة (بغير حق) مرة واحدة، بخصوص قتل الأنبياء في آيتين شبه متطابقتين في جزء كبير منهما: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: 61]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 112].

أما بقية تواراداتها الثماني، فقد توزعت على الاستكبار والتكبر أربع مرات، ثم على البغي ثلاث مرات، ثم على الظلم مرتين، وذلك حسب التوزيع التالي:

الإثم والبغي بغير الحق مرة واحدة: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 33].

الظلم والبغي بغير الحق مرة واحدة: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: 42].

البغي بغير الحق وحده مرة واحدة: ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم﴾ [يونس: 23].

التكبر بغير الحق مرة واحدة: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146].

الاستكبار بغير الحق ثلاث مرات: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [فصلت: 15]، ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصص: 39]، ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأحقاف: 20].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 181 06/12/2016 22:29:25

الفرح بغير الحق والمرح مرة واحدة : ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر : 75].

وعليه فإن عبارتي (بغير الحق)، و(بغير حق)، تعنيان فيما تعنيانه تجاوز الحد، في فعلِ فعلٍ ليس من حق فاعله فعلُه، وتعنيان كذلك، اشتراك الاستكبار والفرح والمرح مع التعدي والظلم، والبغي في التجاوز، لكن بصورة تطاول، بقرينة اقتراب دلالة العلو من دلالة الاستكبار عند العرب، وغير العرب، ويضيف القرآن إلى هذه القرينة قرينة أخرى، تمثلت في تجاور العلو مع الاستكبار مرتين في القرآن، وكأنه جاء تفسيراً للاستكبار.

فهذه آية من سورة (ص)، تنقل لنا حكم رب العزة على إبليس، بلغة استفهام استنكاري : ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص : 75].

وهذه آية من سورة (المؤمنون)، تصف استكبار فرعون وملئه بكونه حالاً من العلو : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [هود : 96]، ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾ [المؤمنون : 46].

ولكن قرينة التجاوز تطاولاً، نجدها في التشنيع بمشي المختال الفخور مرحاً، وهو يريد شق باطن الأرض، ومجاراة الجبال ارتفاعاً : ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء : 37].

حقيقةُ الاستكبار

﴿الذين استكبروا﴾ مقابل ﴿الذين استُضعفُوا﴾

للتعرف على حقيقة الاستكبار، نلحظ بخصوص المستكبرين ما لحظناه بحق الكافرين والظالمين، من اعتبار استكبارهم صفة سوء لازمة لهم، يُعرفون

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 182 06/12/2016 22:29:25

بها في القرآن بصيغة : (الذين استكبروا) التي تكررت ثمانيَ مرات، مقابل صيغة (الذين استضعفوا) التي تكررت خمس مرات، أو وصف (الضعفاء) مرتين.

هذا ما تنقله لنا آيتا سورة الأعراف من جدل فريقين في الدنيا، حول الإيمان برسالة الله وعدمه، لنلحظ هنا أن المستكبرين هنا من الملأ، أي من المترفين : ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ؟ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف : 75-76].

وهذا ما تنقله لنا كذلك آيتا سورة سبأ، حول مسؤولية المتسبب في دخول الفريقين النار في الآخرة : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ : 31-32].

الاستكبارُ والكفرُ والإنكارُ

يكشف لنا توصيف المستكبرين في آيتي سورة الأعراف أعلاه، علاقة تعاضد بين الاستكبار والكفر، بمعنى عدم الإيمان : ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف : 76]، وهذا الواقع من عدم الإيمان الذي يحتويه الاستكبار، يتأكد في آية من سورة النحل، تُقدم لنا تعريفاً للاستكبار على أنه ناشئ عن إنكارٍ مستقرٍ في قلب من لا يؤمن بالآخرة : ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل : 22]، ونجد هذا التعريف عموماً في آية أخرى، تنقل لنا تشنيعاً بالمتكبرين على لسان موسى عليه السلام : ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 183 06/12/2016 22:29:25

مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: 27].

التكبُّرُ والتجبُّرُ طبعٌ من الله على المُستحقين

وتقدم لنا آية سورة غافر، حشداً من مكونات السوء، تفسر لنا لماذا يستحيل إيمان فرعون المتكبر، لنلاحظ هنا التعميم الذي أجراه القرآن على هذه الحالة الفردية، وهذا من أسلوب القرآن العام: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35]، لنبدأ بآخر هذه المكونات الظاهر في خاتمة الآية، ففرعون ليس متكبراً وحسب، وإنما هو كذلك جبار، تعوَّد قهر الضعفاء. لنعد إلى بداية الآية، حيث نجده يجادل في آيات الله بغير علم، تتوافر حججه وأدلَّته، وبالتالي فهو ممقوت مقتاً كبيراً عند الله، وعند المؤمنين، لذلك كان من طبيعة الأشياء أن يطبع الله على قلبه، بمعنى الحكم نهائياً عليه باستحالة إيمانه.

أسرة الاستكبار (2)

وبعد هذا العرض المقتضب لحقيقة الاستكبار، نتابع التعرف عليه من خلال رصد علاقات تعاضده مع صفات سوء أخرى من أفراد أسرته.

التكذيب والاستكبار

جاء الاستكبار والتكذيب متجاورين في عدد لا بأس به من الآيات، اخترنا منها عيِّنتين:

أولاهما: ما يمكن اعتباره علاقة تلازم بينهما، أكدتها آيتان من سورة الأعراف، كان الاستكبار فيهما لاحقاً للتكذيب: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ... إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 184 06/12/2016 22:29:25

بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: 36-40].

وثانيهما: علاقة التلازم بينهما في سورة البقرة، مع ملاحظة مجيء الاستكبار سابقاً للتكذيب: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87].

استكبارٌ وكفرٌ وفسقٌ

رصدنا في آية سورة الأحقاف، علاقة تجاور بين الاستكبار والكفر، وتلازم بينه وبين الفسق: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: 20].

استكبار وكفر وإجرام

ورصدنا في آية سورة الجاثية، علاقة التجاور نفسها بين الكفر والاستكبار، وعلاقة التلازم بينه وبين الإجرام: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ [الجاثية: 31].

استكبار وإجرام

ورصدنا في خاتمتي آيتين من سورتي الأعراف ويونس، علاقة تلازم بين الاستكبار والإجرام بحق فرعون وملئه، وهذه آية سورة يونس نموذجاً عنهما: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: 75].

جهنَّمُ مثوىً للمُستكبرينَ والكافرينَ والظَّالمينَ

سبق لنا الوقوف عند بعض مشاهد من الجدل بين المستكبرين،

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 185 06/12/2016 22:29:25

والمستضعفين، ونعرض هنا خاصة، خاتمة نذير بعذاب جهنم تكررت سبع مرات في القرآن، وكانت كلمتها المركزية هي (مثوى) المقصود بها (جهنم). وجاءت هذه الصيغة خاصة بحق المتكبرين أربع مرات، مقابل مرتين بحق الكافرين، ومرة بحق الظالمين، نأخذ منها عيِّنتين من سورتي الزمر وغافر متطابقتين نحتاً ونحواً : ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر : 72][غافر : 76].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 186 06/12/2016 22:29:26

من ثوابت القرآن الكريم (8)

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

من خصوصيات إعلانه تعالى عدم حبه لكل مختال فخور، مجيء هذه الخواتيم الثلاث وحدها، دون أي ورود للفظي الاختيال والفخر، في أي موضع آخر من القرآن، وقد أدخلنا الصفتين الزوجين اللتين جاءتا متلازمتين في أسرة الاستكبار، باعتبارهما عرضاً من أعراضه، ويظهر أن المرح والفرح ملازمان للخُيلاء والفخر، كما يلاحظ في آيتي سورتي لقمان والحديد، بما يزيد ارتباطهما (أي الخُيلاء والفخر) بالاستكبار.

وردت الصفتان الزوجان أولاً : في خاتمة الآية ما قبل الأخيرة من وصايا لقمان المنيرة لابنه، لنلحظ حضور (المرح) في سياق النهي عن هذا النوع من مشية الكبر : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان : 18].

ويذكرنا النهي عن المشي (مرحاً)، بآية سورة الإسراء، التي نلاحظ فيها النهي نفسه، عن مشية الكبر هذه : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء : 37].

كما ورد هذا الإعلان مرة ثانية : في سورة الحديد في سياق بيان أن المصائب مكتوبة على الناس، في كتاب حياتهم، فلا ينبغي على الإنسان الأسى على ما فاته، ولا الفرح بما جاءه، وكأن الإعلان هنا تعريفاً بحال المختال الفخور، بأنه كثير الأسى في الشدة، كثير الفرح في الرخاء : ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد : 23].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 187 06/12/2016 22:29:26

وورد هذا الإعلان مرة ثالثة أخيرة : في سياق مجموعة من الوصايا الربانية، ولا سيما ما يتعلق منها بالإحسان، إلى من ينبغي الإحسان إليهم جميعاً، وخاصة أهل القرابة والجوار، وكأن الإعلان هنا إخبارٌ ببخل المختال الفخور، الذي تؤكده آيات أخرى من القرآن : ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ [النساء : 36].

وفي الحقيقة، يمكننا اعتبار اختيال المختال وخيلائه نوعاً من الكبر، يتوهم فيه صاحبه أنه أعظم من غيره، وأكرم، يروي لنا ابن فارس في مقاييسه قصة تبين لنا كيف كان العرب يتصورون الاختيال : (خيل) الخاء والياء واللام أصلٌ واحد يدلُّ على حركةٍ في تلوُّن، وأصله ما يتخيَّله الإنسان في مَنامه، لأنّه يتشبّه ويتلوّن، وسمِعت مَن يَحْكِي عن بِشر الأسديّ عن الأصمعي قال : كنتُ عند أبي عمرو بن العَلاء، وعنده غلامٌ أعرابيٌّ فسُئل أبو عمرو : لم سُمِّيت الخيلُ خيلاً ؟ فقال : لا أدري، فقال الأعرابيُّ : لاخْتيالِها، فقال أبو عمرو : اكتُبوا. وهذا صحيحٌ؛ لأنّ المختالَ في مِشيتِه يتلوَّن في حركته ألواناً[1].

وأما فخر الفخور، فحال من الكبر كذلك، يتوهم فيها أنه أفضل من غيره تعظماً، دون مضمون يدعمه من الواقع، ويقدم لنا ابن فارس تعريفاً للفخر يذهب في هذا الاتجاه : (فخر) الفاء والخاء والراء أَصلٌ صحيحٌ، وهو يدلُّ على عِظَم وقِدم، قال أبو زيد : فَخَرْتُ الرَّجلَ على صاحبه أَفْخَرُه فخراً : أي فضَّلتُه علي، والناقة الفَخور : العظيمة الضَّرْع القليلةُ الدَّر[2].

1. مقاييس اللغة، ج 2، ص 191.
2. مقاييس اللغة، ج 4، ص 383.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 188 06/12/2016 22:29:26

من ثوابت القرآن الكريم (9)

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾

أعلن تعالى عن عدم حبه للفرحين مرة واحدة في القرآن، في سياق أول نصيحة، يسديها قوم موسى لقارون، بعد أن قدمه القرآن على أنه باغٍ مترفٌ من قوم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76].

والفاء والراء والحاء أصل صحيح في اللسان العربي، لم يوفق المعجميون في العثور على أصله صراحة، فحاول ابن فارس تعريفه بنقيضه، وهو الحزن، لكن كلامه عن أصله الثاني (الإفراح) الذي يعني (الإثقال) يَشي بكون أصل دلالة الفرح الخفة: (فرح) الفاء والراء والحاء أصلانِ، يدلُّ أحدهما على خلاف الحُزْن، والآخر الإثْقال، فالأوّل الفَرَح، يقال فَرِحَ يَفرَح فَرَحاً، فهو فَرِح، وأمَّا الأصل الآخر فالإفراح، وهو الإثقال، وقولُه ﷺ: « لا يُتْرَك في الإسلام مُفْرَحٌ »، قالوا: هذا الذي أثْقَلَه الدَّين[1].

ولعلَّ فيما نقله ابن منظور عن ثعلب في لسانه، ما يدل صراحة على أن الفرح يعني الخفة: (فرح) الفَرَحُ نقيض الحُزْن، وقال ثعلب هو أَن يجد في قلبه خِفَّةً[2].

وقد ورد الفرح 22 مرة في التنزيل الحكيم، توزع معظمها على فعله: فَرِحَ يَفْرَحُ 16 مرة، وصفته فَرِحَ فَرِحُون 6 مرات، وكان معظم تواروده في

1. مقاييس اللغة، ج 4، ص 396.
2. لسان العرب، ج 2، ص 541.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 189 06/12/2016 22:29:26

سياق فَرَحٍ مذموم، ولم يرد الفرح محموداً في سياق ثناءٍ سوى في أربع آيات.

الفرحُ المحمُودُ

أولاً: في الآية رقم 4 من سورة الروم المكية، حيث يعد تعالى المؤمنين بفرحهم، لإنجاز وعده لهم، بنصر قريب للروم النصارى على الفرس المجوس، بعد هزيمتهم أمامهم: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: 2-5].

ثانياً: في الآية رقم 170 من سورة آل عمران، حيث يثني تعالى على شهداء معركة أحدٍ، الذين نهينا عن اعتبارهم أمواتاً، بل أحياء يرزقون عند ربهم، وكان من علامات حياتهم فرحهم بما آتاهم تعالى من فضله، واستبشارهم بلحاق شهداء آخرين بهم، ونلاحظ هنا استكمالاً للفرحة وللبشارة انتفاء الحزن والخوف عنهم: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: 169-170].

ثالثاً: وفي الآية رقم 58 من سورة يونس، كانت لفعل الفرح خصوصية مجيئه في صيغة أمر بلام الأمر، وكان ظهوره بهذه الصيغة، هو الوحيد في القرآن.

يأمرنا تعالى هنا بالفرح بمجيء هذا القرآن بفرحة، هي خير من تلك التي يفرحها من يجمعون المال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 57-58].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 190 06/12/2016 22:29:26

رابعاً : وفي الآية رقم 36 من سورة الرعد، يشارك المؤمنين فرحتَهم بنزول هذا الكتاب علماءُ من أهل الكتاب، فرحةً جاءت بمعنى الإيمان به، مقابل إنكار بعض، يدلُّ وسمهم بهذا الوصف على معاداتهم لرسالات الله، في كل زمان : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد : 36].

الفرحُ المذمُومُ

يرد الفرح المذموم في القرآن في سياقين رئيسين اثنين، خاصٌّ يخص بعض سلوكات المنافقين الخاطئة، وعامٌّ يخص سلوك الكافرين في كل زمان ومكان.

فرحٌ مذمومٌ خاصٌّ (المُنافقُون)

جاء التشنيع بفرح المنافقين المذموم في ثلاث سياقات، تدل على مدى كذبهم في ادعائهم الإيمان، فقد شنَّع القرآن مرتين بهم لفرحهم.

الأول : بمعنى شماتتهم برسول الله ﷺ إذا أصابته سيئة، وذلك مقابل شعورهم بالسوء إذا أصابته حسنة، نأخذ على ذلك عيِّنة من سورة التوبة : ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة : 50].

الثاني : ولا نغادر سورة التوبة لنرصد فرحاً خاطئاً آخر للمنافقين، يتمثل في قبولهم القعود خلاف رسول الله ﷺ، بعيداً عن ساحات الجهاد معه : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ [التوبة : 81].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 191 06/12/2016 22:29:26

الثالث : نسجل أخيراً تشنيعاً آخر بفرح غير مشروع للمنافقين، يتمثَّل في استكثارهم ما يفعلون، وحرصهم على تلقي الثناء على أعمال لم يفعلوها أساساً : ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران : 188].

فرحٌ مذمومٌ عامٌّ (الأحزاب)

وجاء التشنيع بالفرح المذموم العام في عدة سياقات، تتعلق برؤية الكافرين الخاطئة للأشياء، فقد شنع القرآن مرتين بفرحهم بالخلاف تحزباً، نختار منهما ذم القرآن لتقطُّعهم زُبراً، مع فرح كل حزب منهم بما عنده، من بضاعة شقاقٍ، هي نقيض ما ينبغي أن يكونوا عليه من وحدة أمتهم الواحدة : ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحونَ﴾ [المؤمنون : 52-53].

الفرحُ بالحياة حُبّاً في متاعها :

ويشنع القرآن كثيراً بفرح الكافرين بالحياة الدنيا وزُخرفها الزائل، نأخذ من ذلك عينة من سورة الرعد : ﴿اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد : 26].

الفرحُ والمرحُ بغير الحقِّ :

وتميزت آية سورة غافر، بل تفرَّدت بجمع الفرح مع المرح، في سياق توبيخ للكافرين المتكبرين، الذين انتهى بهم الأمر إلى دخول أبواب جهنم خالدين فيها : ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر : 75].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 192 06/12/2016 22:29:26

الفرحُ والفخرُ بنعماءٍ بعد ضراء :

ونختم هذا البحث بآيتين من سورة هود، تُعدّان نموذجاً لعدد من الآيات، التي تنعي على الإنسان يأسه وكُفره، في حال نقمةٍ بعد نعمةٍ، وفرحه وفخره إذا أذاقه تعالى نعماء بعد ضراء مسته : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ ليئوس كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود : 9-11].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 193 06/12/2016 22:29:26

من ثوابت القرآن الكريم (10)

﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إلا مَنْ ظُلِمَ﴾

نتوقف في ختام هذا الجزء الثالث من موسوعة الحبِّ في القرآن، عند عاشر صفة سوء أعلن تعالى عدم حبه للمتصفين بها، وهي هنا : الجهر بالسوء من القول، إلا أن الله تعالى استثنى مَنْ ظُلِمَ، وكما كان الحال في ختام الجزء الثاني منها بخصوص الذين يقاتلون في سبيله، والذين أعلن الله حبهم في بداية آية من سورة الصف، فنحن هنا أمام بداية آية أيضاً، يعلن الله أنه لا يُحبُّ الجهر بالسوء من القول، وليس خاتمتها، كما كان الحال مع أصحاب الصفات التسع السابقة : ﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾ [النساء: 148].

يتكون إعلانه تعالى في الآية من أربعة عناصر هي : الجهر، والسوء، والقول، والظلم.

و(جهر) أصل صحيح في اللسان، ومفردة قرآنية، وردت اشتقاقاتها في ستة عشر موضعاً من التنزيل الحكيم، توزعت على مصدره جَهْر وجَهْرَة وجِهار 11 مرة، وعلى فعله مرات.

وأصل معنى الجهر الظُهورُ، وقد أحسن الراغب تعريفه من زاويتي السمع والرؤية، فقال : الجهر : يُقال لظهور الشيء بإفراطِ حاسة البصر، أو حاسةِ السمع، ومنه جهر البئرَ واجتهرها، إذا أظهر ماءها[1].

1. مفردات ألفاظ القرآن، ص 208.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 194 06/12/2016 22:29:26

وواضح في تعريف الراغب للجهر محاولته الجمع بين ما يقوله القوم، وبين تصاريفه في القرآن، حيث تدلُّ، سواءً في تواردات فعله أم مصدره، على ما له علاقة بالسمع، ولا سيما القول، بما مجموعه إحدى عشرة مرة، ظهر في ثمانٍ منها نقيضاً للسر خمس مرات : ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك : 13].

وللكتمان مرة : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء : 110].

وللخفاء مرة : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى : 7].

وللمخافتة مرة، حيث جاء مرتبطاً بالصلاة : ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء : 110].

أما تواردات الباقية، فتتعلق بالبصر، بلفظ جهرة وجَهَر، مقترناً بفعل الإراءة مرتين : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة : 55].

وأما تواردات السوء، هذه المفردة القرآنية عالية التواتر، فإنها تتعلق بالعمل خاصة، وارتباطها بالقول قليل، وأكثر سياقات حضور القول آية سورة المُمتحنة، التي لم تخل من حضور العمل كذلك، حيث حلَّت فيها الأيدي محل العمل، والألسنة محل القول في العلاقة مع السوء : ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة : 2]، وتليها آية سورة البقرة، في دلالة السوء على القول والعمل، في سياق النهي عن اتباع خطوات الشيطان، وإن رجَّحت خاتمتها حضور القول : ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : 169].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 195 06/12/2016 22:29:26

وفعل القول أعلى أفعال القرآن تواردا، أكثر من 1100 مرة في إحصاء تقريبي، ومصدره قول، والقول أكثر من 74 مرة، ولفظ القول : هو الذي له علاقة بالجهر، وواضح النهي عن الجهر في القول إطلاقاً، حتى حين يتعلق الأمر بالصلاة : ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف : 205].

ذلك أننا مأمورون بحسن القول : ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ [البقرة : 83]، وبالقول السديد : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [الأحزاب : 70]، وبالقول الطيب : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج : 24].

وأما الظلم فقد خصصنا له بحثاً كاملاً في هذا الجزء من الموسوعة، بحث : ﴿إنَّ الله لا يحب الظالمين﴾، وإنما نأتي على ما يتعلق منه بـ (المظلومين)، ذلك أن آية سورة النساء تنقسم إلى قسمين : (قاعدةٍ و(استثناء)، فأما القاعدة : فعدم حبه تعالى الجهر بالقول، وأما الاستثناء : فهو نوع من إزالة الحرج ضمن حدود بخصوص انتصار المظلوم لنفسه، وهذا ما سبق أن أعلنته آيتان من سورة الشورى : ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى : 41]، والظلم هنا بمعنى البغي عليهم، كما تشير إلى ذلك آية مجاورة سابقة : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى : 39].

وكما أَذِنَ تعالى بالقتال لمن ظُلِمُوا : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج : 39]، فإنه استثنى من عدم حبه هنا مَنْ ظُلُمَ، ومع ذلك فقد ترك تعالى باب العفو عن الناس مفتوحاً، خاصة عند المقدرة، كما هو حاله تعالى مع عباده : ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 196 06/12/2016 22:29:26

عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴾ [النساء: 149]، وهذا ما دعت إليه كذلك آية من سورة الشورى نفسها، لأنه إذا كان الانتصار للنفس رخصةً من الله، فإن الصبر والغفران عزيمة لدى المؤمن: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: 43].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 197 06/12/2016 22:29:26

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 198 06/12/2016 22:29:26

الجزء الرابع

ما يُحِبُّهُ الإنسَانُ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 200 06/12/2016 22:29:27

مُقَدِّمَة

تعرَّفنا في الأجزاء السابقة من هذه الموسوعة، على عدد من صفات الفضائل، التي يحب تعالى فاعليها المُتَّصفين بها (الجزء الثاني)، وعلى عدد أكبر من صفات الرذائل، التي لا يحب تعالى فاعليها المتصفين بها (الجزء الثالث)، وفي هذا الجزء (الرابع)، نستكمل دراسة مقاصد القرآن في الحبِّ، من خلال استعراض سياقات التشنيع، بأحوال المحبين للحياة الدنيا العاجلة، ومتاعها القليل الناشئ عن استحبابهم لها، على الآخرة التي هي خير من الأولى.

وقبل الخوض في دراسة نظائر ما يحبه الإنسان، يجدر بنا التذكير بكليتين قرآنيتين : تتعلق (أولاهما) : بـ (علم العواقب)، حيث يؤكد القرآن مراراً على اعتبار عاقبة أمر الإنسان أساساً في الحكم، على صدق وحق عقيدته، وبالتالي سلوكه، وقد اخترنا لبيان هذه القيمة القرآنية، آية سورة البقرة أدناه، التي تبرز قيمة النظر في العاقبة أساساً لحب الأشياء وكرهها، أما (ثانيتهما) : فتتعلق بالأساس الثاني لعقيدة الإيمان، الذي يلي توحيده تعالى في قيمته، ونعني بذلك، تفضيله تعالى الآخرة على الدنيا، وهي كلية سنقف عندها وقوفاً أطول، بغرض بيان جوهر تشنيع القرآن بحب الإنسان للحياة الدنيا العاجلة، وإيثاره لها على الآخرة.

ما يُحبُّه الإنسانُ ليسَ في خَيره دَائماً :

ومن الدروس المُستقاة، من حالات حب الإنسان لما هو شر له في دنياه وآخرته، إدراك أن ما يحبه الإنسان، ليس في خيره دائماً، لسببين : يكمن أولهما : في طلبه ما هو قريب عاجل، وثانيهما : في عدم قدرته، بسبب انعدام رغبته، على رؤية الأشياء في عواقبها، إنه يرى ما يظهر له بادي

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 201 06/12/2016 22:29:27

الرأي، تترجم لنا الآية من سورة البقرة خير ترجمةٍ، هذا الحال لدى الإنسان، ولا سيما في ميدان القتال : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ، وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : 216].

فالإنسان بطبيعته يكره القتال : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾، لما يتطلبه من مشقة، ولما يستلزمه من صبر، واللافت في آية سورة البقرة أولاً : هو خطأ الإنسان في تقديره للأشياء، لأنه قد يكره ما فيه خير له، ويحب ما فيه شر له : ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾.

واللافت ثانياً : في الآية، هو وضعها معيار العاقبة أساساً لحب الأشياء وكرهها، بحيث يأتي خيرها، بمعناه المطلق، معياراً للحب، ويأتي شرها، معياراً للكره، والمهم في الخير أنه خير للإنسان، وفي الشر أنه شر للإنسان، وهنا تكمن قيمة العاقبة.

ولكن الآية تتضمن لوناً من العتاب، بإقامة علاقة تجاور ما بين عبارة ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾، وبين عبارة ﴿أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً﴾، التي قُدّمت على عبارة : ﴿أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً﴾، بما يشي بضعف الإنسان العجول في أحكامه، حيث يبادر خيره بكرهه، ويبادر شره بحبه، والعتاب كامن خاصة في تكرار (عسى)، التي صدرت بها جملتا الحبّ والكره، فهي (أي : عسى)، لا تعني طمعاً ولا ترجياً، بل تشي بضدهما، أي بفعل الإنسان ما يضره في عاقبته من كرهٍ وحبٍ خاطئين للأشياء.

وقد سمح هذا التكرار، بإقامة مقابلة تشتمل على تناقض مزدوج، عنصراه الرئيسان، هما فعلا الكره والحبّ المشتركان هنا في مفعول به

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 202 06/12/2016 22:29:27

واحد، هو (شيئاً) المتكرر مرتين، عائداً على عنصري التناقض الآخرين، وهما أولاً : الخير، موضوع فعل الكره، وثانياً : الشر، موضوع فعل الحبِّ، لنتأمل في ترتيب هذه العناصر :

﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً ... وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

﴿وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً ... وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾

ففي هذه المقابلة، لا يتعارض فعل الحبِّ مع فعل الكره وحسب، وإنما يتعارض كذلك (ما هو خير) مع (ما هو شر)، أما باقي عناصر المقابلة فمشترك، لأنه يتعلق بعاقبة الإنسان، حيث شرها وخيرها له في الحالتين بقوله تعالى : (لَكُمْ).

﴿وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾

ولعجز الإنسان عن الاصطبار حتى يبصر العاقبة قبل حب الشيء وكرهه، ختمت الآية بقوله تعالى، الذي هو حكم عام تكرر خمس مرات في القرآن، أن الله هو الذي يعلم، والإنسان لا يعلم، ولا سيما في مجال عواقب الأمور : ﴿وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

تفضيلُ الآخرة على الحياة الدُّنيا

حين نتحدث عن الآخرة، فإننا نتحدث عن واحدة من أكثر ثنائيات القرآن حضوراً، وهي الحياة (الدنيا) 111 مرة مقابل (الآخرة) 110 مرات، ونلاحظ في القرآن على الدوام، تفضيلاً واضحاً للآخرة على الحياة الدنيا، يتكرر تكراراً لا مثيل في تأكيده وإلحاحه، إلا تأكيد القرآن وإلحاحه على توحيده تعالى، وعلى التشنيع بالشرك، تعني هذه الثنائية بين (الدنيا) و(الآخرة)، وجود حياتين : حياة أولى هي الحياة الدنيا وحياة آخرة يوم

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 203 06/12/2016 22:29:27

القيامة، تكرر وصف الحياة الدنيا بأنها (الأُولى) خمس مرات في القرآن، ولا سيما في سورة الضحى.

في الواقع، من أجل التسرية (التخفيف) عن رسول الله ﷺ، الذي عانى من انقطاع الوحي عنه في بداياته بمكة، طمأنه تعالى بأنه لم يتركه، لم يبغضه، وأكد له، بلغة القسم السائدة في آيات السورة الخمس الأولى، فضل الحياة الآخرة على الحياة الأولى ورفعتها، وذلك قبل أن يَعِدَهُ بأن يعطيَه حتى يرضى : ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: 1-5].

وقد تأكد هذا التفضيل بلغات متعددة، نذكر منها أولاً : لغة التفضيل باسمه الأشهر (خير) الأقرب إلى معنى التفضيل في العربية، وفي كل لغات العالم، نختار من آياته السبع الدالة صراحة على هذا التفضيل خاتمتي آيتين، و(قد سبق لنا أعلاه ذكر آية سورة الضحى) في هذا الصدد : ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: 77]، ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: 16-17].

وتميزت أربع من الآيات السبع المُشار إليها أعلاه، الدالَّة صراحة على هذا التفضيل بلفظ (خير)، بورود لفظ (الدار) كـ (اسم) من أسماء الآخرة في القرآن، كما تميزت بتخصيص هذه الدار صراحة للمتقين ثلاث مرات، بل هي دارهم مرة، ولعاقلين يؤمنون بالآخرة عن يقين ثلاث مرات : ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 109]، ﴿وَالدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: 169]، ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 32]، ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: 30].

وجاء تفضيل الآخرة ثانياً : بلغة (الإرادة) في آية من سورة الأنفال في

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 204 06/12/2016 22:29:27

سياق توبيخ على اتخاذ أسرى (يوم معركة بدر)، آية تتميز بمقابلة بين ما يريده مؤمنون مستعجلون من عرض الدنيا، وما يريده تعالى من خير الآخرة : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال : 67].

كما جاء التفضيل بلغة الابتغاء في وصية أهل العلم من قوم موسى عليه السلام لقارون : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص : 77].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 205 06/12/2016 22:29:27

من ثوابت القرآن الكريم (1)

﴿كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾
﴿إِنَّ هَؤُلاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾

لكن اختيار المحبين للعاجلة، هو تماماً على النقيض مما اختاره تعالى لعباده من خير الآخرة، فهم يحبون العاجلة حباً يلازمه تركُ الآخرة، بلغة الوِذرِ، التي تعني عدم الاعتداد كلياً بالآخرة، وذلك حسب ما ذكره الراغب في مفرداته : يقال : فلان يذر الشيءَ، أي يقذفه لقلة اعتداده به، والوذرة : قطعة من اللحم، وتسميتها بذلك لقلة الاعتداد بها[1].

ويتناسب هذا التعريف، مع سياق ورود فعل الوذر في سورتي القيامة والإنسان، حيث جاء معطوفاً على فعل الحبِّ، من باب التلازم بين حب الإنسان لما هو عاجل (الدنيا)، وعدم اكتراثه بما هو آجل (الآخرة).

فقد شنعت بهذا الخيار لدى المحبين للعاجلة آيتان، من سورة القيامة، في خطاب وعيدٍ افتتحته (كَلَّا) الزجر، متوجهٍ إلى من يسألون عن يوم القيامة مستهزئين : ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: 20-21].

كما شنعت بهذا الخيار، مرة أخرى آية من سورة الإنسان، حصل فيها تغيير في مفعول فعل الوذر، تمثل في إحلال يوم ثقيل محل الآخرة، وتأكد فيه معنى عدم الاعتداد بها في فعل الوذر، عن طريق إلحاق ظرف (وراءهم) به : ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾ [الإنسان: 27].

وجاء ذكر العاجلة مرة ثالثة في القرآن، مفعولاً لفعل الإرادة، وليس لفعل

1. مفردات ألفاظ القرآن، ص 862-863.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 206 06/12/2016 22:29:27

الحبِّ، كما هو الحال في الآيتين أعلاه : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءِ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً﴾ [الإسراء : 18]، ويقيم تشابه سياق الآية مع الآيتين أعلاه، علاقة تقاطع بين فعلي الحبِّ والإرادة، يقرب بين دلالتيهما دون أن يعني ذلك تطابقهما.

والعاجلة مفردة قرآنية، وردت في القرآن 29 مرة، وهي تختزن من جهة، عدمَ اعتداد كتاب الله بالدنيا، بالمقارنة مع الآخرة، ومن جهة أخرى، مَيْلَ الإنسان عموماً إلى الاستعجال في كل أموره، بمعنى طلبها قبل أوانها، كما قرر ذلك الراغب : العجلة طلب الشيء وتحرّيه قبل أوانه، وهو من مقتضى (الشهوة المذمومة)، ولذلك صارت (العاجلة) مذمومةً في عامة القرآن، حتى قيل : (العجلة من الشيطان)[1].

وتؤكد تصاريف فعل الاستعجال في القرآن، ما ذهب إليه الراغب، فهذه آية الأنبياء تبرز حب الإنسان للعجلة، وكأنه خلق من عجل، وباعتبار أن أوان ما يستعجل منه الكافرون آتٍ حتماً، من خلال إراءته تعالى آياته للناس في وقتها، فإنه طلب منهم ألا يستعجلوا مجيء ما هو آت : ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء : 37]، وخلق الإنسان من عجل، يعني : خُلُقَهُ لا خَلْقَهُ، كما تبين ذلك آية سورة الإسراء : ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء : 11].

والنهي عن الاستعجال الذي اختتمت به آية الأنبياء، تَوَسَّطَ آيَةَ سورة النحل بالمعنى نفسه، وهو إراءة الآيات، لكن بلغة إتيان أمره تعالى : ﴿أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل : 1].

وهذا النهي عن الاستعجال، مرده إلى غفرانه تعالى ورحمته الكثيرة

1. حديث أخرجه أبو يعلى، 4/206 (4240)، ورجاله رجال الصحيح.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 207 06/12/2016 22:29:27

بالناس، حيث أجل مؤاخذتهم على أعمالهم إلى يوم القيامة : ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف : 58].

لكن الكافرين غير المؤمنين بهذا اليوم، يطلبون مجيئه قبل أوانه تحدياً واستهزاء، فلا يؤدي استعجالهم هذا إلى تغييره تعالى أجله المُسمى، الذي سيرى الكافرون فيه العذاب، وقد أحاطت بهم جهنم : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت : 53-54].

وتتساءل آيتا سورتي الشعراء والصافات تساؤل استنكار، وبالصيغة نفسها، عن استعجال هؤلاء لعذاب الله : ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الشعراء : 204] [الصافات : 176].

وسيندم الكفار على استعجالهم هذا، حين يحل بهم فعلاً، سواء في الدنيا : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف : 24]، أم في الآخرة : ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات : 14].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 208 06/12/2016 22:29:27

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾
﴿بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾

كما جاء حب الكافرين للحياة الدنيا بلغة الاستحباب مرتين في القرآن، بمعنى الاستئثار الذي اختاره الراغب بقرينة دخول (علّى) على فعل الاستحباب[1]، وقد ورد فعل الاستحباب في سورة إبراهيم، في سياق وعيد للكافرين بالعذاب الشديد، حيث تم تعريفهم أولاً : باستحباب الحياة الدنيا، ثم بالصد عن سبيل الله، وابتغاء العوج، فاقتضى ذلك الحكم عليهم بالضلال البعيد : ﴿اللّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم : 2-3].

وورد فعل الاستحباب ثانياً : في سورة النحل في سياق وعيدٍ بالغضب، وبالعذاب العظيم، بسبب انشراح صدورهم للكفر، واستحبابهم الحياة الدنيا : ﴿وَلَكِن مَن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل : 106-107].

1. يقول الراغب في هذا المعنى : وحقيقة الاستحباب أن يتحرى الإنسان في الشيء أن يحبه، واقتضى تعديته بـ (على) معنى الإيثار، مفردات القرآن 215، ونقول : وهمزة الوصل والسين والتاء في (الاستحباب) تدل على الطلب.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 209 06/12/2016 22:29:27

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾
﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

وجاء حب الكافرين للحياة الدنيا أخيراً، بلغة الإيثار، بمعنى الاستئثار القريب من معنى الاستحباب، وقد عرفه الراغب بأنه : التفرد بالشيء من دون غيره، وقد تكرر ورود فعل الإيثار مرتين في القرآن :

أولاهما : في سورة الأعلى، في سياق التشنيع باختيار الكافرين الحصري لما هو قريب من الحياة الدنيا، تاركين ما هو خير وأبقى من الآخرة : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى : 16-17].

وثانيتهما : في سورة النازعات، حيث يظهر إيثار الحياة الدنيا بين الطغيان في الدنيا، والمصير إلى الجحيم، بلغة المأوى في الآخرة : ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات : 37-39].

تصاريفُ المَتَاع في القُرآن

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾

ونختم هذا العرض المقتضب لحب الكافر للدنيا، واستحبابها على الآخرة، بذكر تفرد آية سورة الرعد، بذكر فرح الكافرين بالحياة الدنيا، وهو في حقيقته فرح بمتاع لا يُعتدُّ به في جنب الآخرة، لنلاحظ كيف تكرر ذكر الحياة الدنيا مرتين في الآية : مرةً في وسطها من أجل الإخبار بفرح الكافرين بها، ومرة أخرى (في ختام الآية) لتقرير حقيقة هذه الحياة الدنيا، من جانب

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 210 06/12/2016 22:29:27

كونها مجرد متاع : ﴿اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد : 26].

و(مَتَعَ) مفردة تكرر ذكرها 72 مرة في القرآن، منها 37 مرة لفعلها بصيغه الثلاث : مَتَّعَ 18 مرة، وتمتَّع 12 مرة، واستمتع 6 مرات = 36، و 35 مرة لمصدره متاع.

وأصل المتوع الامتداد والارتفاع، كما ذكر ذلك الراغب في مفرداته، المتوع : الامتداد والارتفاع، يقال : متع النهار ومتع النبات، والمتاع : انتفاع ممتد، يقال : متعه الله بكذا، وأمتعه، وتمتع به، وكل موضع ذكر فيه (تمتعوا) في الدنيا فعلى طريق التهديد، وذلك لما فيه من معنى التوسع[1].

ورغم مجيء فعل المتاع ومصدره في سياقات تذكير بنعمه تعالى على عباده، بتمكينه إياهم من التمتع بحياتهم على الأرض، إلا أن الغالب من تصاريفه في القرآن، يأتي في سياقات تشنيع بتوسع الكافرين في هذا التمتع الموصوف صراحة بأنه (قليل) في عشر آيات، مقارنة بالخلود في العذاب، الذي ينتظرهم في الآخرة، نذكر أربعاً فقط من هذه الآيات : ﴿قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء : 77]، ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة : 126]، ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان : 24]، ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر : 8].

كما يُوسم بأنه متاع (مؤقت) 14 مرة، في عدة صيغ أهمها : صيغة (إلى حين) التي اختتمت بها ثماني مرات، نذكر منها ثلاثاً : ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة : 36]،

1. مفردات ألفاظ القرآن، ص757.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 211 06/12/2016 22:29:27

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء: 111]، ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: 98].

﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾

ولأن متاع الدنيا قليل فقد نهينا عن الاغترار بها، وبالشيطان الغرور، تقرر آيتان شبه متطابقتين نسقاً هذه الوصية الربانية، في سورتين مكيتين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: 5]، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: 33].

وهذا الاغترار ناشئ كذلك عن تصور الكافرين الخاطئ للحياة الدنيا، بأنها قائمة على اللعب واللهو، (حسب آية سورة الأنعام)، أو على اللهو واللعب (حسب آية سورة العنكبوت)، في تبادل للدور بين هذين العنصرين المهيمنين على قلوبهم وعقولهم، هيمنة تؤدي إلى نسيانهم الآخرة، التي هي خير لعاقبة الإنسان ومصيره: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 32]، ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64].

لابد من الانتباه إلى منهجية القرآن، في تشنيعه بخطأ وخطل وخطر رؤية الكافر للأشياء، حيث يتم عرض هذه الرؤية، بلغة تقريرية مؤكدة، هي لغة الاستثناء الحصري، وهي بعد القسم، من أشد أنواع التأكيد قرآنياً: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾.

لقد صُدِّرت الآيتان الكريمتان بهاتين الجملتين، لكنهما أُختتمتا، بلغة تأكيد أقوى (بلام قسم محذوف وبإن التوكيد ولام توكيدِ خبرها) تُلحّ، على

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 212 06/12/2016 22:29:28

خيرية الآخرة بلغة اسم التفضيل : (خير) في ختام آية سورة الأنعام، وبلفظ الحيوان، أي البقاء الأبدي[1]، في ختام آية سورة العنكبوت : ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾.

آيةُ سُورة الحَديد : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ ... وَتَكَاثُرٌ﴾

ولا نستطيع مغادرة دراسة المتاع، دون الوقوف عند آية سورة الحديد المنيرة، رغم عدم تضمنها فعل الحبِّ، وتتأتى قيمة هذه الآية من إبرازها بشكل متفرد مدى استغراق الكافرين في استئثارهم بالحياة الدنيا، تتميز الآية بتقديم تصورين للحياة الدنيا لدى الكافرين، في بدايتها وفي خاتمتها، يضيف التصور الأول (في بداية الآية)، إلى عنصري اللعب واللهو (المذكورين أعلاه في آيتي سورتي الأنعام والعنكبوت) ثلاثة عناصر أخرى هي الزينة والتفاخر والتكاثر، وبذلك تتفرد الآية بجمعها خمسة عناصر، هي أس وأساس استحباب الكافر للحياة الدنيا على الآخرة، أما التصور الثاني للحياة الدنيا (في خاتمة الآية)، فيؤكد ما قررته الآيات أعلاه، من كون متاع الحياة الدنيا غروراً، يشبه في دورته غيثاً أعجب الكفارَ نباتُهُ، سرعان ما يهيج ويصفر متحولاً إلى حطام، مثلٌ يقدم بدوره خير تعريف للغرور اعتقاداً وسلوكاً، من جانب كونه تعلقاً بوهم وسراب، عاقبته عذاب شديد للكافرين في الآخرة، وحرمانهم من مغفرته تعالى ورضوانه، لنقرأ آية سورة الحديد، متأملين في ترتيب هذه العناصر : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ

1. قدم الراغب في مفرداته معنيي لفظ الحيوان بعد أن ذكر أنه مقر الحياة : والحيوان مقر الحياة، ويقال على ضربين : أحدهما : ما له الحاسة، والثاني : ما له البقاء الأبدي، وهو المذكور في قوله عز وجل : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. مفردات ألفاظ القرآن، ص 269.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 213 06/12/2016 22:29:28

يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20].

في العرض السريع الذي نقدمه أدناه لمدلولات هذه العناصر، نحاول بيان مدى قِصَرِ نَظَرِ وبَصَرِ الكافرين في رؤيتهم للحياة الدنيا:

1) لعب: أول هذه العناصر (اللعب) الذي ورد في القرآن 20 مرة، وأصله حسب الراغب، من اللُّعَاب: أصل الكلمة من اللُّعاب، يقال: سال لعابه، ولعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً[1]، وهو مفردة غير كثيرة التوارد في القرآن، جاء في سياقات تشنيع في جل توارداته، كما تبرز ذلك علاقاته مع غيره من المفردات، فقد جاء نقيضاً لـ (الحق) في ثلاث آيات، نذكر منها آية سورة الدخان: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: 38-39].

لكن اللافت في تصاريف (اللعب) علاقات تجاوره وتعاضده مع أربع مفردات سوء، نذكر منها (اللهو)، فقد تلازم مع اللهو في سبع آيات ذكرنا منها ثلاثاً أعلاه، ونضيف إليها أدناه آيتين، تكرر فيهما تبادلهما مكانيهما، دلالة على تقارب دلالتيهما الشديد: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: 70]، ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: 51].

كما تجاور مع لفظ (الخوض) في خمس آيات، نختار منها ثلاثاً، تعلق فيها الخوض واللعب بوعيده تعالى، بلغة الوذر: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: 42] [الزخرف: 83]، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي

1. مفردات ألفاظ القرآن، ص 741.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 214 06/12/2016 22:29:28

خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91].

2) لهو : وثاني هذه العناصر (اللهو)، وهو قليل التوارد في القرآن، وقد رأينا كيف تلازم مع اللعب في سبع تواردات له من أصل 11 أحد عشر تواردًا له في القرآن، وقال الراغب في تعريفه : اللهو ما يُشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، ويعبر عن كل ما به استمتاع بـ (اللهو)[1].

3) زينةٌ : وثالث هذه العناصر (الزينة)، والتي تعدّ أكثر هذه العناصر الخمسة حضوراً في القرآن، حيث وردت في 44 موضعاً، معظمها لفعلها : زيَّن 32 مرة، ثم لمصدره المؤنث : زينة 11 مرة، ويأتي غالب تواردات هذه الكلمة في سياقات تشنيع بسوء عمل الإنسان 17 مرة، هذا (العمل) نتيجة رؤية خاطئة للأشياء، يدفعه إلى تبنيِّها وَهمٌ يُجّمل له عمله السيئ فيراه حسناً، كما قال تعالى في آية من سورة فاطر : ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: 8]، والإنسان لا يتبنى ما يتبنى، دون سابق رغبة آثمة في فعل ما يريد، ولذلك نرى تزيين سوء العمل، يترافق في آية من سورة محمد صلى الله عليه وسلم مع اتباع الأهواء : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: 14].

وإذا ذكر تزيين سوء العمل مبنياً للمجهول، كما نرى من الآيتين أعلاه، فإن القرآن يُصرِّح في خمسة مواضع، أن هذا التزيين من عمل الشيطان، اخترنا منها آيتي سورتي الأنعام والنمل، حيث يترافق (التزيين) مع (قساوة القلب) في الأولى : ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 43]، ويترافق في الثانية مع (الصدود)

1. مفردات ألفاظ القرآن، ص 748.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 215 06/12/2016 22:29:28

و(انعدام الهدى) : ﴿وَجدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل : 24].

ويّشِي ذكر رؤية الكافرين الخاطئة للأشياء، واتباعهم أهواءهم، وقسوة قلوبهم، وعدم هداهم، بتعلق (التزيين) أساساً بـ (القلب)، كما تصرح بذلك آية الفتح، التي ترافق فيها ذكر التزيين في قلوب المنافقين، مع سوء ظنهم، وحال البوار التي هم عليها : ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً﴾ [الفتح : 12].

كان ذلك تشنيع القرآن بتزيين سوء العمل، وأما تشنيعه بحب الإنسان للحياة الدنيا وزينتها، فقد تكرر 10 مرات، كما هو الحال في آية سورة البقرة، حيث يترافق تزيينها لدى الكافرين مع سخريتهم من المؤمنين : ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة : 212].

وتتميز آية سورة القصص، بتجاور المتاع مع الزينة، كمفعولين (منطقيين) لفعل إتيانه تعالى، الذي جاء مبنياً للمجهول، لكون فاعله معروفاً، ويشي هذا التجاور بعدم ديمومة المتاع والزينة لتعلقهما بالحياة الدنيا، بينما يتميز ما أعدَّه تعالى للمؤمنين العاقلين في الآخرة بخيريته وديمومته : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص : 60].

وعليه، فإن التشنيع بالتزيين (فعلاً)، والزينة (مصدراً)، يشمل ما مجموعه 27 تواردا من أصل 44 تواردا لهذه الكلمة، أما بقية تواراداتهما، وهي 17 تواردا، فجاءت في سياقات بعضها (سلبي)، ولا سيما ما تعلق منها بإرادة

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 216 06/12/2016 22:29:28

الإنسان لزينة الحياة الدنيا، بحدود 9 مرات، وبعضها (إيجابي) بفضل غلبة معنى (زينة الله) تعالى عليها، ولا سيما ما تعلق منها بزينة السماء 5 مرات، وزينة الأرض 3 مرات.

لكن سياق التزيين الأكثر إيجابية، كان في آية سورة الحجرات، لتعلقه بالإيمان، وإسناده إلى الله تعالى، وهي الآية التي وقفنا عندها في الجزء الأول من هذه الموسوعة، لتفردها بذكر تحبيبه لنا تعالى ما ينفعنا، وتكريهه لنا ما يضرنا، وفي الآية تأكيد ثانٍ، بعد آية سورة الفتح، لكون القلب محل التزيين اعتقاداً قبل أن يكون عملاً بالجوارح: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: 7].

4) تفاخر بينكم: ورابع عناصر تفضيل الكافرين للحياة الدنيا، هو (التفاخر) الذي لم يذكر في القرآن إلا في آية سورة الحديد، ونلاحظ هنا مجيء (تفاخر) على وزن تفاعل الدالِّ على التشارك في الفخر، الذي أكده تلازمه مع ظرف (بينكم)، فهو إذاً تفاخرٌ بينيٌّ جماعيٌّ سيئٌ اتفقت ملة الغافلين عن آيات الله على قبوله، وكنا قد وقفنا عند ثلاث تواردات لعدم حبه تعالى لكل مختال فخور.

5) تكاثر في الأموال والأولاد: وخامس عناصر استئثار الكافرين بالحياة الدنيا، هو (التكاثر) الذي جاء، هو الآخر، على وزن تفاعل، بمعنى التشارك تنافساً وتسابقاً في الاستكثار من الأموال والأولاد، وإذا جاء التلازم بين التفاخر والتكاثر تصريحاً بلفظيهما في آية سورة الحديد، فإنه مؤكد سياقاً وبلفظ اسم تفضيل الكثرة في آيتين من سورة سبأ، على لسان مُترفي القرى

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 217 06/12/2016 22:29:28

جميعها، التي أهلكها الله تعالى بسبب كفرها برسالات الله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: 34-35].

ولعلَّ ما يُكمِّل صورة التشنيع، باستغراق الإنسان الغافل عن الآخرة، هو توارد لفظ (التكاثر) الثاني في سورة سُميت باسمه، لافتتاحها بفعل الإلهاء : (أَلْهَاكُمُ) وفاعله (التكاثر) مطلقاً دون تحديد مفعوله لأنه معروف، إنه استغراق يستمر حتى الموت الذي عبر عنه بزيارة المقابر : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: 1-2].

تصاريفُ الدُّنيا في القُرآن

ضمن نطاق بيان خيرية الآخرة بالمقارنة مع الدنيا في القرآن، وضمن نطاق تشنيعه بحب الكافر للحياة الدنيا، وفرحه بها، واستئثاره بها، يمكننا قراءة جل تصاريف (الدنيا) 119 تواردا بهذا المعنى، من أصل 123 تواردا لهذا اللفظ في القرآن، بينما جاءت في البقية القليلة الباقية منها وهي 4 تواردات، ثلاث مرات وصفاً للسماء القريبة منا، حيث زينها تعالى بنجوم وكواكب، تضيء فيها ضياء المصابيح : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: 6]، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [فصلت: 12]، ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: 5]، ومرة وصفاً للعدوة القريبة مقابل البعيدة : ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ [الأنفال: 42].

يكشف لنا هذا الاستعمال المادي للفظ (الدنيا)، أصل معنى (القرب) في الدنو، الذي اشتُقَّ منه لفظ الدنيا، كاسم تفضيل على وزن فُعلى، قُرْبٌ تُؤكِّدهُ خمس آيات مشحونةٍ بهذا المعنى المادي نفسه، حيث نعثر عليه في آية سورة النجم عبر فعل دنا : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: 8]، وفي أربع آيات

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 218 06/12/2016 22:29:28

أخرى عبر اسم فاعله دانٍ ودانية: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: 54]، ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 23]، ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [الأنعام: 99]، ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ [الإنسان: 14].

يساعدنا هذا الكشف، على فهم عملية الانتقال، التي أجرتها سياقات قرآنية معينة على أصل هذا المعنى، ووُجِّه من الدنو في المكان (أي قُربه)، إلى الدنيّة في المكانة (أي رذالتها)، وقد أحسن الراغب في مفرداته بيان مختلف درجات استعمال اسم التفضيل (أدنى) في القرآن، من خلال أربع مقابلات بين استعمالاته المادية والمعنوية، يهمنا منها ثلاثة، وضعنا تحتها خطاً: الدنوُّ القربُ، ويستعمل في المكان والزمان والمنزلة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [الأنعام: 99]، ويعبر بالأدنى تارة عن الأصغر، فيُقابل بالأكثر، نحو: ﴿وَلَا أَدْنَى مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ﴾ [المجادلة: 7]، وتارة عن الأرذل فيُقابل بالخير نحو: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 61]، وعن الأول فيُقابل بالآخر: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: 11]، وتارة عن الأقرب فيُقابل بالأقصى نحو: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: 42][1].

ولو أن الراغب راعى في هذا الانتقال التراتب بين ما هو مادي (أي ما هو أقرب مكاناً وزماناً)، وما هو معنوي (أي ما هو أقل قيمة)، لحاز قصب السبق في ترتيبه.

ونقدم أدناه جدولاً في توزع تواردات لفظ الدنيا، يراعي الأنساق التي جاء فيها هذا اللفظ، حيث تبرز الإحصائيات أربع أحوال لتوارداتها، فقد جاءت الدنيا أولاً مفردة، أي وحدها دون ذكر صريح للآخرة، أو يوم القيامة

1. مفردات ألفاظ القرآن، ص 318-319.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 219 06/12/2016 22:29:28

معها 33 مرة، ضممنا إليها ثانياً إحدى عشرة آية، تضمنت ذكر الآخرة، بذكر ما ينم إليها، وصيغ التضمين هنا متعددة، وهي جزء لا يتجزأ من منطق القرآن، الذي يُلحُّ كل الإلحاح على مجيء اليوم الآخر، وبذلك يكون مجموع ذكر الدنيا ظاهرياً مفردة 44 مرة، كما جاءت الدنيا ثالثاً مرفقةً صراحةً بالآخرة 49 مرة، وبيوم القيامة 10 مرات، وجاءت الآخرة أخيراً معطوفة على الدنيا مباشرة دون فاصل 16 مرة، أي بما مجموعه 73 تواردًا للدنيا من أصل 119 تواردًا لها بهذا المعنى في القرآن :

أحوال توارد الدنيا	الدنيا (فقط)	الحياة الدنيا	المجاميع
الدنيا مفردة	الدنيا 3 مرات + 1 مرة مع تضمين للآخرة	الحياة الدنيا 30 مرة + 10 مرات مع تضمين للآخرة	المجموع : 44 تواردًا
الدنيا مقابل الآخرة	الدنيا 23 مرة	الحياة الدنيا 26 مرة	المجموع : 49 تواردًا
الدنيا مقابل يوم القيامة	الدنيا 3 مرات	الحياة الدنيا 7 مرات	المجموع : 10 تواردات
الدنيا والآخرة	الدنيا 16 مرة	....	المجموع : 16 تواردًا
المجموع العام			119 تواردًا

ونلاحظ من الجدول أعلاه مجيء لفظ الدنيا وحده تارةً، ومجيئه وصفاً للحياة تارةً أخرى، حسب التوزيع التالي :

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 220 06/12/2016 22:29:28

أحوال توارد الدنيا	الدنيا	الحياة الدنيا
الدنيا مفردة	4 مرات	40 مرة
الدنيا مقابل الآخرة	23 مرة	26 مرة
الدنيا مقابل يوم القيامة	3 مرات	7 مرات
الدنيا والآخرة	16 مرة	...
المجموع العام	46 مرة	73 مرة

تبرز هذه الإحصائيات وظيفة لفظ (الدنيا) وصفاً (نعتاً) للحياة الأولى القريبة، التي نعيشها على الأرض، وذلك في الغالب من تواردات لفظ الحياة : 73 مرة من أصل 78 تواداً، هي مجموع تواراداته في القرآن، حيث لم يأت لفظ الحياة مفرداً إلا في خمسة من هذه التواردات، جاء في ثلاثة منها نقيضاً للموت، أو الممات : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك : 2]، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً﴾ [الفرقان : 3]، ﴿إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء : 75].

ورغم ارتباط نعت الدنيا بموصوفه الحياة في 73 من تواردته، إلا أن كثرة استعماله في القرآن، ساعدت على تحوله إلى اسم مستقل، وبالتالي على حلوله محل موصوفه الحياة، في أكثر من ثلث تواراداته : 46 مرة من أصل 119 مرة، وذلك من باب سكوتنا في الكلام عما هو معلوم جداً.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 221 06/12/2016 22:29:28

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾

وإذا تميزتِ آية سورة الحديد بكشف حقيقة حب (المتاع) عند الإنسان، من خلال إبراز خمسة (عناصر) تُمثِّل مكونات (شبه عقدية)، ينبثق عنها حبه لـ (الحياة الدنيا)، ولا سيما (اللعب واللهو والزينة)، فإن آية (حب الشهوات) من سورة آل عمران، تتميز بدورها بإبرازها ستة عناصر (اجتماعية اقتصادية) لهذا الحبِّ، (يجمعها جميعاً) حُكم القرآن عليها بـ (أنها شهوات)، تلتقي مع عناصر آية سورة الحديد الخمسة، في كونها أساساً في سلوك (التفاخر والتكاثر) لدى الإنسان (المُحبِّ للعاجلة)، وقد ذُكرت جميعاً بلغة الجمع، حتى ولو منع استعمال بعضها عند القوم التعبير عنها بالجمع، في كلمات الذهب والفضة والحرث: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14].

يهمنا أولاً: (فعل التزيين) الذي صُدِّرت به الآية، وجاء بصيغة المبني للمجهول، التي جعلت من (الناس) (أي الجار والمجرور) مفعوله غير المباشر، ومن (الحبِّ) نائب مفعوله ذا الدلالة الغامضة، لولا إضافته إلى الشهوات التي وضحت ماهية هذا التزيين.

ويهمنا ثانياً: (التذكير بواقع هذا التزيين)، أي أنه (عمل القلب)، كما رأينا ﴿وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الفتح: 12]، بما يكشف علاقته بالشهوات، حيث هي علاقة تسويغ له من باب تجميل سوئه، وهو غير جميل عند الله، كما رأينا في آية سورة فاطر: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 222 06/12/2016 22:29:29

يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر: 8]، لكونه تفضيلاً لشهوات ومتاع الحياة الدنيا على خير الآخرة.

تصاريفُ الشَّهوات في القُرآن:

ورد لفظ (الشهوات) وهو جمع مؤنث سالم ثلاث مرات في القرآن مقابل مرتين لمفرده شهوة، و8 مرات لفعله (اشتهى) المستعمل في القرآن، أي بما مجموعه 13 تواردا لهذه الكلمة ومشتقاتها في القرآن، وقد عرف الراغب أصل الشهوة بأنه: نزوع النفس إلى ما تريده، وذلك في الدنيا، وهي ضربان: (صادقة وكاذبة)، فالصادقة، ما يَختلُّ البدن من دونه كشهوة الطعام عند الجوع، والكاذبة، ما لا يختل البدن من دونه[1].

ويفسر لنا هذا التعريف تعدد طبيعة السياقات التي جاءت فيها مشتقات هذه المفردة الثلاثة، فما كان كاذباً من هذه الشهوات (وهو سلبي)، جاء في سياقات تشنيع، كما هو حال تواردات لفظ الشهوات ومفرده شهوة، بينما جاء غالب تواردات فعل الاشتهاء ست تواردات في سياق (إيجابي) واحد، يتمثل في توفر ما يطلبه أهل الجنة من خيراتها.

نبدأ بثلاثة تواردات لفعل الاشتهاء، أسند فيها إلى الأنفس بالتجاور مع فعل الدعوى (بمعنى الطلب) في آية سورة فصلت، ومع لذة الأعين في آية سورة الزخرف، ومع الخلود في آية سورة الأنبياء: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: 31]، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: 71]، ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: 102].

هذا السياق (الإيجابي) لأقل من نصف تواردات مشتقات هذه الكلمة، يساعدنا على فهم (سلبية سياقات) الآيات السبع المتبقية، نبدأ بتواردين

1. مفردات ألفاظ القرآن، ص 468-469.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 223 06/12/2016 22:29:29

آخرين للفظ الشهوات، يقيم التوارد الأول : مقابلة بين ما يريده تعالى للناس من خير (بلغات الهدى والتوبة والتخفيف)، وما يريده متبعو الشهوات من شر (بلغة الميل، أي : الزيغان) في عاقبة أمرهم : ﴿يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء : 26-28].

أما التوارد الثاني للشهوات : فيأتي في سياق تشنيع بمتبعي الشهوات، من خَلْفٍ سيئٍ أضاع الصلاة، عاقبته غي سيلقونه حتماً : ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ [مريم : 59].

أما مفرد الشهوات : شهوة، فجاء مرتين في سياق واحد، هو التشنيع بنوع هو الأسوأ من اتباع الشهوات لدى قوم لوط عليه السلام، ألا هو إتيان الرجال شهوة من دون النساء : ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف : 81]، ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل : 55].

نعود إلى آية سورة آل عمران، من أجل استعراض عناصر الشهوات الست، في سياق تشنيع بتفضيل محبيها لها، على حُسن المآب في الآخرة المُعدِّ للمتقين في الآخرة، كما بينته وفصلته خاصة الآية التي تلي هذه آية حب الشهوات مباشرة، نذكر هذه الآية بين يدي استعراض هذه العناصر، كيما يتمكن المؤمن وغير المؤمن من فهم منطق القرآن الأُخروي غير الغافل عن الدنيا : ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران : 15].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 224 06/12/2016 22:29:29

أولا : النساءُ : نبدأ بأول هذه العناصر، أي النساء، وتمثل شهوة الجنس، وقد صُدِّرت هذه الشهوات بها، من باب ذكر ما هو معروف فطرةً، ليس أكثر، لأن الغالب من تواردات لفظ النساء 26 مرة، يتعلق بسياقات (احتشام واحترام)، تنصبُّ على (الزواج والطلاق) خاصة، ولم تُذكر النساء في سياق شهوة إلا ضمن نطاق الزواج، وبلغات مُحتشمةٍ، هي (لغة الطيب)، كما هو الحال في آية سورة النساء : ﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾ أو (لغة الحُسنِ)، كما في آية سورة الأحزاب : ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب : 52]، أو (لغة قضاء الوَطَرِ)، كما في آية أخرى من السورة نفسها : ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً﴾ [الأحزاب : 37]، أو لغة (الملامسة)، كما في آيتي سورتي النساء والمائدة : ﴿أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء﴾ [النساء : 43] [المائدة : 6].

ثانيا : البنُون : ثم يأتي البنون الذين ورد ذكرهم في القرآن 13 مرة، ويُلاحظ عدم ورود لفظ (بنين) وحده سوى مرة واحدة، بينما جاء ست مرات مقترناً بـ (البنات) في سياق تشنيع بافتراء المشركين ولداً لله من البنات، وهم الذين يُفضِّلون البنين على البنات، وكان موضوع التشنيع هو : هل البنات لله ولهم البنون اصطفاءً ؟ : ﴿وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام : 100]، ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً﴾ [الإسراء : 40]، ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [الصافات : 153]، ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف : 16]، ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ [الصافات : 149]، ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ [الطور : 39].

لكن ما يهم بحثنا هو بيان تفضيل محبي الحياة الدنيا للبنين في سبع

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 225 06/12/2016 22:29:29

آيات، جاء فيها البنون متلازمين مع المال، في سياقات متعددة : فهذه آية سورة الكهف تنقل لنا كيف يعدّ المال والبنون زينة الحياة الدنيا عند الكافرين، مقابل الباقيات الصالحات عند الله، حيث هي خير ثواباً وأملاً : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف : 46].

وجاء ذكر المال والبنين كذلك، في سياق تشنيع واضح بكفر (بمعنى عدم شكر) اثنين من الملأ المُترفين، من مشركي مكة، قابلوا نعمة الله بمناصبة رسوله العداوة، وذلك في أوائل ما نزل من القرآن : ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم : 14-15]، ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً﴾ [المدثر : 11-13].

ويُذَكِّر تعالى هؤلاء المترفين، بأن أموالهم وبنيهم، ما هي إلا إمداد منه تعالى، وقد تكرر هذا التذكير في ست آيات مكية، نذكر منها ثلاثاً فقط : ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح : 12]، ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء : 6]، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ [المؤمنون : 55].

ثالثا : قناطيرُ الذَّهب والفضَّة : ثم تأتي الأموال ثالثةً، في ترتيب هذه الشهوات ممثلة بأكبر موازينها، (القناطير المُقنطرة)، مبالغة تترجم مدى حب التكاثر والتفاخر عند الناس في هذا المجال، ولا سيما، بذكر خير نوعين من الأموال : (الذهب والفضة)، وهما وإن ذُكرا هنا في (سياق تشنيع)، فلأن الكافرين يجعلونهما موضوع تفاخر، ونسيان للآخرة، وليس حطاً من قيمتهما، فمن أصل تواردات الذهب القليلة في القرآن 9 مرات فقط، ومن أصل تواردات الفضة الأقل 6 مرات فقط، جاءت معظم تواردات اللفظين في (سياقاتِ ثناء)، نذكر منها فقط، ما جاء في وصف ما أعده تعالى لأهل الجنة

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 226 06/12/2016 22:29:29

من نعيم 3 مرات للذهب، و 3 مرات للفضة، وتتعلق بـ(الأساور وبالصحاف والأكواب وبالآنية والقوارير) : ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف : 31]، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج : 23] [فاطر : 33]، ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ [الإنسان : 21]، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف : 71]، ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ [الإنسان : 15-16].

ومما يبرز قيمة الذهب المادية مجيئه معياراً عالياً لافتداءٍ مستحيل، يزيده الله استحالة، وذلك في سياق تيئيس الكفار المترفين، من جدوى أموالهم يوم القيامة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران : 91].

وعليه، فالتشنيع يخص سلوكات لا يرضى عنها تعالى، مثل كنز الأحبار والرهبان للذهب والفضة، فقد عدّه القرآن أكلاً لأموال الناس بالباطل : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة : 34].

وانصبَّ التشنيع في آية سورة الزخرف على رؤية المترفين المادية، لقيمة الرسالات من خلال الذهب، لا من خلال ما تأتي به من أخلاق وشرائع : ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف : 53].

رابعا : الخيل المُسوَّمة : وتتميز آية الشهوات بذكر شهوة امتلاك خاص بالعرب، تتمثل في الخيل المسومة (أي المعلمة بعلامات تمييزاً و تفضيلاً)، وهي عزيزةٌ على العرب خاصةً وغير العرب عامةً، ولم تُذكر الخيل في القرآن سوى ثلاث مرات، في آية الشهوات موضوع دراستنا، وفي آية النحل حيث

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 227 06/12/2016 22:29:29

ذُكرت الخيل مع غيرها من الدواب المفيدة للإنسان، كمطايا وزينة، في سياق بيانه تعالى إنعامه عليه : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8]، لكنها في آية سورة الأنفال، من شارات القوة والرهبة : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60].

وذُكرت الخيل أخيراً بلفظ أحسنها وأجودها لدى القوم، وهي : (الجياد الصافنات) التي تسبب جمال عرضها، في ذهول سليمان عن صلاته، فاعترف بهذا الذهول بلغة (حب الخير)، وكأن (الخيل) من هذا (الخير المادي) الذي يجعل المؤمنين (وهم بشرٌ) يذهلون عن ربهم : ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ [ص: 31]، ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: 32]، ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: 33].

خامسا : الأنعامُ : ثم يأتي خامساً، ذكر الأنعام موضوع شهوة النعمة المذكور كثيراً في القرآن 32 مرة، وجاءت عموماً، في سياقات إنعامٍ منه تعالى على عباده، كما بين ذلك الراغب : والنَّعَمُ مختص بالإبل، وجمعه أنعام، وتسميته بذلك لكون الإبل عندهم أعظم النعم، لكن الأنعام تقال للإبل والبقر والغنم، ولا يقال لها أنعام حتى يكون في جملتها الإبل[1].

ولكون الأنعام من النعم، حلّت محل المال في آية سورة الشعراء، في تجاورها مع البنين : ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء: 133].

ويتكرر ذكر منافع الأنعام في القرآن، لكونها من إنعامه تعالى على عباده، وهاتان آيتان من سورة النحل، تذكراننا بمنافع هذه الأنعام بعدة

1. مفردات ألفاظ القرآن، ص815.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 228 06/12/2016 22:29:29

لغات، إلى درجة جعلها عبرة لنا : ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل : 5]، ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل : 66].

لذلك، يدعونا تعالى إلى ذكر اسمه شكراً لإنعامه الكبير هذا : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج : 34].

ومن اللافت، في تعظيم القرآن لنعمة الأنعام، قَرنُه جعل أزواج لنا من أنفسنا، بجعله أزواجاً من الأنعام، في آية سورة الشورى : ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً﴾ [الشورى : 11].

ومن اللافت كذلك جعل ما على الأرض من زرع، متاعاً لنا ولأنعامنا، في ثلاث آيات : ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة : 27]، ﴿مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات : 33] [عبس : 32].

ومع ذلك، فالإنسان أعلى من الأنعام وأغلى، بدليل ذكر انحدار الكافر الغافل إلى مستوىً، دون مستوى الأنعام، في ضلاله في ثلاث آيات، تمثل سياق التشنيع الوحيد، ليس بحق الأنعام، وإنما بحق الإنسان الغافل : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف : 179]، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان : 44].

ويعيبُ القرآن على المترفين كثرةَ تمتعهم، وأكلهم مشبهاً إياهم بالأنعام : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد : 12].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 229 06/12/2016 22:29:29

سادسا : الحرثُ : أما الحرث 11 مرة، فيأتي سادساً، وآخر شهوة تكاثر وتفاخر، ومن الملاحظ ترافقه مع الأنعام مرتين، في سورة الأنعام : ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ [الأنعام : 136]، ﴿وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام : 138].

والحرث في القرآن يُستعمل للأرض المحروثة، فهو بمعنى الأرض امتلاكاً، كما قال الراغب : الحرث إلقاء البذر في الأرض، وتهيئتها للزرع، ويسمى المحروث حرثاً، قال تعالى : ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ [القلم : 22][1].

وبهذا المعنى، أي معنى البذر، توافق ذكر الحرث ملازماً للنسل : ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة : 205].

وبهذه الصورة عُدَّ رَفَثُ الرجل إلى زوجته حرثاً ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة : 187]، لتصبح النساء أنفسهن حرثاً لأزواجهن : ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة : 223].

وبهذه الترقية لمعنى الحرث، جاء اعتبار عمل المؤمن، حرثاً للآخرة، زيادة على حرثه للدنيا، وإن اكتفاء الكافر بعمارة الدنيا، ليَحرِمُهُ من عمارة آخرته : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى : 20].

لقد عُدّت هذه الثروات جميعاً شهوات في بداية الآية، ثم حكم عليها في ختام الآية، بأنها متاع الحياة الدنيا، أي قليلة، وذلك بمقارنتها بديمومة ما عند الله من خير الآخرة، التي ذُكرت هنا بمؤدّاها لا باسمها، ألا وهو حسن المآب : ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾.

1. مفردات ألفاظ القرآن، ص226.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 230 06/12/2016 22:29:29

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾
﴿وَإِنَّهُ لحُبِّ الخَيرِ لَشَدِيْد﴾
﴿إِنِّي أحببتُ حُبَّ الخير عَن ذِكرِ رَبِّي﴾

وعلاوة على تشنيع الآيات أعلاه بالتكاثر والتفاخر بالمال والأولاد، شنَّعت عدة آيات مكية بكثرة حب مترفي مكة للمال، وللمال وحده، نذكر منها أولاً : آية سورة الفجر التي أكدت هذا الحبَّ، بلغة الـ (جَمْ)[1]، ليجسده في الآية التالية كثرة أكلهم (التراثَ)[2] بلغة الـ (لَمّ)[3]، وليسبقهما في الآيتين قبلهما تشنيع بعدم إكرامهم اليتيم، وعدم حضهم على طعام المسكين : ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾ [الفجر : 17-20].

وتصور آية سورة الهُمَزة ثانياً : مدى حب المال، بلغتي الجمع والتعديد، لدى بخيل من هؤلاء المترفين الموسوم بكونه هُمَزَة لُمَزَة، يتوهم أن ماله يُؤمِّنُ له الخلود : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة : 1-3].

ويفاخر آخَرُ ثالثاً : بماله المتراكم بعضه فوق بعض في آية سورة البلد : ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً﴾ [البلد : 6].

1. الجم بمعنى الكثرة، وأصله من جمة الماء أي اجتماع معظمه وعدم سيلانه.
2. الإرث، وهو ما يخلّفه الميّت لورثته، تضمون نصيب غيركم إلى نصيبكم.
3. الـ (لَّـــمُ) بمعنى الجمع، نقول : لمَّ الشيء، جمعه جمعاً شديداً، وأخذه بأجمَعِه، ونقول : لُمَّ فلان : أصابه طرف من جنون.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 231 06/12/2016 22:29:29

لكن هذا المال، بمنظور العاقبة والآخرة، لن يضمن نجاة هؤلاء الكفرة من المترفين، كما قررت ذلك آيتا سورتي الليل والمسد: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: 11]، ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: 2].

وسيقرّ كل منهم يوم القيامة بذلك بعد أن يُؤتى كتابه بشماله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ﴾ [الحاقة: 25-29].

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ

وجاء حب الإنسان للمال كذلك بلفظ الخير أكثر من مرة، ووُصف بالشدة في سورة العاديات، بعد بيان كنود هذا الإنسان لربه كنوداً معلناً غير مكتوم: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 6-8].

والخير مفردة وردت 174 مرة في القرآن، بدلالاتٍ وفي سياقاتٍ كان الغالبُ فيها معنى التفضيل بين شيئين (أي اسم تفضيل بلغة أفعل)، فهو هنا صفة (أو وصف عند الراغب)، ويأتي بعد ذلك استعماله بمعنى الخير المُطلق نقيض الشر، ومنه (الخير) الذي أنزله تعالى على سيدنا محمد ﷺ، وهو هنا اسم ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدعُونَ إلى الخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104]، ومنه وروده بمعنى المال في إحدى عشرة آية فقط، منها آية (سورة العاديات) أعلاه، وآية (سورة ص) التي وردت في القرآن على لسان سليمان عليه السلام: ﴿إِنِّي أحببتُ الخير عن ذكر رَبِّي﴾ [ص: 32]، والخير هنا هو الخيل، وهو المال، الذي فُتن به سليمان عليه السلام حين آثر حبه، وكلا الآيتين جاءتا في سياق التشنيع بحب المال.

ومنها كذلك أربع تواردات للخير، جاء فيها اسماً نكرة في سياق إنفاق، ثلاث منها بصيغة: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ الواردة في آيتين متجاورتين من

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 232 06/12/2016 22:29:30

سورة البقرة : ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 272]، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 273].

واستُعمِل لفظ (خير) في الميراث نكرة مفعولاً به لفعل الترك في سورة البقرة كذلك : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 180].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 233 06/12/2016 22:29:30

من ثوابت القرآن الكريم (6)

﴿إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ... أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾

حُبُّ القرابة والمَال

لما ننتهِ بعدُ من دراسة حب المال والبنين، ولكننا سنتطرق إليهما في سياقين آخرين، سياق خاصٍّ أول : هو الجهاد في سبيل الله، وسياق عام ثانٍ : هو الولاء للقربى، يفرض هذان السياقان لغتين : لغة (معنوية)، تتمثَّل في حبِّ الوالدين والأبناء، بالإضافة إلى الأقرباء، ولغة (مادية)، تتمثل في حُبِّ التجارة والمساكن، بالإضافة إلى المال.

تنطلق هذه الدراسة من آية سورة التوبة، التي تشنع تشنيعاً شديداً بتفضيل أيَّةِ رابطةٍ، أو أيِّ مالٍ على الله ورسوله، وكما رأينا القرآن يُلِحّ على خير الآخرة بالمقارنة مع الحياة الدنيا، نراه هنا يلح الإلحاح نفسه على ضرورة تقديم تفضيل حب الله ورسوله على ما سواهما، لنقرأ الآية أولاً : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة : 24].

تُقيْمُ الآية قائمة بمراتب القرابة، وبأنواع المال، مع تقديم للقرابة على المال، وتشتمل القائمة على ثماني (محببات) للناس هي خمس مراتب قرابة (آباء، ثم أبناء، ثم إخوان، ثم أزواج، ثم عشيرة)، ثم ثلاثة أنواع من

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 234 06/12/2016 22:29:30

الممتلكات (أموال ثم تجارة ثم مساكن)، وقد عُرِضت في سياق وعيد (جاء بلغة تَربّص) بتفسيق محبيها وحرمانهم من الهدى، إذا بلغ حبها درجة إيثارها على الله ورسوله وجهاد في سبيله.

ولا ننسَ أن هذه الآية تأتي تبياناً وتفصيلاً، لما أجملته الآية قبلها مباشرة، من نهي عن اتخاذ الآباء والأبناء أولياء في حال استحبابهم الكفر على الإيمان، حيث يحكم تعالى على من تولى هؤلاء بكونه من الظالمين، نلاحظ هنا ثالث توارد لفعل الاستحباب في القرآن : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة : 23].

وموضوع الولاية كبير جداً، ولا نخوض فيه إلا من زاويته الرئيسة، ونعني بذلك أن الله هو الولي، وولي المؤمنين خاصة، وبالتالي فإن ولاءهم ينبغي أن يكون له في المقام الأول، وتظهر آية من سورة البقرة مدى تعلق العرب بآبائهم، حتى إن القرآن يطلب من الحجاج المؤمنين، أن يذكروا الله كما يذكرون آباءهم، بل أكثر من ذلك بعد قضائهم مناسك الحج : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُو اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾ [البقرة : 200].

وتأتي آية سورة المجادلة على خط آية سورة التوبة نفسها، باستبعادها بلغة النفي وهو ضمنياً نهيٌ، (وكذلك هو وصف لصيقٌ بالإيمان، فإن انتفى هذا الوصف انتفى بالضرورة لصيقه الإيمان)، موادَّةَ المؤمنين من حاد الله ورسوله : ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة : 22].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 235 06/12/2016 22:29:30

ورغم الاختلاف بين الآيتين في سرد أنواع الأموال، إلا أن تشابههما في سرد مراتب القرابة لا تُخطئه العين، تشابه تعززه وحدة السياق، فهناك (نهيٌ عن موالاة الكفار)، وهنا (نفيٌ لموادتهم)، ولو كانوا في أعلى مراتب القرابة :

آية التوبة : ﴿إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ (خمس مراتب).

آية المجادلة : ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (أربع مراتب)

وبين (الموالاة والموادّة) أكثر من جناس جزئي، حيث يبرز سياق الآيتين بوضوح تقاطعَ دلالتي فعلي (الموادّة[1] والحبِّ)، ولا سيما مع حضور (فعل المحادَّة نقيضاً لفعل الموادّة).

ولا يعني تفضيل الله تعالى ورسوله نفياً للقرابة، أو حطاً من قيمتها، وإنما يعني ذم جعل أي حب أكبر من حب الله أو أشد، لنتذكر آية حب الأنداد التي وقفنا عندها في الجزء الأول من هذه الموسوعة : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلَّهِ﴾ [البقرة: 165]، (لا تنفي صيغة التفضيل صرفَ الحبِّ إلى ما هو أدنى، ولا يظهر نفي الحبِّ لما هو أدنى إلا في حال تنافر اجتماع الحُبَّين).

وكل قارئ للقرآن يلاحظ مدى إلحاحه على مراعاة حقوق القرابة، بلغات متعددة نذكر منها :

أ. **أولوية الأرحام :** تكرَّر هذا اللفظ 7 مرات في القرآن، وله لغات متعددة :

---

1. يعرف الراغب الود بأنه : محبة الشيء وتمني كونه. (مفردات ألفاظ القرآن، ص 860)، والموادة في الآية تعني المحبة وليس التمني، ولذلك أدرجناها في هذا البحث.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 236 06/12/2016 22:29:30

أولاً : هذه آية عامة تؤكد (وحدة النوع الإنساني)، تصدَّرت بها سورة النساء، تتميز بوصيته تعالى لنا فيها بتقواه مرتين، لتترافق في المرة الثانية مع تقوى الأرحام، من باب تعظيم أمر صلتها : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء : 1].

ثانياً : وهاتان آيتان من سورتي الأحزاب والأنفال، تؤكِّدان على سبق ولاية الرحم المسطورة في كتاب الله، بالمقارنة مع ولاية الإيمان التي كانت لها السَبقُ في صدر الإسلام، دون أن يعني ذلك إلغاء هذه الأخيرة، ولا سيما فيما يتعلق الأمر بولاية رسول الله ﷺ، كما تؤكد ذلك آية سورة الأحزاب : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ [الأحزاب : 6].

ثالثاً : تماماً، كما لا تعني ولاية الهجرة والجهاد (أي ولاية الإيمان)، إلغاء ولاية القرابة، كما تؤكد ذلك آخر آية من سورة الأنفال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال : 75].

ب. **الإحسان إلى الوالدين :** والأمر بالإحسان إلى الوالدين مُؤكَّدٌ ومكرَّرٌ في القرآن، حيث يأتي ثانياً في ترتيب وصاياه تعالى، مباشرةً بعد عبادته وحده، وقد تكرر هذا الترتيب أربع مرات :

أولاً : في وصايا سورة الإسراء المنيرة، التي يحفظها كل طفل في المدرسة : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 237 06/12/2016 22:29:30

[الإسراء: 23].

ثانياً: في وصايا سورة النساء: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ [النساء: 36].

ثالثاً: في قائمة المحرمات التي ذكرتها سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 151].

رابعاً: بل يذكر القرآن هذه الوصايا على أنها ميثاق قديم، أخذه تعالى من بني إسرائيل، كدليلٍ على وحدة شرائعه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: 83].

ت. **الإحسان إلى ذوي القربى:** القربى من القُربِ في النِسبةِ، وقد وردت في القرآن 16 مرة من أصل 62 مرة لفعل القرب، و 26 مرة للفظ قريب، و 5 مرات لفعل اقترب.

وللقرآن الكريم عبارتان في الدلالة على نسبة القرابة، أولاهما: القُربى مضافاً إليها (ذو، ذي، ذا، ذوي) 12 مرة، و(أولو، أولي) 3 مرات إلى (قربى، القربى)، ومرة واحدة إلى (مقربة)، أما عبارة القرآن الثانية: فتتمثل في لفظ (الأقربين) 6 مرات، والذي جاء متلازماً 5 مرات مع لفظ (الوالدين)، بما يفسر نحته التفضيلي: (أقربون = أفعلون)، جمع أفعل، ونأتي على ما ذكره القرآن في شأنهم ترتيباً وحقاً وتعظيماً:

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 238 06/12/2016 22:29:30

أولاً : وكان (ذو القربى) على رأس قائمةِ من ينبغي إيتاؤهم الصدقات، رصدنا هذا التصدير في عدة سياقات، فـ (ذو القربى) يأتي بعد الله ورسوله في قسمة الغنائم والفيء : ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال : 41]، ﴿مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر : 7].

ثانياً : ويأتي بعد الوالدين في النفقة والإحسان، وسبق لنا عرض الآية رقم 36 من سورة النساء، وهذه آية بالترتيب نفسه من سورة البقرة : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة : 215].

ثالثاً : ويتصدر القائمة في إيتاء الصدقة حين لا يُذكر الوالدان : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء : 26]، ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الروم : 38].

رابعاً : ونلاحظ تعظيم القرآن لشجرة القرابة المكونة من ثلاثة أطراف : آباء[1] وأزواج وذريات، شاملةً جميع من قضى لهم تعالى بصلاحهم، ودخولهم جناتِ عدنٍ : ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر : 8]، ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد : 23].

تعقيبٌ هام : لكن ما يُشنِّع به القرآن في مجال الولاية، هو اتباع الآباء دون علم ولا عقل، كما تبرز ذلك آيتان منيرتان متشابهتان جداً في سورتي

1. ورد لفظ (آباء، الآباء) 57 مرة في القرآن جمعاً، مقابل 22 مرةً لـ (الأب) مفرداً، و 8 مرات لـ (أبتِ).

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 239 06/12/2016 22:29:30

البقرة والمائدة : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة : 170]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة : 104].

ومقابل انعدام العلم والعقل لدى مُتَّبعي الآباء، نجد القرآن ينقل في ثناء واضح إعلان يوسف عليه السلام عن نفسه : ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف : 55]، باعتزازٍ مُسوّغ، اتباعَهُ آباءَهُ : ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف : 38].

وكانت عبادة الله الواحد هي الميثاق الذي أخذه يعقوب عليه السلام من بنيه بحضرة الموت، وأعطوه إياه شهادة صدقٍ خلّدها القرآن : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة : 133].

ملاحظة أخيرة : ننتقل الآن إلى ستة تصاريف، لما يحبه الإنسان، يتعلق أربعة منها بسوء اعتقاد الكافرين وسلوكهم، بينما يتعلق الإثنان الأخيران المتبقيان بسوء سلوك المنافقين.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 240 06/12/2016 22:29:30

من ثوابت القرآن الكريم (7)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾

وقفنا أكثر من مرة عند حب الأنداد من دون الله، ولا سيما في الجزء الأول من هذه الموسوعة، لنقارن بين حُبِّ المشركين لشركائهم المزعومين كحب الله، وبين شدة حُبِّ المؤمنين لله تعالى، المُتمثِّل في إفراده بالألوهية والربوبية، حُبَّاً أكبرَ من حُبِّهم آباءهم وأنفسهم.

أما عودتنا هنا إلى هذا النوع من الحبِّ، فمحاولةٌ لمعرفة سبب تشنيع القرآن سبع مرات بهذا الشرك، الذي جاء بصيغة جعل الأنداد ست مرات، مقابل صيغة جعل شركاء أربع مرات، وصيغة اتخاذ الأنداد مرة واحدة، مقابل صيغة اتخاذ أولياء من دونه 9 مرات.

فالنديَّةُ لغة في الشرك، تتميز بزعم وجود آلهة تساويه تعالى في ألوهيته وربوبيته، يخصها المشركون بحب (بمعنى العبادة)، مساوٍ لذلك الحبِّ الذي يُخَصُّ به تعالى، وتبين آية سورة البقرة طبيعة هذا الحبِّ الخاطئ لدى المشركين : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة : 165].

وسبق في بداية سورة البقرة نفسها، نهيُ القرآنِ الناسَ عن جعل الأنداد لله، وهم يعلمون أن الله هو المنعم عليهم برزقه في هذه الأرض : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِن

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 241 06/12/2016 22:29:30

الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22].

وفي سورة فُصِّلت المكّية، يشنع القرآن بجعل الأنداد لمن خلق الأرض وبارك فيها وقدر فيها أقواتها: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: 9-10].

وهو ما تؤكده آية سورة الزُمَر، التي تخبرنا مثل عدة آيات أخرى في السياق نفسه، كيف يُقابل الإنسان نعم الله عليه بكفرها، ومنه جعلُهُ أنداداً له: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: 8].

وتشتركُ آية سورة إبراهيم أدناه، مع آية سورة الزمر أعلاه، في تقرير نتيجة هذا الجعل، وهي الضلال عن سبيل الله، كما تشتركان في اعتبار فترة الحياة الدنيا متاعاً قليلاً، يليه مصير جاعلي الأنداد إلى أن يكونوا من أصحاب النار: ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: 30].

وهذا ما ترسمه لنا آية سورة سبأ، من خلال نقلها مشهداً من تخاصم الذين استُضعِفُوا مع الذين استكبروا، بسبب أمر هؤلاء أولئك بجعل الأنداد لله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 33].

تواردان أخيران لفعل الاستحباب في صيغتين اثنتين:

من الطبيعي عند مُحبّي الأنداد، تفضيلهم شركهم الذي هو في واقع الأشياء حجب لحقيقة، ينطق بها الكون كلُّه، وهي وحدة الإله، لذلك سمى

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 242 06/12/2016 22:29:30

القرآن هذا الحجب كفراً، هو من المصطلحات الإسلامية التي أدخلها القرآن على العربية، ونقيضه الإيمان، الذي يعني اطمئنان القلب والنفس إلى حقيقة الوجود، توحيدِ الله.

لذلك كان طبيعياً في منطق القرآن تشنيعه باستحباب المشرك الكفر على الإيمان بإله واحد، وباعتبار أن هذا الكفر (الحجب) لم يتأتَّ من علمٍ بجوهر الوجود، وإنما هو تحكّم وتخيُّرٌ عن جهل، كان من الطبيعي كذلك الحكم على الكافرين باستحبابهم العمى (أي الشرك والكفر) على الهدى، الذي هو الإيمان، جاء هذا الحكم وفي قلب صياغته التواردان الأخيران لفعل الاستحباب في القرآن، حيث سبق لنا دراسة توارُدَيهِ الأول والثاني المتعلقين باستحباب الكافرين الحياة الدنيا على الآخرة.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 243 06/12/2016 22:29:31

﴿إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾

سبق لنا في فقرة استحباب الكافرين للحياة الدنيا من هذا الجزء من موسوعة الحبِّ، الإشارة إلى العلاقة بين الآيتين 23 و 24 من سورة التوبة، اللتين يجمعهما سياق النهي عن موالاة الكفار، ولو كانوا على رأس أهل القرابة، ونقف هنا مرة ثانية عند الآية 23 من سورة التوبة، للتركيز على معنى استحباب الكفر على الإيمان : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة : 23].

وإذا رجعنا إلى تعريف الراغب للاستحباب، فإن استحباب الكفر على الإيمان يعني الاستئثار بالكفر، إلى درجة ترك نقيضه الإيمان، وهذا المعنى لاحظناه في بحث عدم حبه تعالى للكافرين، في بداية الجزء الثالث من هذه الموسوعة، نُسلِّط الضوء مرة ثانية على بعض الآيات، التي تبين إصرار الكافرين على كُفرهم، وبالتالي استحالة إيمانهم، مجسدين بذلك معنى الاستئثار في الاستحباب.

﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾

يتأكد هذا الإصرار على الكفر في آيتين متشابهتين جداً من سورتي الإسراء والفرقان، تُبرزان استحالة انتفاع أكثر الناس من تبيان القرآن (تصريفه) لكل شيء، بسبب (إبائهم) إلا البقاء في الكفر : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ [الإسراء : 89]، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 244 06/12/2016 22:29:31

بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ [الفرقان: 50].

وقد رأينا في بحث الكفر كيف يأتي بمعنى عدم شكر النعمة، وآيتا الإسراء وإبراهيم عيِّنتان من آيات عديدة تقرر ميل الإنسان إلى عدم شكر نِعَمِ الله عليه، بعدم ذكرها الذي هو صورة من صور حجبها، وهذا الحجب من صميم معنى الكفر لغة.

تبين آية الإسراء كيف يقابل الإنسان تنجية الله له من المكاره بكثرة الكفر، إلى درجة كون هذا الكفر حالا دائمة له: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ [الإسراء: 67].

وهذه آية سورة إبراهيم، التي تُبرز مدى كرمه وإنعامه تعالى على عباده، الذين يقابلون هذا الكرم والإنعام بكفرهما بسبب كثرة ظُلمهم: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34].

ومن أشد أنواع الكفر مرارة جعل المشركين أبناءً لله من عباده الذين خلقهم، ولا سيما الملائكة: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: 15].

وعدم الإيمان جاء تعريفاً للكُفر في آية سورة الأنفال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: 55]، وتُؤكِّد هذا التعريف آيات عديدة بعدة لغات، نذكر منها الآية الأولى من سورة الرعد، التي تقرر عدم إيمان معظم الناس: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: 1].

وتقرر آيات أخرى مداخلة الكفر لقلوب المجرمين، بلغة السِلكِ، بما

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 245 06/12/2016 22:29:31

يعني استحالة إيمانهم، كما هو الحال في آيتين من سورة الحجر، تَعدّان عدم الإيمان هذا سنة جرت على الأولين من حيث هلاكهم : ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ [الحجر : 12-13]، وهذا ما أكَّدته آيتان من سورة الشعراء بلغة السلك نفسه، وبدلالة الهلاك نفسه، مع إحلال العذاب الأليم محل سنة الأولين : ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الشعراء : 200-201].

وتفصل آيتان من سورة يونس هذا المعنى، معتبرةً هؤلاءِ الذين لا يؤمنون ممن حَقَّتْ عليهم كلمة الله، لذلك لا يُؤمنون حتى يروا العذاب الأليم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[1] [يونس : 96-97].

نعود إلى قلوب الكافرين فنلاحظ في آية سورة النحل، كيف يُلامس عدم الإيمان هذا شغاف قلوب المستكبرين فيملأها إنكاراً : ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل : 22].

وهذا الحال من الإنكار، والاستكبار، تؤكده آية من سورة الأنعام بلغة الطغيان متلازماً مع العَمَهْ : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام : 110].

بينما تتلازم السكرة مع العَمَهِ في آية من سورة الحجر : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر : 72].

وينقلنا العَمَهُ إلى عمى قلوب الكافرين الذين يستحبُّون الكفر على الهدى.

---

1. (حقت) هو مقابل (تمت) تفسيراً للقرآن بالقرآن وليست مرادفة : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود : 119]، ونلاحظ من آية سورة هود أن كلمته تعالى هي قسمه بملء جهنم من الجنة والناس ممن تبع إبليس، كما تفصل ذلك آية سورة ص : ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ... لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص : 85].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 246 06/12/2016 22:29:31

﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾

نصل الآن إلى رابع وآخر توارد لفعل الاستحباب، يشتمل على تشنيع بميل ثمود (وهي نموذج هنا للأقوام الرافضة لرسالات الله) إلى الكفر، مفعول هذا الفعل المُباشر، ويمثِّل (أي الكفر)، حسب منطق القرآن، حالة انعدام لرؤية الأشياء كما هي في الواقع، فأحلَّ القرآن العمى محل الكفر، ليؤدي قُرآنياً معناه هذا، وذلك مقابل الهدى الذي أحلَّه تعالى محل البصيرة، التي تعني في مؤدَّاها رؤية الطريق (أو السبيل) الموصلة إلى النجاة، أي إلى الله : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: 17]، ونتيجة هذا الاستحباب الخاطئ معروفةٌ قرآنياً : هلاك ثمود بما خصَّها به من أدوات الهلاك، وهي الصاعقةُ عقاباً لها على كسبها الخاسر هذا.

تصاريفُ العَمَى في القُرآن

والعمى المذموم في القرآن هو عمى القلب، محلُّ البصيرة، لا عمى البصر، بدليل نفي عمى الأبصار، وإثبات عمى القلوب في آية سورة الحج : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

وإذا رجعنا إلى تصاريف عَمِيَ ومشتقاته في القرآن، لاحظنا غلبة سياقاته بهذا المعنى، فمن أصل 28 تواردا لهذه الكلمة 20 تواردا لنعته (أعمى، عمي، وعميان)، و 6 تواردات لفعله (عَمِيَ، وعُمِّيَ)، وتواردين لمصدره

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 247 06/12/2016 22:29:31

(عَمَى)، جاء 25 مرة في سياقات تشنيع بعمى البصيرة، ولم يرد بمعنى عمى البصر سوى ثلاث مرات : مرة بخصوص أعمى سورة عبس : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس : 1-2]، ومرتين في سياق رفع الحَرَج عن الأعمى والأعرج والمريض في التخلف عن الجهاد : ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور : 61][الفتح : 17].

ولعلَّ الآية الأكثر قُرباً من آية استحباب العمى على الهدى، هي آية سورة فُصِّلت، التي تتميز بإجراء مقابلة بين حال (الهدى) و(الشفاء)، التي يُمثِّلها قبول المؤمنين لهذا القرآن، وبين حال (الوقر) في الآذان، و(العمى) في الأبصار لدى الذين كفروا، والتي يُمثِّلها رفضهم قبول القرآن سماعاً لآياته أو تبصُّراً لها : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت : 44].

ولفهم هذا الحكم الإلهي على حال الكافرين، نُذَكِّرُ بأن من أوصاف كتب الله التي تكرر ذكرها خمس مرات، (ثلاث مرات للقرآن ومرتين للتوراة) اعتبارها بصائر، أي آيات بينة جاءت لتبصِّر الناس بحقائق الوجود والمصير، وتُجسِّد آية سورة الأنعام هذا الحكم، خير تمثيلٍ حيث حكم فيها على من آمن بالإبصار، وعلى من كفر بالعمى : ﴿قَدْ جَاءكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام : 104].

وتصف آيتان أخريان القرآن بأنه (بصائر)، جاءت في الصيغة متميزةً بعطفها الهدى والرحمة على بصائر : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : 203]، ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية : 20].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 248 06/12/2016 22:29:31

ونلاحظ بخصوص التوراة تقديم الوصف نفسه لها، بعنصري العطف نفسيهما، على (بصائر) في آية سورة القصص : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص : 43].

أما في آية الإسراء فقد جاءت (بصائر) وحدها بينما كان موسى يحاور فرعون : ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً﴾ [الإسراء : 102].

تصاريفُ أَعمَى (مُفرداً)

نلاحظ في تواراداته مفرداً عشر مرات في سياق مقابلةٍ (هي في الحقيقة عِظَة)، تكررت عدة مرات على شكل سؤال إنكاريٍّ، تكرر مرتين حول استحالة تساوي حال الأعمى والبصير حالاً ومصيراً، سؤال معروفٌ جوابه بالنفي، والمقصود بالفريقين المختلفين في آية سورة هود، أشخاص (أفراد) مؤمنون وكافرون : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [هود : 24]، وقد شُبِّهوا بشيئين متناقضين (الظلمات والنور) في آية سورة الرعد : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد : 16].

لكن جاءت المقابلة نفسها في آيتين أخريين إخباراً هذه المرة، (وليس سؤالاً) بانتفاء مثل هذا التساوي، سواءً في الناس أم في الأكوان : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ [فاطر : 19-20].

تصاريفُ عَميَ وعُميَان (جَمعًا)

أما تواردات نعت العمى جمعاً عشر مرات، فتخصُّ أقواماً وجماعات

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 249 06/12/2016 22:29:31

مصابة بحال عمى القلب نفسه، وجاء هذا الجمع في ثلاث لغات : (عمي) ثماني مرات، و(عميان) مرة، و(عمين) مرة، ونبدأ من هذا الأخير، حيث تُرجع آية سورة الأعراف، إغراق قوم نوح إلى تكذيبهم بآيات الله، ولا سيما إلى عمى قلوبهم : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ﴾ [الأعراف : 64].

وبهذا المعنى، جاء اعتبار رافضي الهدى من مشركي مكة عُمياً في آية تكررت مرتين في القرآن، بالصيغة نفسها تماماً : ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل : 81] [الروم : 53].

وفي المقابل، نُفِي هذا العمى، وقبله الصَمَمُ، عن عباد الرحمن، حين يُذَكَّرون بآيات ربهم، وذلك في آية سورة الفرقان، التي تفرَّدت بورود جمع (عميان) فيها : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ [الفرقان : 73].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 250 06/12/2016 22:29:31

﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾

ومن كان هذا حاله من العمى فإنه جدير بألا يُحبَّ النصيحة، ولا الناصحين، وهذا ما أكدته آية من سورة الأعراف على لسان نبي الله هود عليه السلام، وهو يبتعد عن مَصارِع قومه عادٍ، بعد أن أخذتهُمُ الرجفَةُ : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 78-79].

و(نصح) خمس مرات، واسم فاعله (ناصحين) 4 مرات، و(ناصحون) مرتين، ومصدره (نُصح) مرة واحدة، هي مشتقاتٌ مفردةٌ قليلةُ التواردِ 12 مرة في القرآن، جاء نصفها في سورة الأعراف ست مرات، في سياق سرد قصص الأنبياء (نوح عليه السلام وهود عليه السلام وصالح عليه السلام) مع أقوامهم الهالكة، ومنها الآية موضوع البحث التي تُبرز عدم حب هذه الأقوام للنصيحة، والناصحين : ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾، وبالتالي استحالة انتفاعها بهذا النُصح، كما تؤكد ذلك آية سورة هود : ﴿وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: 34].

نُلاحظ في تواردات فعل النُصح في قصص سورة الأعراف، تجاوره مع فعل التبليغ عطفاً في آياتٍ ثلاث (62 و 79 و 93)، فهي تنقل خطاب تعريف بالرسالة على لسان نوح عليه السلام، ثم خطاب وداع على لسان هود عليه السلام وصالح عليه السلام، أمام أقوامهم.

لذلك جاء الفعلان (بلّغ) و(نصح) مضارعين على لسان نوح عليه السلام :

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 251 06/12/2016 22:29:31

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 62].

بينما جاء الفعلان الماضيان نفسهما على لسان هود ﷺ في الآية رقم 79 (التي عنونا بها هذه الفقرة)، وعلى لسان صالح ﷺ في الآية رقم 93 شبه المتطابقة مع الآية رقم 79 إلا في خاتمتها: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 79]، ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 93].

وبعد عرض أسباب تشنيع عامة لحالات حُبٍّ خاطئةٍ لدى الكافرين، سنعرض أدناه لموجبات تشنيع بحالات خاصَّةٍ بهذه الأنواع من الحبِّ.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 252 06/12/2016 22:29:31

من ثوابت القرآن الكريم (11)

﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾

فأما حب الحَمْدِ فمعروف عند الناس، عند فعلهم ما هو أساساً موضوع حَمْدٍ، وليس هذا الحُبُّ موضوع تشنيعٍ، ولكن ما هو موضوع تشنيعٍ هو طلبُ الحَمْدِ على فعل مذموم، وتتمثل المفارقة في طلب الحمد في رؤية طالبه فعلَهُ محموداً، وهو في واقعه وعاقبته مذموم.

نحتاج إلى استنطاق الآية من سورة آل عمران، التي عنونا بها هذا البحث، حتى نتبيَّن مراد التشنيع فيها : ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران : 188].

ومع قراءة الآية بإمعان، نلاحظ تكرار مجيء فعل الحُسبان مرتين في صيغة نهيٍ، في صدرها ثم في خاتمتها، حيث حدد هذا التكرارُ سياق الآية الذي يجمع الوعيد مع التشنيع، لبيان استحقاق المعنيين لعذاب الله، وهم الذين جاء وَسَطُ الآيةِ يعرِّفُ بحالهم في جملتين مركبتين، ولا يُهمنا اختلاف الرواة في تحديد هؤلاء المعنيين، أَهُمْ من أهل الكتاب (يهود المدينة) أم من (المنافقين)، لأن توصيف حال حُبِّ الحَمْدِ هنا عام.

وللآية خصوصيات أُخرى، أولها : تفرُّد هذه الآية بمجيء الحمد فيها فعلاً مرة واحدة، بينما الغالب من تواراداته هو في المقام الأول المصدر نفسه بصيغتيه : (الحَمْد) مفرداً 27 مرة، والحمد تابعاً لفعل التسبيح : (سبح بحمده) : 14 مرة، مقابل مجيء صيغة (تستجيبون بحمده) مرة واحدة، يلي المصدر في كثرة التوارد اسم مبالغة اسم المفعول : (الحميد) 17 مرة،

حيث جاء في 10 منها مُحلّىً بـ (الـ) مقابل 7 مرات غير محلّى، فهذه 60 تواردًا من أصل 67 تواردًا للحمد ومشتقاته، جاءت جميعًا في حمده تعالى وحده، وجاء الحمد مرة واحدة بصيغة اسم فاعله جمعًا، في سياق ثناء على المؤمنين : الحامدون، فلم يبقَ سوى ستة تواردات جاءت بحق رسول الله ﷺ : (محمود) مرة، و(أحمد) مرة، و(محمد) 4 مرات.

ويفهم من دلالات هذه التواردات، أنه تعالى هو أهل الحمد، وأن هذا هو حقُّه المُطلقُ تعالى، وأنه هو من يجب له الحمدُ، لتفضُّله على عباده جميعًا في كل شيء، والآية وإن لم تستبعد حمد الإنسان على فعل محمودٍ، إلا أن ما تشنع به هنا هو طلب الحمد على فعل ليس بالمحمود.

ونصل هنا إلى خصوصية الآية الثانية، وهي الأهمُّ، وتتمثل في تجاور فعل الفرح فيها : (يَفْرَحُونَ)، ومفعوله غير المباشر (بِمَا أَتَواْ)، مع فعل الحبِّ (وَّيُحِبُّونَ) ومفعوله المقدر (أَن يُحْمَدُوا)، وتابعه (بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ)، تجاور تلازم من خلال عطف جملة الحبِّ على جملة الفرح، بما يشي بإعجاب هؤلاء المنافقين بفعلهم إعجابًا يُسوِّغ طلبهم الحمد عليه : ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾، لكن فعلهم الذي يفرحون به ليس من الأفعال المحمودة، فقد تم تنكيره والتعبير عنه بلغةِ فعل الإتيان (بِمَا أَتَواْ) الذي جاء مُثبتًا هنا، مقابل مجيء مفعول فعل الحمد المُقدّر (بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ) منفيًا، في نوع من المقابلة بينهما، غايتها إبراز المفارقة في طلب الحمد هذا، فهؤلاء المشنع بهم، لا يفرحون وحسب بفعلهم الخاطئ، بل إنهم يزيدون على خطئهم خطأً آخر، يتمثل في طلبهم الحمد على الخطأ.

فعلهم الخاطئ بحكم المسكوتُ عنه هنا، ويمكن تقديره على النحو التالي : يفرحون بما أتوا به من فعل خاطئ لا يستحق الحمد، وهذا التقدير

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 254 06/12/2016 22:29:31

يُفسِّر لماذا جاء تابع فعل الحمد منفياً : (بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ)، فهم يطلبون حمداً على فعل محمود لم يفعلوه.

وغلبةُ سياق الوعيد واضحة من خلال تكرارين، أولهما : تكرار النهي عن حُسبان نجاة هؤلاء، بلغة المفازة، وثانيهما : تكرار لفظ العذاب : ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ ... فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

لنلاحظ كيف تأكّد وقوع هذا العذاب عليهم أولاً، بنفي مفازتهم منه، ثم بختم الآية بإثباته، وبوصفه بالأليم، وبأنه (لهم)، أي قد أُعدَّ لهم.

تذكرنا آية سورة آل عمران، بآية سورة فاطر، التي وقفنا عندها بخصوص آفة تزيين سوء أعمال الكافرين، بحيث يرونها حسنة : ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر : 8].

كما تُذكرنا بآية سورة الكهف القريبة جداً منها من خلال بيان غلبة الحسبان الخاطئ (الوهم) على الكافر، بحيث لا يرى واقع أمره من الضلال، ولا خسرانه في عاقبته : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [الكهف : 103-104].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 255 06/12/2016 22:29:32

من ثوابت القرآن الكريم (12)

﴿الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾

تأتي الآية المُشنِّعة بحب شيوع الفاحشة من سورة النور، في ختام توبيخ طويل للمؤمنين على خوضهم في حديث الإفك، بحقِّ السيدة عائشة أم المؤمنين y، والمعنيُّ بهذا الحبِّ الآثم خاصة عصبة من المنافقين، عملوا على الترويج لهذا الحديث إيذاءً لرسول الله ﷺ، من خلال الإساءة إلى سمعة زوجته، ولعلَّ الهدف من وراء ما تتضمنه الآية من شدة وعيد تجاه المؤمنين، هو تحذيرهم من عواقب التساهل في الخوض في مثل هذه الأحاديث، ولا سيما انتشار الفاحشة في مجتمع المسلمين : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور : 19].

ولا بد لنا من التنويه، بتجاور هذه الآية مع الآية رقم 21 من السورة نفسها، التي تُحذِّر المؤمنين من اتباع خطوات الشيطان، لأن من شأن هذا الاتِّباع العَمَلَ بما يأمر به من شيوع الفحشاء والمنكر، وفي هذا ربطٌ بين حب المنافقين لشيوع الفاحشة، وأمر الشيطان بالفحشاء أُختِ الفاحشة قولاً وفعلاً، ولا سيما مع تجاورها مع المنكر : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور : 21].

و (فَحُشَ) أصلُ ثلاث صِيَغٍ اسميةٍ وردت بما مجموعه 24 مرة في القرآن، اثنتان منها مفردة هما (الفاحشة)، التي وردت 13 مرة، و (الفحشاء)

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 256 06/12/2016 22:29:32

التي وردت 7 مرات، وواحدة جمع لهما هي (الفواحش) التي وردت 4 مرات.

الفَاحِشَةُ

وجاءت الفاحشة بمعنى الزنا، متجاورةً مع سوء السبيل، في آية سورة الإسراء : ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ [الإسراء : 32]، وجاءت كذلك في سياق تحريم الزواج من نساء الآباء، حيث تجاورت مع المقت، بالإضافة إلى سوء السبيل : ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً﴾ [النساء : 22].

ونلاحظ أعلاه مجيئها نكرةً، لكنها جاءت معرفةً بـ (الـ) في ثلاث مرات، وردت فيها بمعنى فعل قوم لوط عليه السلام، كما هو الحال في آية سورة الأعراف : ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف : 80].

الفَحشَاءُ

وللفحشاء أيضاً دلالة الفاحشة نفسها، إلا أن سياقاتها أعمُّ، نلاحظ ذلك من خلال تلازمها مع المنكر في ثلاث آيات، كما هو الحال في الآية 21 من سورة النور أعلاه، وكذلك في الآية المنيرة من سورة العنكبوت : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت : 45]، لكن آية سورة النحل تُضيف إلى هذا التلازم عنصراً ثالثاً هو البغي، بما يزيد من عمومية دلالة الفحشاء كرذيلة : ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : 90].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 257 06/12/2016 22:29:32

جاءت الفحشاء متلازمة مع السوء في آيتين، كما في آية يوسف : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]، لكن آية سورة البقرة تُضيف إلى هذا التلازم عملاً محرماً ثالثاً هو القول على الله بلا علم : ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 169].

وقد نشأ عن اجتماع الفاحشة والفحشاء في بداية الآية رقم 33 من سورة الأعراف وختامها، جَعلُ دلالتيهما شبه متطابقتين، بقرينة تعلقهما بفعل الأمر مرتين إثباتاً (بزعم من الكافرين)، ثم نفياً (بتكذيب لهم منه تعالى)، وقد عزز هذا التعلقَ طروءُ فعلي الفعل والقول بما يُؤكد ما قاله الراغب في تعريف الفحش من دلالته على الأفعال والأقوال : ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 28].

الفَوَاحِشُ

ولعلَّ لفظ الفواحش (بلغة الجمع)، أكثر عمومية من سابقيه، متضمناً نوعين من السلوكات المُحرَّمة : ظاهرة وباطنة، ونُلاحظ مجيء تحريمها في صدر آية سورة الأعراف قبل الإثم والبغي والشرك والقول بلا علم : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33].

أما تحريمها في آية سورة الأنعام، فقد جاء رابعاً بعد النهي عن الشرك، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، ثم النهي عن قتل الأولاد وقبل قتل النفس : ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 258 06/12/2016 22:29:32

ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 151].

وورد لفظ الفواحش مرتين في سياق ثناء على مؤمنينَ يجتنبون هذه الفواحش، التي جاءت مقترنة بالإثم: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: 37]، ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: 32].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 259 06/12/2016 22:29:32

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 260 06/12/2016 22:29:32

الجزء الخامس

ما يُحِبُّهُ المُؤمن

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 262 06/12/2016 22:29:32

حُبُّ المَغفِرَةِ
﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

بعد أن تعرضنا لمدى حب الإنسان بشكل عام، وغير المؤمن بشكل خاص لما هو عاجل وزائل، من متاع دنياه القليل، غافلاً عن أخراه، سنعرض لما يملأ قلب المؤمن من أنواع حب راقية، لا تخلو من منفعة أكيدة في دنياه، وأخرى آكد في أخراه، ونبدأ بحبٍ عالي الغاية، يتمثل في طلبه مغفرة ربه الغفور، نجد هذا النوع من الحبِّ في آية من سورة النور نفسها، غير بعيدة عن حديث الإفك، وبالتالي عن حب المنافقين لشيوع الفاحشة، وبذلك نتبين الفارق بين ما يحبه المؤمنون، وما يحبه المنافقون.

تنهى آية سورة النور أولي الفضل عن حرمان أولي القربى والمساكين والمهاجرين من عطاياهم، وجاءت الآية بصيغة الجمع انسجاماً مع أسلوب القرآن العام في تعميم الحالات الفردية وجعلها قيماً عامة، وبالرجوع إلى سبب (مناسبة) نزول الآية نجد أن شروط استحقاق العطية الثلاثة (قربى ومسكنة وهجرة) تجتمع في الصحابي مسطح بن أثاثة، ابن خالة أبي بكر الصديق y الذي خاض في حديث الإفك، فأقسم أبو بكر الصديق ﷺ وَقْفَ ما كان يُجرِيهِ عليه من عطاء، والمهم في آيتنا هو خاتمتها المشتملة على مقصد النهي عن الحرمان من العطية، وعلى الأمر بالعفو في لغة تحبيب استفهامية معروف جوابها بالإيجاب، وهي حب المؤمن لمغفرته : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 263 06/12/2016 22:29:32

سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[النور : 22].

لقد أدى هذا الحض التحببي في الآية حين نزلت إلى قَسَم أبي بكر الصديق ﷺ بعدم نزع عطيته عن ابن خالته، وعاد أبو بكر ﷺ إلى ما كان، وقال : والله إني لأحب أن يغفر الله لي، والله لا أنزعها عنه أبداً[1].

1. الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مجلد 4، ص 133.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 264 06/12/2016 22:29:32

إِيتَاءُ المالِ عَلى حُبِّهِ

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾

والنوع الثاني من الحبِّ الراقي لدى المؤمن، يتمثل في إيتائه المال، على الرغم من حبه له تملكاً وتكاثراً، فالمؤمن إنسان في حبه هذا، ولكن حبه لله، وابتغاءه مرضاته يمنعانه من الاستئثار به، فيؤتي منه لمختلف فئات الفقراء المستحقين التي سبق لنا دراستها في هذا الجزء من الموسوعة، ونلاحظ هنا مجيء ثلاث آيات حب للمال في سياق بيان حقيقة البر، من خلال تعريفه عملياً في آية البر المنيرة من سورة البقرة المدنية.

ففي آية البر يأتي إيتاء المال على حبه في بداية قائمة أعمال البر، مباشرةً بعد اختتام قائمة أركان الإيمان الخمسة : ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة : 177]، وفي هذه الآية السابقة واضح ترتيب الإيتاء حباً للمستحقين، بحسب الأولويات، وواضحٌ أيضاً أن الإيتاء للمال خاص بالصدقات النوافل، بدليل مجيء قوله تعالى في الآية (وَآتَى الزَّكَاةَ)، مقرونة بـ (وَأَقَامَ الصَّلاةَ)، وهما فريضتان من الفرائض الخمس الثوابت في القرآن الكريم، ثم بيَّن الله فيها أن حال أصحاب البر الوفاءُ بالعهد، والصبر في الأحوال كلها، وشهد الله لهم بصفتين : الأولى الصدق، والثانية التقوى.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 265 06/12/2016 22:29:32

إِطعام الطَّعام عَلى حُبِّهِ
﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾

وفي آية سورة الإنسان يأتي ذكر إطعام الطعام، رغم حب الإنسان للاستئثار به في سياق ثنائه تعالى على الأبرار، وتحديداً بعد وفائهم بالنذر، وخوفهم من يوم القيامة، هذا الخوف الذي يتكرر ذكره على لسانهم بياناً لهدف هذا الإطعام، ألا وهو وجه الله تعالى، بمعنى رضاه فقط دون طلب جزاء أو شكر العباد : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾، [الإنسان: 5]، ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾ [الإنسان: 6-9]، وفي الآية أعلاه ذكر الله الأصناف الثلاثة (مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً) التي تنال بر الأبرار من الطعام على حبهم له.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 266 06/12/2016 22:29:32

الإنفاق مِمَّا يُحبُّ
﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾

ولا نغادر البر قبل ذكر تحذير آية سورة آل عمران المتضمن تحديد طريقة نوال البر عند الله، وهي إنفاق المؤمن من خير ما عنده من المال أو الطعام، وجاء ذكر هذا الخير بلغة الحبِّ : ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 92].

وحتى نتبين حقيقة هذا المال والطعام المحبوب، نذكر آية من سورة البقرة لاحقة لآية البر، فالمال المحبوب هو ما طاب مما يكسبه الإنسان، وليس الخبيث الذي لا يقبل أساساً أن يأخذ منه إلا وهو مغمض فيه (يأخذه حياءً وهو مغمض العينين على رداءته) : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: 267]، وسبب (مناسبة) نزول هذه الآية إخراج بعضهم صدقاتهم من رديء الطعام (التمر) في المدينة المنورة، مما لو أُهديَ إليهم ما قبلوه، فنهى الله سبحانه عن ذلك، وعاب عليهم هذا الفعل، وهو سبحانه غنيٌّ عما ينفقون، حميدٌ مما يتصدقون من الطيبات.

من ثوابت القرآن الكريم (5)

حبُّ النِّصر

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾

ويتمثل خامس أنواع الحبِّ الراقي لدى المؤمنين في حبهم للنصر الآتي من عند الله، ذكر هذا الحبَّ في آيتين من سورتي الصف وآل عمران.

ففي آيات من سورة الصف، وقفنا عندها في نهاية الجزء 2 من هذه الموسوعة، حول حبه تعالى للذين يقاتلون في سبيله، وهنا نقف عند هذا الحبِّ مرة ثانية في سياق حثّه تعالى المؤمنين على المشاركة في تجارة رابحة هي : (الجهاد في سبيل الله)، التي من أرباحها نصر وفتح قريب، أُفردت لهما خاتمة هذه الآيات بلغة البشارة بهما، وبما سبقهما من مغفرة، وإدخال في جنات، ومساكن طيبة في جنات عدن : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ : تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف : 10-13].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 268 06/12/2016 22:29:32

حُبُّ النَّصر وابتلاءُ الله لعبَادهِ ﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾

ورد هذا الحبُّ للنصر بصيغة الفعل المضارع (تُحِبُّونَ) في آية من سورة آل عمران، و تحديداً في سياق عتابه تعالى، وتوبيخه للمؤمنين على فشلهم وتنازعهم في الأمر، بعد إراءته إياهم نصراً ذُكر تلويحاً بلغة الحبِّ، وليس تصريحاً بلفظه : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : 152].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 269 06/12/2016 22:29:32

من ثوابت القرآن الكريم (7)

عَدَمُ حُبِّ الغيبَة

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾

كان هذا ما يحبه أو ما ينبغي أن يحبه المؤمنون، الذي ورد في الثوابت الستة السابقة، التي تحدثنا عنها باختصار، أما ما لا ينبغي عليهم ألا يحبوه، فهو خاصة (الغيبة) التي شبهتها آية سورة الحجرات بأكل لحم ميت، يعافه المؤمنون وغير المؤمنين، لكون الغائب، موضوع الغيبة، عاجزاً كالميت عن الرد على افتراءات المغتابين : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 270 06/12/2016 22:29:32

الجزء السادس

إشاراتٌ إلى الحبِّ في آيات

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 272 06/12/2016 22:29:33

مُقَدِّمَة

كما هو الحال في كل بحث أكاديمي، تبقى عناصر فيه من الصعب وضعها داخل الأطروحة، والحال كذلك بالنسبة إلى موسوعة الحبِّ، حيث بقيت آياتٌ هامةٌ خارج نطاق الدراسة لفرادة موضوعاتها، فارتأينا تخصيص إشارات سريعة إليها في خاتمة موسوعة الحبِّ المختصرة هذه.

لذلك أضفنا هذه الآيات على أمل استيفاء هذه الموسوعة، لجميع آيات الحبِّ في القرآن.

وتعالج هذه الآيات مسائل هامة يمكن أن تمثل موضوعات دراسات وبحوث قادمة، لا تقف عند لفظ واحد، وإنما عند عدة ألفاظ يجمعها بعضها مع بعض معالجتها لمقاصد قرآنية، لم يتم حتى الآن التطرق إليها بشكل كلي وتفصيلي.

كما أننا أضفنا إلى تصاريف الحبِّ في القرآن، بعضَ تصاريف (الوُدِّ) التي تقترب جداً من موضوع الحبِّ، ولا سيما آية جعل (الوُدِّ) في ختام سورة مريم.

وكما يُعرف الحبُّ بماهيته المتنوعة العناصر، يُعرف كذلك بنقائضه المتعددة (المقت والبغض)، ولا سيما (الكره) الذي كرسنا له مكاناً واسعاً في هذا الجزء الخامس من موسوعة الحبِّ في القرآن الكريم.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 273 06/12/2016 22:29:33

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾

من هذه الآيات نذكر آية سورة المائدة التي تفردت بورود لفظ (أحباء) فيها معطوفاً على لفظ (أبناء)، وكلاهما مضاف إلى الله تعالى، الأول : بلفظ الجلالة، والثاني : بالضمير العائد عليه (أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)، بما يشي بادعائهم السبق على غيرهم من أهل الديانات، بأمرين اثنين هما : (أبناء وأحباء)، لأن من المتعارف عليه تقدّم الأبناء بالمحبة، فهم المحبوبون عند الناس، وهنا يكمن الادعاء، لنقرأ الآية : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ؟ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة : 18].

مركز الاهتمام هنا هو لفظ (أحباء)، لأن أقرب ما يعنيه عطفُهُ على لفظ (أبناء) دلالَةَ هذا الأخير على المحبة، وكثيراً ما يفيد العطف في القرآن في شرح مضمون المعطوف بدلالة المعطوف عليه بالتجاور، وسياق ذكر مقولة اليهود والنصارى هذه هو التشنيع بقولهم (على الله ما لا يعلمون)، فآية سورة المائدة تُذَكّر مدعي هذا السبق بتاريخ عذاب الله لهم بسبب ذنوبهم : (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم)، ويمثل هذا العذاب نقضاً لسبقهم، وخاصة لحب الله لهم، لذلك يلي هذا التذكير تقرير بشريةِ هؤلاء المدعين، بصيغة حكم : (بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ)، نفياً لادعائهم (أبناء)، لأنهم سيحاسبون، مثل غيرهم،

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 274 06/12/2016 22:29:33

بحسب أعمالهم، حيث تم بيان قسطه تعالى بلغة المشيئة التي لا يمكن أن تكون إلا للعدل : (يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ)، ويتأتى هذا العدل من مالك الأكوان : (وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)، ولذلك اختتمت الآية بالتذكير بالآخرة بلغة المصير : (وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ).

ليس هذا الادعاء لسبق غير مستحق حالة مقتصرة على اليهود والنصارى، بل هو كذلك حال غالب المسلمين اليوم الذين يفسرون آية سورة آل عمران تفسيراً خارجاً عن سنن الأقوام : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران : 110]، ذلك أنهم يقفون عند إعلانه تعالى خيريتهم : (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)، ولا يكملون الآية التي تحدد الشروط العملية الثلاثة لهذه الخيرية : (تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّه)، ولذلك كذلك اختتمت الآية بما يشي بامتناع خيرية أهل الكتاب، بسبب امتناع إيمانهم المقتضي عملهم الصالح، بدليل وصف أكثرهم بالفسق : (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ).

وتذكرنا آية سورة المائدة أعلاه بآية سورة البقرة أدناه، ولا سيما من حيث اعتبار مثل هذه المزاعم أماني، أي بلغة القرآن كذباً ناشئاً عن الوهم : ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة : 111].

ولقابلية المسلمين للدخول في وهم الخيرية، نفت آية سورة النساء قيام الحساب على الأماني، مؤكدة على قيامه على العمل، فابتدأت بنفي

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 275 06/12/2016 22:29:33

أماني المسلمين قبل نفي أماني أهل الكتاب : ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾

[النساء : 123].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 276 06/12/2016 22:29:33

من ثوابت القرآن الكريم (2)

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾

ومن هذه الآيات نذكر آية سورة طه، التي تفردت بورود لفظ المحبة فيها بخصوص موسى الرضيع، ورغم تعلق المحبة هنا بالأشخاص الذين سيتكفلون بتربية موسى، ابتداءً من أمه، وختاماً بزوج فرعون، فإن ما يلفت النظر في قوله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، مجيء لفظ المحبة مفعولاً لفعل الإلقاء، ثم نسبة هذه المحبة إليه تعالى بعبارة تقرُّبٍ ورقَّةٍ : (مني)، حيث سُكِتَ عمن سَتُلقَى هذه المحبة في روعه وحياً منه تعالى، وهو مصدر هذا الحبِّ.

ثم يلفت النظر في جملة المحبة تجاورها، تجاور تلازم، مع جملة الصنع : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾، حيث سُكِتَ مرة ثانية عن الصانعين، لأن المهم هو معرفة أن هذا الصنع كله سيتم على عينه تعالى، بمعنى أن راسم هذا الصنع وناظمه هو الله تعالى، سواءً أكان على يد قريب لموسى عليه السلام أم على يد عدو له، لنقرأ الآية في سياق منّة الله الأولى عليه التي سميت (أخرى)، لأن منّة الوحي، وإن جاءت ثانيةً في الزمان، بعد اختيار الله له نبياً، وإيتائه ما آتاه، إلا أنها تبقى هي الأَوْلى والأُولى أهميةً : ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه : 37-39].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 277 06/12/2016 22:29:33

من ثوابت القرآن الكريم (3)

الحبُّ (بمعنى) الوُدّ
﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾
﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾

أولاً: تلازم رحمته مع وُدِّه: كان لنا في بحث التوبة وعلاقتها بالاستغفار، (في الجزء الثاني من هذه الموسوعة)، إشارة سريعة إلى تفرد آية كريمة من آيات سورة هود، وتحديداً في الآية 90، بإعلان نبي الله شعيب ﷺ فيها، وبكل المحبة لربه، عن اتساع رحمته تعالى مترافقة مع وُدّه، وذلك في سياق استعراض مفصَّل لصيغ تلازم رحمته مع مغفرته، ولاحظنا في خاتمة الآية المذكورة تلازم رحمته مع وده، بما يشي بكون هذا الود جزءاً لا يتجزأ من رحمته تعالى، ولا سيما أن هاتين الصفتين قد جاءتا في السياق نفسه، وهو دعوة شعيب ﷺ قومه إلى استغفاره تعالى والتوبة إليه: ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: 90].

ولعل من أخص ما يستوقف الباحث في تصاريف الحبِّ في القرآن، عدم ذكر اسم فاعل الحبِّ كاسم من أسمائه الحسنى تعالى، بينما ذكر في القرآن مرتين اسم فاعل فعل الود بصيغة المبالغة، جاء أولاهما: (الودود) في آية سورة البروج، وجاء ثانيهما: (ودود) في آية سورة هود، وقد جاء اسم الفاعل هذا مترافقاً مع اسمه (الرحيم) في الآية الأولى، ثم مع اسمه (غفور) في الثانية، ومع ذلك فإن فعل الود ومصدره قليلا التوارد بالمقارنة مع توارادات فعل الحبِّ ومصدره، ولا يسعنا إلا القول بأن هذا من خصوصيات

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 278 06/12/2016 22:29:33

القرآن، هذه الخصوصية التي ميزت تواردي ودود دفعتنا إلى (إضافة الود إلى بحث الحبِّ).

ثانياً: تلازم مغفرته مع وُدِّه : وبعد هذه الوقفة السريعة عند خاتمة آية سورة هود، نتوقف عند خمس آيات من سورة البروج، وردت في سياق ثناء عليه تعالى، يذكر ببعض صفاته الحسنى، ومنها خاصة مغفرته تعالى، وتلازمها مع وُدِّه اللذان جاءا بعد ذكر شدة بطشه، وقبل بيان مجده وفعله، ولا يتصف ملك جبار بهذه الصفات ثم يكون غفوراً ودوداً إلا الله تعالى : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: 12-16].

ولابد من الإشارة هنا إلى آية من سورة مريم، تمثلت فرادتها بذكر جعله تعالى وداً للذين آمنوا وعملوا الصالحات في قلوب الناس : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ [مريم: 96].

ثالثاً: والمهمُّ أكثر، هو جعله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات (وُدًّا)، بمعنى أن من صفات إيمانهم وعملهم الصالح، اكتسابَ الوُدِّ من طرفين، بحيث يتحقق فيهم وصف رسول الله ﷺ لهم : (يألفون) و(يُؤلفون)، انطلاقاً من قوله ﷺ : « المؤمن يألَفُ ويُؤلفُ، ولا خير في من لا يَألفُ ولا يُؤلف »[1].

والسؤال: هل هذا ممكنُ التنزيلِ في واقعِ الناس وحياتهم ؟، ولا سيما أن ما يطغى على عالم الإنسان والأديان، و(ليس على المسلمين والإسلام وحده)، هو (ثقافةُ الكراهية)، لا (ثقافةُ الحبِّ والود) ؟

1. صحيح عن جابر ﷺ أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 279 06/12/2016 22:29:33

من ثوابت القرآن الكريم (4)

لا أُحبُّ (بمعنى) لا أؤمِنُ

﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾

ومن هذه الآيات كذلك، نذكر آية سورة الأنعام التي تفردت بإعلان نبي الله إبراهيم عليه السلام، عدم حبه لإله آفل، بمعنى عدم إيمانه، بلغة اليقين، وهنا تكمن خصوصية الآية، أي دلالة الحبِّ على الإيمان إثباتاً ونفياً :

لا أُحبُّ = لا أؤمِنُ

لنقرأ في هذا الصدد آيتين من سورة الأنعام، ابتدأت بهما قصة بلوغ إبراهيم عليه السلام درجة اليقين في إيمانه بالله الواحد، وتبرئه من شرك قومه : ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام : 75-76].

سياق بداية القصة هو سياق إراءة من الله، بمعنى تعليم عملي من لدنه، هدفها إيصال هذا الفتى المتمرد على الشرك إلى يقين التوحيد، فكان من أول نتائج هذه الإراءة الربانية، رؤية إبراهيم لنجم يعبده قومه، لتفرده بالظهور أولاً بعد الغروب، وكذلك لتميز سنائه عن باقي النجوم الظاهرة مع أول جنون الليل، فصرح باعتباره رباً له، لكن بمجرد أفوله سارع إلى نزع الربوبية عنه، بإعلان عدم حبه، أي عدم ميله وعدم رغبته في عبادة إله لا يستطيع البقاء حاضراً : ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾.

ومما يتميز به سياق الأفول هنا، هو مجيئه نقيضاً للرؤية حدثاً، ذلك

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 280 06/12/2016 22:29:33

أن جملة (رأى كوكبا) تتضمن مسكوتاً عنه مفهوماً من السياق هو بزوغ الكوكب، لذلك ذكر فعل الأفول، متضمناً بدوره مسكوتاً عنه هو عدم استمرار رؤية الكوكب، بسبب غيابه الذي هو مضمون الأفول، فصار الغياب هو سبب عدم حب إبراهيم عليه السلام ليس للكوكب ككوكب، وإنما كإله يحضر ويغيب، حضوراً وغياباً لا يدلان على امتلاكه أمر نفسه حتى يمتلك أمر عبَّاده من البشر، وهذا المعنى المادي للأفول المتعلق أساساً بغيبوبة النيرات كالشمس والقمر والنجوم، كما قرر ذلك الراغب، عرف أهل اللغة أصله بأنه استقرار اللقاح في قرار الرحم نقلاً عن الليث، قال اللَّيثُ : إذا استَقَرَّ اللِّقاحُ في قَرارِ الرَحِمِ قيل : قد أَفَلَ، ثم يُقال للحامِلِ : آفِلٌ[1].

قد يقتصر مقتصر على وضع هذا الإعلان في سياق ضيق، هو عبادة النجوم، ولكن هل توحيد الله مجرد نفي لعبادة الحجر والشجر والبشر ؟ أم أنه حب للحي الذي لا يموت، كما تؤكد ذلك آية سورة الفرقان : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ [الفرقان : 58].

والله تعالى ليس حياً لا يموت وحسب، بل هو كذلك حيٌّ قيومٌ قائمٌ بأمر السموات والأرض، وهذا ما تؤكده آيات تلازم فيها وصفه تعالى بالحي القيوم، ولا سيما في الآية الشهيرة باسم آية الكرسي التي صدرت بهما : ﴿اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة : 255]، كما صدرت بهما سورة آل عمران : ﴿اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران : 2].

ومن مقتضيات حياته تعالى وقيامه شهوده الدائم، بحيث لا يعزب عنه شيء ولو كان مثقال ذرة : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ

1. تاج العروس، ج 1، ص 6841.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 281 06/12/2016 22:29:33

تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس : 61]، ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان : 16].

ولذلك نُفيت غفلته التي هي نقيض شهوده في آية سورة المؤمنون : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون : 17].

وخاصة في خواتيم تسع آيات : ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : 74، 85، 140، 149][آل عمران : 99]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود : 123][النمل : 93]، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : 144]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : 132].

ولنفهم أصل نفي حب الآفلين، نلاحظ تشنيع آيتين من سورة النحل بعبادة (بلغة الدعاء) مخلوقين لا يخلقون، أموات غير أحياء، لا يعلمون متى يبعثون : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل : 20-21].

وتضيف آية سورة الأحقاف إلى عجز هذه الآلهة المزعومة صفتي عدم القدرة على الاستجابة لدعاء متعبديهم، بل عدم درايتها أصلاً بدعائهم : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف : 5].

وتتعلق هذه الآيات وغيرها بسياقات تشنيع بالشرك لا يتسع المجال لمعالجتها هنا.

أخيراً : يجب إعطاء الفضل إلى أهله بأن ننسب الاهتمام بخاتمة الآية

رقم 76 من سورة الأنعام : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾، إلى الفيلسوف الشاعر المؤمن الباكستاني (محمد إقبال)، الذي سمى إبراهيم عليه السلام بـ (تارك الآفل) في ديوانه (رموزُ نَفي الذَّاتِ) :

تــاركُ الآفــلِ مِـنْ قـبـلُ الخليلْ   هـو لـلـرُّسْـلِ عـلى الـنـهـجِ دليلْ

نعم إذا اعتبرنا الأنبياء حقاً وصدقا بأنهم هم المحبون الأوائل لله وللناس، بقدر ما يقترب الناس منهم يقتربون من الحبِّ، وبقدر ما يبتعدون عنهم يبتعدون عن الحبِّ، فإن علينا فهمَ كلماته الباقية فينا، نحن ذريَّةَ إبراهيم عليه السلام، ومن هذه الكلمات إعلانه عدم حبه للآفلين، قد يقتصر مقتصر على وضع هذا الإعلان في سياق ضيق، هو عبادة النجوم ؟ ولكن، هل توحيدُ الله مجردُ نفي لعبادة الحجر والشجر والبشر ؟ أم أنه حبٌّ للحي الذي لا يموت وللحاضر الذي لا يغيب، وللرقيب وللوكيل وللولي ؟ إلهٌ يستحق كلَّ الحبِّ وكل العبادة وكُلَّ، وكُلَّ، وكُلَّ.

هل ثمة قيمة أكبر من اختيار عبادة حي قيوم بالمقارنة مع من يعبدون أمواتاً لا يشعرون أيان يبعثون ؟ وهل ثمة حرية وكرامة وعزة أكبر من التواصل مع الأول والآخر والظاهر والباطن القريب المجيب الرحيم الودود ؟ : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾

[الأنعام: 76].

أسئلة تدعونا إلى العمل معاً على نهج إبراهيم عليه السلام، وعلى القول جهرةً : ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 283 06/12/2016 22:29:33

قال الشاعر محمد إقبال :

كـلُّ شـعـبٍ قـــامَ يبـني نهضةً وأرى بُـنـــيـانـكـم مُنقسما
فـي قــديم الـدَّهـــر كُـنـتم أُمَّـةً لَهـفَ نَفسي كَـيفَ صِـرتُم أمما
كـــلُّ مَــــنْ أنـكـــــر ذاتـيَّـتـهُ فـهـو أولــى الـنَّـاس طُـراً بالفَناءْ
لَـنْ يَـرى فـي الـدَّهـر شَخصيَّته كُــلُّ مَــنْ قـلَّـدَ عَـيـشَ الغُرباء

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 284 06/12/2016 22:29:33

من ثوابت القرآن الكريم (5)

الحبُّ (بمعنى) الحِرص ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

ومن هذه الآيات آية من سورة القصص، تفردت بورود فعل الحبِّ فيها بمعنى الحرص الشديد[1] في سياق جديد من سياقات الحبِّ، يتمثل في تذكيره تعالى رسوله محمداً ﷺ، بأن حبه لقومه رافضي دعوته، بل كارهيها، ليس كفيلاً بتحقيق استجابتهم لهذه الدعوة، ذلك أن الهدى من الله، والله لا يهدي من لا يريد هداه : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص : 56]، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ [التغابن : 11]، وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف : 5].

وتأويلنا السياقي للحب بمعنى الحرص في آية سورة القصص، هو من باب تفسير القرآن بالقرآن، حيث تؤكد آية من سورة النحل تدخل في سياق التذكير نفسه، باستحالة هدى من يؤثر الضلالة والزيغ على الهدى، لكن بلغة الحرص : ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النحل : 37].

والتأكيد على هذه الاستحالة، الذي يبدو مقيداً بالهدى في الآيتين أعلاه، أُطلِق في آية سورة يوسف، التي تقرر عدم إيمان معظم الناس، رغم

1. عرف الراغب الحرص بأنه : فرط الشره وفرط الإرادة. (مفردات ألفاظ القرآن، ص 227).

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 285 06/12/2016 22:29:34

حرص رسول الله ﷺ على إيمانهم : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف : 103].

وكما هو جلي لأي قارئ للقرآن، فإن حب رسول الله ﷺ لقومه وحرصه على هداهم، يُعبَّر عنه في آيات عديدة، ويتأكّد عليه بلغات متعددة، لا يتسع المجال هنا لدراستها.

أخيراً : ما زلتُ أتعجبُ، ولم يزل عجبي، حين كنت أواجه خلال دعوتي إلى الله وأنا فتىً، بتحريف للقرآن كان منتشراً في الخمسينات والستينات، وأرجو أن يكون قد زال تماماً، وهو قراءة منقوصة للآية تُحوِّل (لا) النفي في قوله تعالى : (إنَّكَ لَا تَهْدِي) إلى (لا) نهي : (لَا تَهْدِي). واضحةٌ هنا أُميَّةُ أصحاب هذا القول، الذين يريدون أن يقولوا بقَدَريَّة مُنفِّرة، أنه لا حاجة إلى الدعوة، طالما أن الله نهانا عن هدى الناس، أقول : كيف انتشر مثل هذا الفهم للقرآن على مستوى العامة، الذين لا يقرؤون القرآن عن تَدبّرٍ إلا قليلاً ؟ وهل هو من نتائج تعطيل الإنسان لقَدَرِه بإلقاء مسؤولية هدى الناس هذه المرة على القرآن ؟

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 286 06/12/2016 22:29:34

أَحَبُّ (بمعنى) أَفضَلُ
﴿إذْ قالوا لَيُوسُفُ وأخوهُ أَحَبُّ إلى أَبينا مِنَّا﴾
﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾

ومن هذه الآيات، آية من سورة يوسف، تفردت بتفضيل نبي الله يوسف عليه السلام السجن على الجهل مع النساء، حيث السجن يشي تضميناً بالحفاظ على الفضيلة (أو صرف كيدهن)، بينما الصبابة تشي تضميناً بالحرية : ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف : 33].

ويذكرنا هذا المثل الأعلى في الطهارة بين الشبان، بمثل آخر أعلى في طهارة النساء، جسدته مريم عليها السلام والتي أثنى عليها ربها ثناءً خاصاً، تمثل في جعل إحصانها فرجها في صدر فضائل ذكرت بها، وجاء في صيغة صلة موصول تكررت مرتين في القرآن : ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، بحيث أصبح وصفها هذا (الحَصَان) وكأنه اسم لها، ولا سيما في آية سورة الأنبياء التي لم يذكر فيها اسمها : ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : 91]، ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم : 12].

ويرتبط تفضيل العفاف بفضائل أخرى هي من أخلاق من اصطفاهم تعالى من الأبرار، وهو بحث واسع لا مجال للخوض فيه هنا، وبالمقابل

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 287 06/12/2016 22:29:34

تذكرنا آية يوسف ﵇ : ﴿إذ قالوا ليوسفُ وأخوهُ أحبُّ إلى أبينا منَّا ونحن عُصبَةٌ﴾ [يوسف: 8]، تذكرنا هذه الآية بإخوة يوسف ﵇ وكيدهم له، حيث أقسموا بأن أباهم يعقوب ﵇ يحب ويفضل يوسف وأخاه عليهم، وهم عصبةٌ أنفع له في الدنيا، وهم أولى بالمحبة والتفضيل، جهلاً منهم بمقام أبيهم عند ربه، واصطفاء الله لأخيهم يوسف ﵇.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 288 06/12/2016 22:29:34

الحُبّ والكُره

﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: 7].

نعود لنقول ونؤكد المقولة : يُعرف الشيء بماهيته، وهذا ما تم البحث عنه في طول الموسوعة وعرضها بخصوص الحبِّ، حيث تم التوصل إلى أن حبه تعالى هو حب للفضائل، وعدم حبه هو عدم حب للرذائل، لكن آية سورة الحجرات تتضمن أكثر من خصوصية أشرنا إلى بعضها، من حيث أنه تعالى هو متولي توجيه قلوب المؤمنين إلى ما فيه رشادهم، وذلك بـ (التحبيب) وبـ (التكريه)، فأما التحبيب، أي ما ينبغي على المؤمن حبه، فقد خصَّه تعالى بـ (الإيمان)، على أنه جامع لكل الفضائل المذكورة في الجزء الثاني من الموسوعة، وعطف على التحبيب ما ينجم عنه، وهو تزيين هذا الإيمان في القلوب، وهذا معنى يحار فيه المفسرون والمترجمون، وهو من تواردات التزيين الإيجابية القليلة في القرآن، 9 مرات من أصل 43 مرة ورد فيها فعل التزيين ومصدره زينة، فما دلالة التزيين في سياق تجاوره مع التحبيب ؟ هذا سؤال، فأما السؤال الثاني فيتعلق ببنية جملة الآية الثنائية : تحبيب وتكريه، بمعنى أن الرشاد لابد له من استيفاء مضمون التحبيب ومضمون التكريه،

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 289 06/12/2016 22:29:34

ونجد من خلال هذه الثنائية تقابل الإيمان، أصل الفضائل، مع الكفر، أصل الرذائل، فهل تتمثل خصوصية آية سورة الحجرات في جمعها الأصلين تحبيباً وتكريها ؟ والسؤال الثالث والأخير، هل حضور الفسوق والعصيان قد اقتضاه سياق العنت الذي تحذر منه الآية ؟، وهذه أسئلة أجبنا عنها في مضمون كلامنا السابق.

﴿كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾

ورد فعل الحبِّ منفياً 24 مرة في القرآن، لكن لم يرد فعل الكره مسنداً إلى الله سوى مرة واحدة، وتميز بأنه كره لانبعاث المنافقين، أي لأحد أفعالهم السيئة، بمعنى أن القرآن خال من أي إعلان لكرهه تعالى للبشر، أيّاً كانوا : ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة : 46].

مَقتُ الله

وإذا كان الأمر كذلك، فماذا يعني كبر مقت الكفر عنده تعالى لكفر الكافرين ثلاث مرات من أصل خمس مرات ورد فيها (المقت)، وماذا يعني تلازم مقته تعالى مع لفظ (عند) الموضوع للقرب، وفسره الراغب بحكمه تعالى، أي أن (عنده) بمعنى (حكمه) ؟

تواردات المَقتِ

1 | جاء المقت دون لفظ (عند) مرة واحدة في آية تحريم نكاح نساء الآباء بعد الفاحشة وقبل سوء السبيل، فكان نكرة عاماً : ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً﴾ [النساء : 22].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 290 06/12/2016 22:29:34

2 | وجاء المقت مضافاً إلى لفظ الجلالة مقارناً بمقت الكافرين أنفسهم على أنه أكبر منه مع تحديد موضوع المقت، وهو اختيار الكافرين للكفر بعد دعوتهم إلى الإيمان : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر : 10]، وواضح أن مقت الله هو لكفر الكافرين وليس للكافرين أساساً، فهل ترون أن المقت هنا بمعنى عدم رضاه تعالى عن الكفر لعباده، كما أعلن تعالى في آية سورة الزمر عن عدم رضاه للكفر وعن رضاه للشكر نقيض الكفر ؟ : ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر : 7].

3 | لكن بقية تواردات المقت الثلاثة اقترنت بلفظ (عند) مضافاً إليه لفظ الجلالة مرتين :

ث. مرة بخصوص جدال المتكبرين الجبارين في آيات الله بغير سلطان أتاهم، فهو (أي الجدل والتكبر والتجبر) مرض صورته ونهايته الطبع على القلب : ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر : 35].

ج. ومرة بخصوص انفصال قول المؤمن عن فعله، فهو مقت عند الله لا يصيب شخوص المؤمنين وإنما صحائف أعمالهم، لنلاحظ تكرار التشنيع بهذا الانفصال مرتين في آيتين تكادان أن تكونا آية واحدة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف : 2]، ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف : 3].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 291 06/12/2016 22:29:34

ح. وجاء (عند) مضافاً إلى لفظ الرب مرة واحدة : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً﴾ [فاطر: 39]، فهل ترى بأن الراغب كان موفقاً في تأويله عبارة (عند الله) بأنها حكمه ؟

العَداوةُ والبغضاءُ

ولكن الراغب عرف المقت بأنه البغض الشديد، فهل ترى في تصاريف البغضاء القليلة في القرآن ما يثبت أنه تعالى يبغض ؟

لا، بدليل تواردات البغضاء الخمسة التي جاءت في أربع منها مسبوقة بالعداوة منسوبة إلى الشيطان وإلى غير المؤمنين (المنافقين).

أ. لنلاحظ كيف جاءت البغضاء وحدها فقط في آية سورة آل عمران منسوبة إلى المنافقين : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118].

ب. ولنلاحظ كيف جاءت عقابَ إغراء من الله تشنيعاً بنسيان النصارى حظاً من ميثاقهم في آية المائدة : ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 14].

ت. وكيف جاءت عقابَ إلقاء تشنيعاً بطغيان بعض أهل الكتاب وكفرهم وإيقادهم نار الحرب وسعيهم في الأرض فساداً كذلك في آية أخرى من سورة المائدة : ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 292 06/12/2016 22:29:34

ث. وجاءت مرة في سورة المائدة أيضاً، تشنيعاً بالخمر والميسر باعتبارهما وسيلتين من وسائل الشيطان يتخذهما لإيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وصدهم عن ذكر الله، ولا سيما الصلاة : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: 91].

ج. ولم تأت (العداوة والبغضاء) في (سياق إيجابي) إلا مرةً واحدةً في آية سورة الممتحنة، في سياق جعل إبراهيم عليه السلام ومن معه أسوة لنا في التمايز عن المشركين : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: 4].

فَلَيسَ ثَمَّة داعٍ إلى نسبة البغض إلى الله، تعالى عنه علواً كبيراً.

الكُرهُ والإكرَاهُ

ولنتأكد أكثر من هذه الحقيقة، ندرس تواردات الكره في القرآن، فنجد أنه قد جاء في سياقات عامة :

أولها (كوني) : يتعلق بخلق وسيرورة الأكوان، ولا سيما السماء والأرض التي انتظمت بقوانين جريانها أو (إتيانها)، بحسب منطق القرآن طائعة لأمر الله مخيرة ما بين الطوع (المقدم) والكره (المؤخر)، فاختارت المقدم على المؤخر : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

ولا جماد في الأشياء، بل جميعها أحياء على شاكلتها، تمارس إسلامها : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: 83].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 293 06/12/2016 22:29:34

كما تمارس سجودها : ﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد : 15].

ثانيها (دينيٌّ) : إذا كان هذا حال الأشياء والأحياء في الأكوان، فإن الدين الذي هو من خاصة الإنسان لا يقوم إطلاقاً على الإكراه : ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : 256].

وفي هذا السياق العام ينكر القرآن على الرسول المحب للناس، كما رأينا، أن يكره الناس على الإيمان : ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : 99].

وكذلك كان حال نوح عليه السلام : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود : 28]، ذاك هو السياق العام الثاني الذي من خلال آياته العامة، نعلم أنه تعالى لا يقبل كرها ولا إكراهاً.

وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ

ثالثها (فرعوني) : أما السياق الثالث العام فهو حال الكفار في كل زمان ومكان، وحال كبرائهم خصوصاً، ونعني به الإكراه في كل شيء، ومنه أيضاً الفتنة في الدين، ونذكر في هذا السياق آية من سورة طه، تقدم لنا معلومة مهمة، وهي أن سحر السحرة لم يكن مجرد مبادرة من السحرة أنفسهم، وإنما هو من أسيادهم خاصة، كما يقر بذلك سحرة فرعون : ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه : 73].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 294 06/12/2016 22:29:34

وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ / الْكَافِرُونَ / الْمُشْرِكُونَ

رابعها (يتعلق بالله سبحانه) :

1 | بإحقاق الحق وإبطال الباطل : من تواردات فعل الكره الغالبة مجيئه في خواتيم آيات تتعلق بإرادة الله تعالى في إحقاق الحق على رغم كره المجرمين له، مرتين في القرآن : ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال : 8]، ﴿وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس : 82].

2 | بإتمامه تعالى نوره مرتين على رغم كره الكافرين : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة : 32]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف : 8].

3 | بإرساله محمداً بالهدى ودين الحق مرتين على رغم كره المشركين مرتين : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة : 33]، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف : 9].

4 | بدعوته الناس إلى إخلاص العبادة له على رغم كره الكافرين مرة : ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر : 14].

نتيجة : فهذه سبع خواتيم تقرر أن كل ما يحصل بأمر الله من خير للناس، إنما يحصل على كره من فئة من الناس، قاسمهم المشترك كرههم للحق والنور والهدى، أطلق القرآن عليهم وصف المجرمين تارة، والكافرين تارة ثانية، والمشركين تارة ثالثة.

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 295 06/12/2016 22:29:34

وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ... كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ ... وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ

وَتُؤكد حَالَ الكافرينَ مع جميعِ الرسلِ آياتٌ أخرى :

1 | كرههم للحق الذي جاء به الأنبياء من عند الله، والذي جاء به محمد ﷺ : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون : 70]، ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف : 78].

2 | تتميز ثلاث آيات من سورة محمد بذكر كره الكافرين لما أنزل الله مرتين : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد : 9]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد : 26].

3 | كرههم رضوانه باتباعهم ما يسخطه : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد : 28].

هذه نماذج مما يقرره القرآن من قيام الكفر (الجحود والنكران) على الدوام، وفي كل زمان ومكان على (الكره والإكراه)، فهل اتهام الملأ المُترفين أو الجاهلين أو الحاقدين أو المنكرين للإسلامَ بأنه (دين الإكراه)، هو تقرير لواقعنا ؟، أم تبرير لواقعهم ؟، نعتقد أن الثاني هو الحقيقة التاريخية المحجوبة (أو المكفورة، بلغة القرآن) التي تحتاج إلى عشرات الدراسات والبحوث التاريخية، والأطروحات العلمية، كشفاً لواقع ما جرى في التاريخ من اضطهاد وظلم الأنبياء وأتباعهم، ولا سيما المسلمين، ثم الادعاء (أن دين الإسلام هو (دين السيف والإكراه)، وقد أضيف إليه اليوم (الإرهاب) ؟

خاتمة :
إِطلالةٌ على أكثرَ مِنْ ثُلثُ القُرآن مِنْ خِلالِ كَلِمَةِ (الحُبِّ)

يصف الله تعالى القرآن بأنه (الكتاب المبين) في بداية خمس سور مكية، في سياقات ثناء على هذا الكتاب المسطور، جاء هذا الوصف ثلاث مرات في صيغة إخبار : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف : 1] [الشعراء : 2] [القصص : 2]، كما جاء مرتين في صيغة قسم : ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف : 2] [الدخان : 2].

واللافت في سياق بينونة هذا الكتاب، هو الإخبار المتكرر في خمس آيات، كذلك بكون كل ما في الأكوان في كتاب مبين (الكتاب المنشور)، في سياقات تأكيدٍ لإحاطة علمه تعالى بكل شيء، نذكر منها آيتين شبه متطابقتين دمجناهما معاً : ﴿وَمَا / لَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ / عَنْهُ / مِن / مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس : 61] [سبأ : 3].

هذه البينونة التي هي صفة كتاب الله[1] المشتركة في الأكوان (الكتاب

1. من اللافت هنا كذلك ورود عبارة (كتاب الله) ثماني مرات في القرآن للدلالة، حسب السياق، تارة على القرآن وتارة أخرى على الأكوان، نذكر منها أربع آيات استشهاداً على الدلالتين :
أولاً : كتاب الله بمعنى القرآن : ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة : 101]، ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، [آل عمران : 23].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 297 06/12/2016 22:29:35

المنشور)، وفي القرآن (الكتاب المسطور)، تفسر لنا مدى فضله تعالى ومنته على كل قارئ، له قلب، بإمكانية اطلاعه على القرآن (الكتاب المسطور)، انطلاقاً من تصاريف أية (كلمة) مفتاحية فيه، تماماً كما يفعل عالم فلك، يرصد الكون (الكتاب المنشور) اعتباراً من (نقطة) ارتكاز واحدة، وعالَم مقاصد القرآن مثل عالَم الأكوان : خريطة مقاصد عامة مفصلة، يكفيك فيها توجيه النظر إلى نقطة، حتى تتمكن من التجول في كل السماء، وكذلك يكفيك فيه توجيه النظر إلى كلمة، حتى تتمكن من التجول في القرآن الكريم كله.

وفي هذه الموسوعة المختصرة، نطل على مجرات قيم كتاب الله الكبرى من خلال نقطة ارتكاز محددة، هي تصاريف فعل الحبِّ ومصدره، التي وردت في القرآن 83 مرة في 74 آية، تضمنتها 29 سورة، منها 48 آية وردت في سورتين مدنيتين، و 26 آية وردت في 17 سورة مكية.

بتوفيقه تعالى تمت

موسوعةُ الحبِّ في القرآن الكريم

الأحد 12 ربيع الأول 1438 هـ / الموافق لـ 11 كانون الأول 2016 م.

ثانياً : كتاب الله بمعنى الأكوان : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [التوبة : 36]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾، [الروم : 56].

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 298 06/12/2016 22:29:35

الفهرس

الإِهْدَاءُ 7

المُقدِّمَةُ : مَا هُوَ الحُبُّ ؟ 9

الجزء الأول

يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ

من ثوابت القرآن الكريم (1)

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ 20

من ثوابت القرآن الكريم (2)

﴿أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ﴾ 24

من ثوابت القرآن الكريم (3)

﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾ 27

من ثوابت القرآن الكريم (4)

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ 32

من ثوابت القرآن الكريم (5)

﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ﴾ 35

من ثوابت القرآن الكريم (6)

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ 36

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 299 06/12/2016 22:29:35

الجزء الثاني

الَّذينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ

من ثوابت القرآن الكريم (1)

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ 44

من ثوابت القرآن الكريم (2)

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ 51

من ثوابت القرآن الكريم (3)

﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ 60

من ثوابت القرآن الكريم (4)

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ 70

من ثوابت القرآن الكريم (5)

﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ 80

من ثوابت القرآن الكريم (6)

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ 86

من ثوابت القرآن الكريم (7)

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ 94

من ثوابت القرآن الكريم (8)

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً﴾ 100

الجزء الثالث

الذيْنَ لاْ يُحِبُّهُمُ اللهُ

من ثوابت القرآن الكريم (1)

﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ 116

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 300 06/12/2016 22:29:35

من ثوابت القرآن الكريم (2)
﴿وَاللّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ 126

من ثوابت القرآن الكريم (3)
﴿إِنَّ اللّهَ لا يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾ 142

من ثوابت القرآن (4)
﴿وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ 156

من ثوابت القرآن (5)
﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ 164

من ثوابت القرآن الكريم (6)
﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ 168

من ثوابت القرآن الكريم (7)
﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ 176

من ثوابت القرآن الكريم (8)
﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ 187

من ثوابت القرآن الكريم (9)
﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ 189

من ثوابت القرآن الكريم (10)
﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إلا مَنْ ظُلِمَ﴾ 194

الجزء الرابع
ما يُحِبُّهُ الإنسَانُ

من ثوابت القرآن الكريم (1)
﴿كَلا بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ﴾ ﴿إِنَّ هَؤُلاء يُحِبُّونَ العَاجِلَةَ﴾ 206

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 301 06/12/2016 22:29:35

من ثوابت القرآن الكريم (2)

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾

﴿بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدَّنْيَا عَلَى الآخِرَة﴾ 209

من ثوابت القرآن الكريم (3)

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ 210

من ثوابت القرآن الكريم (4)

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ 222

من ثوابت القرآن الكريم (5)

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾ ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيرِ لَشَدِيْد﴾

﴿إِنِّي أَحبَبتُ حُبَّ الخَيرِ عَن ذِكرِ رَبِّي﴾ 231

من ثوابت القرآن الكريم (6)

﴿إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ... أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ 234

من ثوابت القرآن الكريم (7)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾ 241

من ثوابت القرآن الكريم (8)

﴿إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾ 244

من ثوابت القرآن الكريم (9)

﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ 247

من ثوابت القرآن الكريم (10)

﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ 251

من ثوابت القرآن الكريم (11)

﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ 253

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 302 06/12/2016 22:29:35

من ثوابت القرآن الكريم (12)
﴿الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ 256

الجزء الخامس

ما يُحِبُّهُ المُؤمن

من ثوابت القرآن الكريم (1)
حُبُّ المَغفِرَةِ ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ 263

من ثوابت القرآن الكريم (2)
إِيتَاءُ المالِ عَلى حُبِّهِ ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ 265

من ثوابت القرآن الكريم (3)
إِطعام الطَّعام عَلى حُبِّهِ ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ 266

من ثوابت القرآن الكريم (4)
الإنفاق مِمَّا يُحبُّ ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ 267

من ثوابت القرآن الكريم (5)
حبُّ النِّصر ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ 268

من ثوابت القرآن الكريم (6)
حُبُّ النَّصر وابتلاءُ الله لعباده ﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ 269

من ثوابت القرآن الكريم (7)
عَدَمُ حُبِّ الغيبَةِ ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ 270

الجزء السادس

إشاراتٌ إلى الحبِّ في آيات

من ثوابت القرآن الكريم (1)
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ 274

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 303 06/12/2016 22:29:35

من ثوابت القرآن الكريم (2)

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ 277

من ثوابت القرآن الكريم (3)

الحبُّ (بمعنى) الوُدّ ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ 278

من ثوابت القرآن الكريم (4)

لا أُحبُّ (بمعنى) لا أُؤمِنُ ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ 280

من ثوابت القرآن الكريم (5)

الحبُّ (بمعنى) الحِرص ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ 285

من ثوابت القرآن الكريم (6)

أَحَبُّ (بمعنى) أَفضَلُ ﴿إِذْ قالوا لَيُوسُفُ وأخوهُ أَحَبُّ إلى أَبينا مِنَّا﴾

﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ 287

من ثوابت القرآن الكريم (7)

الحُبُّ والكُره ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ

وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ 289

خاتمة : إطلالةٌ على أكثرَ مِنْ ثُلثُ القُرآنِ مِنْ خِلالِ كَلِمَةِ (الحُبِّ) 297

الفهرس 299

traite_amour_coran_arabe_C5.indd 304 06/12/2016 22:29:35